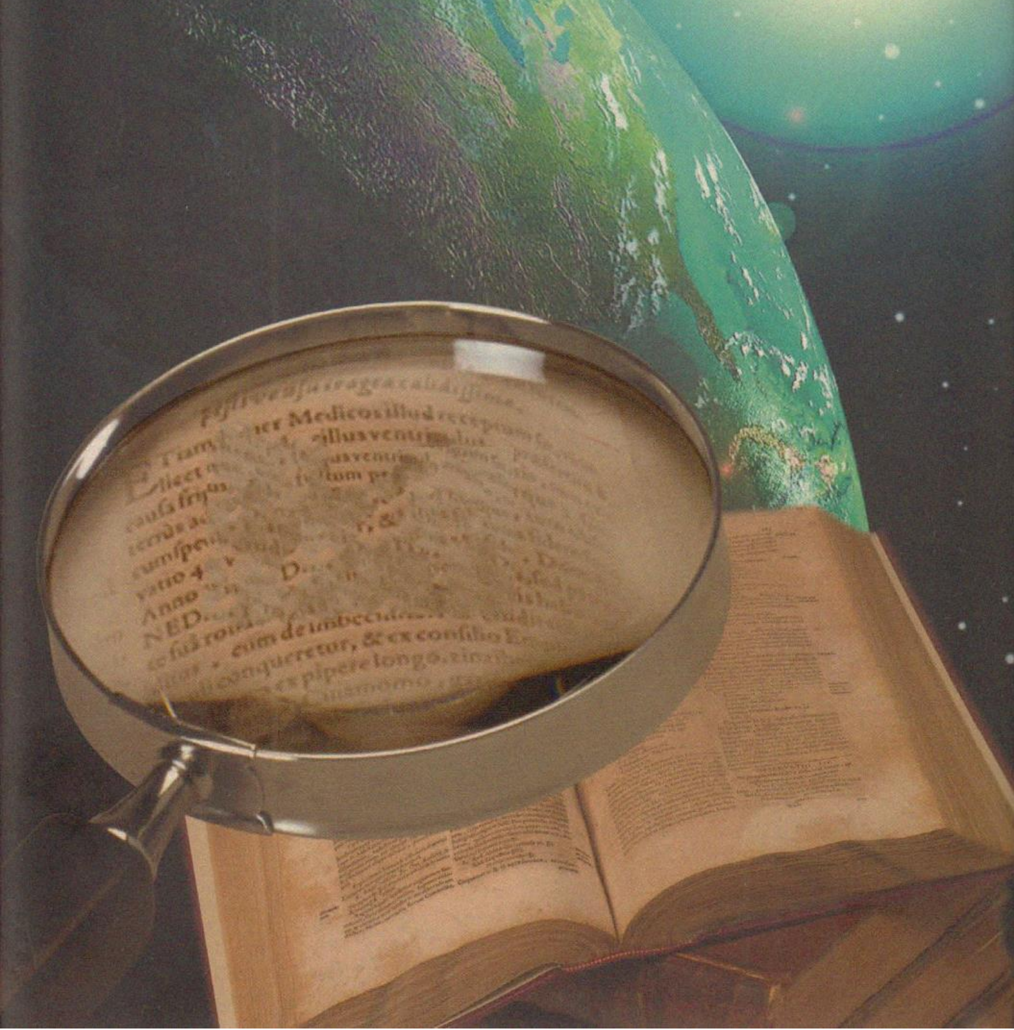
ستيڤن جَيْ گولْد

صخرتا الزمن

الدّين والعلم في امتلاء الحياة

ترجمة: أ.د. محمد عصفور



صخرتا الزمن:
الدّين والعلم في امتلاء الحياة

ستيڤن جَيْ گَولْد

ترجمة: د. محمد عصفور

الطبعة الأولى 1431هـ 2010م

BL240.2 .G6812 2010
Gould, Stephen Jay
صخرتا الزمن: الدِّين والعلم في امتلاء الحياة / سيڤن جَيْ كَولْد؛ ترجمة محمد عصفور. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2010.
ص 228 : 14×21 سم.
ترجمة كتاب: Rocks of Ages: Science and Religion in the Fullness of Life
تدمك: 978-9948-01-605-2
1 - الدين و العلم. 2 - الدين و العلم - تاريخ. أ- عصفور، محمد.

يتضمن هذا النص ترجمة الأصل الإنكليزي:
Stephen Jay Gould
Rocks of Ages
Science and Religion in the Fullness of Life

KALIMA كلمة
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+

أبوظبي للثقافة والتراث ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.cultural.org.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

صخرتا الزمن

المحتويات

الفصل الأوّل
عرضُ القضيّة

تمهيد

أكتب هذا الكتاب الصغير لكي أقدِّم حلاًّ بسيطاً، تقليديّاً تماماً لقضية مشحونة بالعواطف والأثقال التاريخية إلى درجة تجعل الطريق محفوفاً بالصراع والاضطراب. وأنا أشير بذلك إلى الصراع المزعوم بين العلم والدّين، أي إلى ذلك الجدل الذي لا وجود له إلاّ في أذهان الناس وفي الممارسات الاجتماعية، وليس في المنطق أو في الفائدة المستمدَّة من هذين الموضوعين المختلفين تمام الاختلاف واللّذَيْن لا تقلُّ أهمّية أحدهما عن أهمّية الآخر. ولست آتي بجديد عندما أذكر هذه الأطروحة الأساسية (رغم ما قد أزعمه من ابتكار في اختيار الأمثلة التوضيحية). ذلك أن هذه الأطروحة تتبع إجماعاً قويّاً ظلَّ مقبولاً على مدى عقود لدى مفكِّرين كبار في مجالَيْ العلم والدّين على حدٍّ سواء.

كثيراً ما يمنعنا مَيْلُنا للتركيب والتوحيد من التسليم بأن العديد من المشكلات الأساسية في حياتنا المعقَّدة تجد حلولاً أفضل في ظل استراتيجية الانفصال القائم على المبادئ والاحترام. فذوو النوايا الطيبة يرغبون في رؤية العلم والدّين وقد ساد السلام بينهما وتعاونا معاً لإغناء حياتنا العملية والأخلاقية. وما أكثر ما يخطئ الناس انطلاقاً من هذا المبدأ النبيل فيستنتجون أن التعاون بين العلم والدّين يعني أن منهجهما واحد

وأن موضوعهما مشترك – أي أن ثمة بنيةً فكريةً كبرى ستعمل على توحيد العلم والدّين، إما ببثِّ حقيقةٍ ربّانيةٍ قابلةٍ للمعرفة في الطبيعة، وإما بإرهاف المنطق الدّيني إلى درجةٍ من القوَّة تجعل الإلحاد غير ممكن. ولكن العناية الصحيحة بأيِّ كيان مكتمل لا بدَّ من أن تستمدَّ العون من أجزاءٍ مستقلّة مثلما تحتاج الأجسام البشرية إلى الطعام والنوم لكي تبقى على قيد الحياة. وعلينا أن نعيش حياتنا الكاملة في بنايات عديدة تتشكّل منها «حارتنا» التي من شأنها أن تسرَّ أيَّ داعيةٍ حديثٍ للتنوُّع.

وأنا لا أفهم كيف يمكن توحيد العلم والدّين، ولا حتى كيف يمكن وضعهما في مركَّب واحد ضمن أيِّ كيان تفسيري أو تحليلي مشترك. ولا أفهم أيضاً ما يدعو لظهور الصراع بينهما؛ فالعلم يسعى إلى توثيق وقائع العالم الطبيعي وإلى تطوير نظريّاتٍ تعمل على تنسيق هذه الوقائع وتفسيرها. والدّين يعمل من جانبه في مجال الأهداف والمعاني والقِيَم البشرية، وهي أمورٌ تختلف اختلافاً مطلقاً عن تلك التي يقوم بها العلم ولا تقلُّ عنها أهمِّيةً. إنها أمورٌ قد يُلقي حقلُ الوقائع الذي يعمل فيه العلم الضوء عليها ولكنه يعجز عن حلّها. كذلك يجد العلماء أن عليهم أن يؤدّوا عملهم وفق مبادئ أخلاقية يكون بعضُها خاصّاً بالحقل الذي يعملون فيه، ولكنَّ صحَّة هذه المبادئ لا يمكن استنتاجها من المكتشفات الملموسة التي يتوصَّل إليها العلم.

أقترح أن نعبِّر عن مبدأ عدم التدخُّل هذا، القائم على الاحترام المتبادل، الذي يرافقه في الوقت نفسه حوارٌ لا ينقطع بين الموضوعين

المستقلَّيْن اللذَيْن يشمل كلٌّ منهما جانباً أساسيّاً من الوجود الإنساني، بالحديث عن مبدأ عدم تداخل الصلاحيّات.[1] وأنا واثق من أن زملائي الكاثوليك لن يضنّوا عليَّ استفادتي من هذا المصطلح الذي يستعملونه في خطابهم لأن كلمة *magisterium* (المأخوذة من كلمة *magister*، أي معلِّم) تمثِّل حقلاً يخوَّل فيه الشخصُ حقَّ التعليم.

لا شكَّ في أن كلمة magisterium مغرقةٌ في التخصُّص[2]، ولكنني أجدها مناسبة تماماً للمفهوم الأساسي في هذا الكتاب، ولذا فإنني سأغامر بفرضها على مفردات جانبٍ كبير من قرّائي. ويتضمَّن رجائي هذا بأن يمنحني القارئ شيئاً من حلمه طلباً آخر، وهو ألاّ يخلط بين كلمة *magisterium* وبين كلمات قريبة منها لها معانٍ مختلفة - كلمات مثل *majesty* (جلال) و *majestic* (جليل)، إلخ (وهو خلطٌ مألوف لأن الحياة الكاثوليكية تتضمَّن أنشطةً تجري في هذا الحقل المختلف).

---

(1) في الأصل: *the Principle of NOMA*، أي مبدأ نوما. وكلمة NOMA اختصار لعبارة *Non-Overlapping Magisteria*، أي مبدأ عدم التداخل بين صلاحيّات الطرفين. ولكنني لن أستخدم كلمة «نوما» لأنها كلمة مصطنعة ولا تفيد خارج هذا السياق. ولذلك فإنني سأستفيد من التراث الإسلامي المشابه للموضوع الذي يتحدَّث فيه المؤلِّف وأستعمل كلمة «الانفصال» بدلاً منها، تلميحاً موارباً لمقالة ابن رشد عما بين الشريعة والحكمة من الاتِّصال. ومصطلح *Magisteria* مصطلح كاثوليكي يعني الإذن بتعليم أصول الدين (أو الإجازة بالمصطلح الإسلامي). وبذا يكون معنى العبارة أن العالِمَ يُفتي في أمور العلم بينما يُفتي «الفقيه» (إن صحَّ التعبير) في أمور الدين، ولا يتدخَّل أحَدُهما في حقل الآخر. (الهوامش كلُّها من وضع المترجم باستثناء تلك المذيَّلة بكلمة «المؤلِّف»).

(2) وصفها المؤلِّف بأنها *four-bit word*، قاصداً بهذه العبارة المأخوذة من عالم البرمجة الحاسوبية أنها ليست في متناول القارئ غير المتخصِّص.

فهذه الكلمات الأخرى تعود إلى جذرٍ (وطريقٍ) مختلف هو majestas أي (majesty)، وتنتهي إلى كلمة magnus (أي عظيم)، وتتضمَّن معنى الهيمنة والطاعة المطلقة. أما magisterium فتعود إلى حقلٍ يتَّخذ فيه شكلٌ من أشكال التعليم أدواتٍ للخطاب المفيد الذي يؤدّي إلى حلول. وهذا يعني أننا نتحاور ونتبادل الآراء تحت مظلَّة المعلِّم أو الفقيه؛ أي نصمتُ وَجِلين أو نُطيع صاغرين تحت وطأة الإحساس بالجلال.

أقول باختصار، مع شيء من التكرار، إن شبكة العلم تشمل العالم المحسوس: ممَّ يتكوَّن العالم (الواقع)؟ ولماذا يعمل بهذا الشكل (النظرية)؟ أما حقل المعرفة الدّينية فيمتدُّ ليشمل أسئلة عن المعاني النهائية والقيم الأخلاقية. وهذان الحقلان لا يتداخلان ولا يشملان كلّ ما يمكن البحث فيه (خذ مثلاً حقل الفن ومعنى الجَمال). وإن شئنا الاستشهاد بالمقولة المتكرِّرة قلنا إن العلم يسعى لتقرير عصر الصخور، أما الدّين فيسعى لتقرير صخرة العصور. والعلم يدرس كيف تمضي السماء، أما الدّين فيدرس كيف نستحق الذهاب إليها.

سأتناول مبدأ الانفصال بوصفه حلاً للصراع الزائف بين العلم والدّين في أربعة فصول: يضمُّ الأوَّل مقدِّمة تستند إلى حكايتين وتعارُضَين. ويضمُّ الثاني وصفاً لمبدأ الانفصال كما نشأ وتلقّى الدعم من مؤسَّسَتي العلم والدّين. ويتشكَّل الثالث من عرض تاريخيٍّ موجزٍ لأسباب صراعٍ كان يجب ألاّ ينشأ. ويقدِّم الفصل الرابع عرضاً موجزاً للأسباب النفسية للصراع الزائف نفسه، أختِمُه باقتراحٍ لأفضل سبل

التفاعل بينهما.

وأنا أمقتُ المَيْل الشائع في هذه الأيّام لنشر الاعترافات الأدبية، وهو المَيْل الذي يتولَّد عن تداخل مفهومين شديدي الاختلاف هما الشهرة والمكانة. ومع ذلك فإنني أقبل الفكرة القائلة إن الموضوعات الفكريةَ ذاتَ الأهمِّيةِ الشخصية تفرض شعوراً بضرورة الإفصاح عن خلفيَّة الكاتب - بينما تُعْرَف المقالة، بصفتها نوعاً أدبيّاً، بأنها بحثٌ في أفكارٍ عامَّةٍ في سياقاتٍ شخصيَّةٍ منذ أن ابتكر مونْتاني اسمَها في القرن السادس عشر. ولذا فإنني أرجو أن تأذنوا لي بأن أصف زاويةَ نظرٍ جاءت نتيجة لنشأتي العرَضيَّة.

نشأتُ في بيئةٍ بدت لي عادية تقليدية تماماً في عائلة نيويوركية يهودية تتبع النمط المعهود لصعود الأجيال: بَدَأَتْ بجدَّيْن مهاجِرَيْن عملا في ظروفِ عَمَلٍ سيِّئة، وأبوين وصلا الدرجات الدنيا من الطبقة الوسطى، ولكنَّهما لم يتقدَّما كثيراً في مضمار الدراسة، إلى أن وصلنا إلى الجيل الثالث، جيلي أنا، الذي حقَّق ما كُتبَ له ولو بعد حين بعد أن التحق بالجامعات والحياة العملية. (وأنا أتذكَّر استغرابي عندما وَجَدَتْ زوجةُ زميل إنكليزي «مهذَّب» من زملائي هذه الخلفية غريبةً وساحرة. وأتذكَّر أيضاً حادثتين تؤكِّدان ضيق الأفق لدى طفلٍ يسير في شوارع نيويورك تبدو عليه علائمُ المعرفة والحذق: تعود الأولى إلى وقتٍ قال لي فيه أبي إن أغلب الناس في أمريكا ينتمون إلى الديانة البروتستنتية، فلم أصدِّقْه لأن كلّ الناس في حيِّنا كانوا إما من الكاثوليك أو اليهود -

أي من الطبقات العاملة الناشئة من الإيرلنديين والإيطاليين والأوروبيين الشرقيين الذين لم أكن أعرف أحداً سواهم. أما الحادثة الثانية فتعود إلى الوقت الذي قدَّمني فيه صديق بروتستنتي من كانْزَس سِتي لجدِّه وجدَّته فلم أصدِّقه لأنهما تكلَّما بلغة إنكليزية تخلو من اللكنة بينما ظلَّت فكرتي عن «الأجداد» محصورة بالمهاجرين الأوروبيين). وكنت أحلم بأن أصبح عالماً على نحوٍ عامٍّ، مختصّاً بالأحافير القديمة على نحوٍ خاصٍّ، منذ أن شعرتُ بالخوف والرهبة من الهيكل العظمي للتيرانوسورس[1] في متحف التاريخ الطبيعيّ بنيويورك عندما كنت في الخامسة من العمر. ومن حسن حظّي أن هذين الحلُمين تحقَّقا، وأن حبّي الجمَّ لعملي ظلَّ معي حتى الوقت الحاضر ومن دون لحظة شكٍّ، أو أيِّ فترةٍ طويلةٍ من الملل.

كذلك فإنني تمتَّعت بميزة الاحترام الشديد للمعرفة الذي يسود الثقافة اليهودية حتى لدي أفقر الطبقات من الناحية الاقتصادية، ولكنني لم أحصل على تعليم دينيٍّ رسمي - حتى إنني لم أتعرَّض لطقس البلوغ[2] - لأن والديَّ تمرَّدا على خلفيَّتهما العائلية التي قُبِلَتْ على عواهنها. (أما الآن فأرى أنهما بالغا في تمرُّدِهما، ولكن الآراء حول مسائل كهذه تنحو إلى التذبذب من جيل إلى آخر كالبندول إلى أن تستقرَّ في نهاية المطاف في نقطة وسطى بين الطرفين). ولكنّ والديَّ احتفظا بالفخر بالتاريخ والتراث اليهوديين رغم تخلّيهما عن اللاهوت والعقيدة

(1) داينصور منقرض من أكلة اللحوم له طرفان أماميّان قصيران ورأسٌ ضخم.

(2) أو قد نقول التكليف الشرعي، وهو للإناث الثانية عشرة، وللذكور الثالثة عشرة.

الدّينية. (وكانت المحرقة قد قضت على معظم جانِبَيْ العائلة – من دون أن يكون أيٌّ ممن قضوا فيها ذوي صلة شخصيَّةٍ لأنني لم أعرف أيّاً من هؤلاء الأقارب – ولذلك فإن الإنكار والنسيان لم يكونا من بين الخيارات التي كان على والديّ التفكير فيها).

وأنا لستُ من المؤمنين، بل أعدُّ نفسي من فئة اللاأدريِّين بالمعنى الحكيم الذي يرتبط باسم ت. هـ. هَكْسْلي. فقد كان هَكْسْلي هو الذي اشتقَّ الكلمة لوصف نزعة الشكّ ذات العقلية المتفتِّحة بوصفها الموقف العقلاني الوحيد لأن المرء عاجزٌ فعلاً عن المعرفة. ومع ذلك فقد احتفظتُ في ابتعادي عن آراء والديّ وعن أسباب تمرُّدهما باحترام شديد للدّين. وظلَّ الموضوع يشغل فكري أكثر من أيِّ موضوع آخر تقريباً (باستثناء نظرية التطوُّر والأحافير القديمة ولعبة البَيْسْبول). ويعود جانب كبير من هذا الانشغال إلى المفارقة التاريخية المدهشة التي جعلت الدّين المنظَّم في التاريخ الغربي كلِّه يقف وراء أبشع الفظائع وأروع الأمثلة على ما يتَّصف به البشر من نُبل في مواجهة الخطر. (وأنا أرى أن الشرَّ مصدرُه توافُقُ الدّين المتكرِّر مع السلطة الدنيوية. فقد مارست المسيحية نصيبَها من الفظائع سواء في محاكم التحقيق أو في التخلُّص ممن رأت فيهم أعداءً لها – ولكن ذلك لم يحصل إلاّ لأن هذه المؤسَّسة تمتَّعت بسلطة دنيوية عظيمة طوال جانب كبير من التاريخ الغربي. وعندما تمتَّع بنو جلدتي بسلطةٍ مماثلة ولفترة أقصر في زمن العهد القديم[1] فإننا ارتكبنا فظائع

(1) يقصد الزمن الذي يتحدَّث عنه الجزء المسمّى بالعهد القديم من الكتاب المقدَّس.

مماثلة واستعملنا الحجج نفسها).

أنا أؤمن أشد الإيمان باتِّفاق[1] قائم على الاحترام، بل على الحبّ، بين حقلي العلم والدّين – أي بمفهوم الانفصال. ويمثِّل مفهوم الانفصال هذا موقفاً مسوَّغاً بأسباب أخلاقية وفكرية، وليس مجرَّد حلٍّ دبلوماسي. والانفصال يعمل من جهتين. فلئن ما عاد بإمكان الدّين أن يقرِّر طبيعة الاستنتاجات المستمدَّة من العالم المحسوس والواقعة ضمن حقل العلم، فإن العلماء من جانبهم لا يستطيعون ادِّعاء الوصول إلى استنتاجات أعلى في حقل الحقائق الأخلاقية بناءً على معرفتهم الأشمل بمكوِّنات العالم المحسوسة. ويؤدّي هذا التواضع المتبادل إلى نتائج عملية مهمَّة في عالم تسوده العواطف المتباينة. وسيكون من مصلحتنا أن نتَّخذ من مبدأ الانفصال مبدأً لنا وأن ننعم بما سيأتينا به من نتائج.

(1) الكلمة الأصلية هنا هي concordat ، وتعني الاتِّفاق. ولكن للكلمة دلالة خاصة في سياق هذا الكتاب لأنها تدلُّ على الاتِّفاق الذي كان يُعقَد بين البابا والسلطة الدنيوية في بلد من البلدان لتنظيم علاقة الدولة بالكنيسة من الناحية الإدارية.

قصة توماسَين

يظهر الحواريُّ توما[1] ثلاث مرّات على نحو بارزٍ في إنجيل يوحنّا، ويجسِّد في كلِّ مرَّة من هذه المرّات مبدأً أخلاقيّاً أو لاهوتيّاً مهمّاً. ومع ذلك فإن هذه الحوادث الثلاث تتناسق فيما بينها تناسقاً يمكِّننا من فهم القوى والإجراءات المتَّبعة في كلٍّ من العلم والدّين. نصادف توما للمرّة الأولى في الأصحاح الحادي عشر. وفيه يكون لعازر قد مات ويريد يسوع أن يعود إلى «اليهودية» ليعيد صديقه العزيز إلى الحياة. ولكن التلاميذ[2] يتردّدون؛ يذكِّرون يسوع بالعداوة الشديدة التي أدَّت إلى رجمه في زيارته الأخيرة. وهنا يروي لهم يسوع على عادته حكايةً قصيرةً غامضةَ المعنى يُنهيها بقوله بلهجةٍ جازمة إنه لا بدَّ من ذهابه إلى لعازر – وهنا يتقدَّم توما لكسر المأزق وليعيد الشجاعة للتلاميذ، ويقول لهم: «لِنَذْهَبْ نَحْنُ أَيْضاً فَنُقْتَلَ مَعَهُ!».

وفي الحادثة الثانية (في الأصحاح الرابع عشر) يقول يسوع في أثناء العشاء الأخير إنه سوف يتعرَّض للخيانة وللموت الجسماني نتيجة لذلك. ولكنه سوف يمضي إلى مكان أفضل وسيمهِّد الطريق لتلاميذه: «في بَيْتِ أَبِي مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ، .. فَإِنِّي ذَاهِبٌ لأُعِدَّ لَكُمْ مَكَاناً».

(1) هذه هي الصيغة الشائعة لهذا الاسم بالعربية. ولكن تثنيتها بدون السين غريبة الوقع، لذا فإنني أعيد السين عند التثنية فقط.

(2) أستعمل العبارات والأسماء كما ترد في الترجمة العربية المعروفة باسم كتاب الحياة.

وهنا يسأل توما وقد اختلط عليه الأمر: «يَاسَيِّدُ، لاَ نَعْرِفُ أَيْنَ أَنْتَ ذَاهِبٌ، فَكَيْفَ نَعْرِفُ الطَّرِيقَ؟» فيجيبه يسوع بقولٍ من أشهر ما يرد في الكتاب المقدَّس: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لاَ يَأْتِي أَحَدٌ إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي».

وتروي الأساطير أن توما عاش حياةً مليئةً بالجرأة والشجاعة بعد موت يسوع، فنشر رسالة الإنجيل حتى وصلت إلى الهند. كذلك تعرض الحادثتان الأوليان اللتان أشرنا لهما أعلاه إلى صفتيه الجديرتين بالإعجاب: الشجاعة والسعي المخلص للمعرفة. لكننا نعرفه أكثر ما نعرفه من الحكاية الثالثة ومن صفة انتقادية تلتصق باسمه. فقد أخذ يُعرَف باسم توما الشكّاك في لغاتنا وحكاياتنا المتوارثة؛ ففي الأصحاح العشرين يظهر يسوع بعد البعث لمريم المجدلية أوَّلاً، ثم لتلاميذه جميعهم باستثناء توما الغائب. وتمضي الحكاية الشهيرة على النحو الآتي:

«وَلكِنَّ تُومَا.. لَمْ يَكُنْ مَعَ التَّلاَمِيذِ، حِينَ حَضَرَ يَسُوعُ. فَقَالَ لَهُ التَّلاَمِيذُ الآخَرُونَ: «إِنَّنَا رَأَيْنَا الرَّبَّ!» فَأَجَابَ: «إِنْ كُنْتُ لاَ أَرَى أَثَرَ الْمَسَامِيرِ فِي يَدَيْهِ، وَأَضَعُ إِصْبِعِي فِي مَكَانِ الْمَسَامِيرِ، وَأَضَعُ يَدِي فِي جَنْبِهِ، فَلاَ أُومِنُ!»

وبعد أسبوع يعود يسوع، ليكمل الحكاية التعليمية الخاصة، برجل شجاع شديد الفضول حادت به شكوكُه عن الطريق المستقيم، ولكن صَفَتْ نفسُه وغُفرَ له بعد أن تعلَّم درساً قاسياً ينفعنا جميعاً:

وَبَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ، إِذْ كَانَ تَلاَمِيذُهُ مُجْتَمِعِينَ ثَانِيَةً دَاخِلَ الْبَيْتِ وَتُومَا

مَعَهُمْ، حَضَرَ يَسُوعُ وَالأَبْوَابُ مُغَلَّقَةٌ، وَوَقَفَ فِي الْوَسَطِ وَقَالَ: «سَلاَمٌ لَكُمْ!» ثُمَّ قَالَ لِتُومَا: «هَاتِ إِصْبَعَكَ إِلَى هُنَا، وَانْظُرْ يَدَيَّ، وَهَاتِ يَدَكَ وَضَعْهَا فِي جَنْبِي. وَلاَ تَكُنْ غَيْرَ مُؤْمِنٍ بَلْ كُنْ مُؤْمِناً!» فَهَتَفَ تُومَا: «رَبِّي وَإِلَهِي».

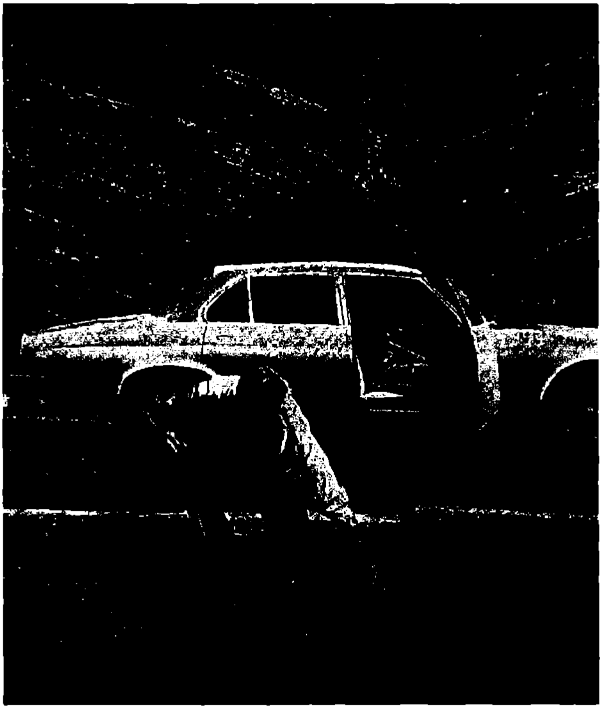
(تكتسب هذه القطعة الأخيرة أهمية كبيرة في التفاسير التقليدية لأنها المرَّة الأولى التي يرى فيها أحد التلاميذ يسوعاً على أنه الله. والمؤمنون بالثالوث يستشهدون بما قاله توما على أنه دليل على الطبيعة الثلاثية لله وأنه آبٌ وابنٌ وروحٌ قُدُسٌ في الوقت نفسه. أما الموحِّدون فيجدون أن عليهم الالتفاف حول المعنى الحرفي فيقولون مثلاً إن كلَّ ما قاله توما لم يكن أكثر من عبارة تدلُّ على الدهشة ولم يقصد منها المطابقة). ومهما يكن من أمر فإن التوبيخ اللطيف الذي وجَّهه يسوع يعبِّر عن المغزى النهائي ويوضِّح الفرق الجوهري بين الإيمان والعلم:

«أَلأَنَّكَ رَأَيْتَنِي آمَنْتَ؟ طُوبَى لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ دُونَ أَنْ يَرَوْا».

أي أن توما نجح في الامتحان لأنه قَبِلَ الدليل المستمدَّ من الملاحظة وندم على شكِّه السابق. ولكن شكَّه يدلُّ على الضعف، لأنه كان عليه أن يعرف بالإيمان والاعتقاد. ويؤكِّد نصُّ الإنجيل على نقاط الضعف عند توما المتمثِّل في مبالغته في حاجته لأن يرى مجموعتي الجروح (في اليدين والجنب)، وأن يستخدم حاسَّتين من حواسِّه (النظر واللمس) لتبديد شكوكه.

وقد مثَّل مارك تانْزي، وهو فنّانٌ معاصرٌ يحبُّ تمثيل الدروس

الأخلاقية والفلسفية الكبرى في التاريخ الغربي باستخدام استعارات يرسمها بأسلوب يبالغ في الواقعية، مثَّل الشكل الصارخ للشكِّ عند توما تمثيلاً جميلاً؛ ففي سنة 1986 صوَّر رجلاً يرفض نظرية زحزحة القارّات عموماً، بل يرفض حقيقة وقوع الزلازل. وكان زلزال قد أحدث شقّاً في شارع من شوارع كاليفورنيا وفي سفح جبل مجاور. ولذا فإنه يطلب من زوجته الجالسة خلف مقود السيّارة أن تضع السيارة فوق الشقِّ بينما يخرج هو منها ليحشر يده في الشقّ المماثل للشقّ الذي أُحدِث في خاصرة يسوع - أي في الشقِّ الذي حدث في الشارع. وقد عَنْوَنَ تانْزي عمله بعبارة **توما الشكّاك**.



وأنا أقبل مغزى هذه الحكاية من أجل المبادئ المهمَّة التي تقع في حقل الأخلاق والقيم. وإذا ما احتَجْتَ للخوض في تفاصيل الفكرة الأساسية ولتجربة النتائج كلَّما أغراك غضبُك بالقتل فإن ولاءك للوصية السادسة[1] ولاءٌ هشٌّ حقّاً. أما ذوو الإيمان الراسخ في حالات كهذه فهم مبارَكون (ويستحقّون ثقتنا) أكثر من أولئك الذين يماحكون ويطالبون بالمسوِّغات في كلِّ مرَّة. مباركون هم من لا يشعرون بتلك الحاجة، لكنَّهم يعرفون طريق العدل واللياقة. لقد استحقَّ توما ما تلقّاه من توبيخ – أما يسوع فقد أثبت أنه معلِّم عظيم بما أبداه من حزمٍ ورفق في التوبيخ.

ولكنني لا أجد قولاً أبعد عن معايير العلم من توبيخ يسوع الشهير لتوما: «طُوبَى لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ دُونَ أَنْ يَرَوْا» – ولا أبعد عن خليقة هذا الحقل، فالشكُّ في الاستشهاد بأولي المكانة العالية، مقروناً بالمطالبة بالدليل المباشر (لا سيّما عند تعلُّق الأمر بدعاوى غير مألوفة) هو الوصية الأولى من وصايا الطريقة العلمية الصحيحة.

مسكين هو توما الشكّاك. فقد تصرَّف في تلك اللحظة الحاسمة التي سمِّيتْ باسمه على نحوٍ يثير الإعجاب في أحد أساليب البحث – ولكن في الحقل الخطأ، فقد لجأ إلى المبدأ الأساسي في العلم بينما كان يؤدّي عمله في حقل الإيمان المختلف.

ولئن نافح الحواريُّ توما عن معايير العلم في الحقل الخطأ فلننظر فيما

---

(1) هي تلك التي تحرِّم القتل.

فعله توما آخر يعتبر عادةً (ولكن دون وجه حقّ) واقعاً في المحلِّ الخطأ، ولكن بالاتِّجاه المعاكس، إذ ينظر إليه على أنه رجل متعصِّب لدِينه تطفَّل على حقل العلم. فقد كتب الأب توَمَس[1] بيرْنِت (1635–1715)، الذي لا يسمع به أحدٌ خارج حقل العلوم هذه الأيام، كتاباً من أبعد الكتب أثراً في أواخر القرن السابع عشر عنوانه *Telluris theoria sacra* أو **نظرية الأرض من وجهة نظر الدّين**، وهو كتابٌ من أربعة أقسام يتناول الأوَّل منها طوفان نوح، والثاني الجنَّة التي سبقته، والثالث «حرق العالم» في المستقبل، والرابع «السماوات الجديدة والأرض الجديدة»، أو الجنَّة بعد الحريق. وقد راج هذا الكتاب رواجاً منقطع النظير في الجيل المعاصر لظهوره واكتسب شهرة دائمة لكونه الملهم الأوَّل لكتابين من أهم الكتب الفكرية في القرن الثامن عشر وأشملها - كتابين كتبا في جانبهما الأعظم لنقده وإن لم يقتصرا على ذلك - وهما كتاب *Scienza nuova* أو **العلم الجديد** لجامْبَتِسْتا ڤيكو (1725) الذي شكَّل أساس الدراسات التاريخية للأنثروبولوجيا الثقافية، وكتاب *Histoire naturelle* أو **التاريخ الطبيعي** لجورج بوفون، وهو المرجع الشامل للعالم الطبيعي الذي بدأ بوفون بوضعه في سنة 1749.

غير أن العلماء في أيامنا هذه لا يقيمون وزناً كبيراً لبيرْنِت، ويعدّونه

---

(1) أعود هنا إلى الصيغة المعتادة خارج الصيغة المستخدمة في الكتاب المقدَّس. وأنا أكتبها «توَمَس» ، لا «توماس» لأن «توَمَس» هو اللفظ الصحيح لـ *Thomas*. وقد نجد أحياناً صيغة «توما» عند المسيحيين العرب بتأثير الفرنسية، ولكننا لا نجد «توماس». والأفضل هو أن نقترب من اللفظ الأجنبي قدر الإمكان.

إما شخصاً أحمق أو ممثِّلاً لقوّة شرّيرة سعت إلى إعادة فرض المعتقدات الكتابية التي لا تقبل النقاش على طرق العلم الجديدة الصحيحة. فقد وصف الكتابُ القديمُ «المعتمد» في تاريخ علم الجيولوجيا؛ **مؤسّسو علم الجيولوجيا** لآرچبولْد كَايكي (في طبعة سنة 1905) كتابَ بيرْنِت بأنه عرض «لأفكارٍ منافية للعقل» أفسدت العلم في أواخر القرن السابع عشر. ووصف كتابٌ تدريسيٌّ حديثٌ كتابَ بيرْنِت بأنه «سلسلة من الأفكار الغريبة عن تطوُّر الأرض»، بينما اكتفى كتابٌ تدريسيٌّ آخر بالقول: «مخلوقٌ شائهٌ من العلم الزائف».

لكن بيرْنِت لم يقُم بعمله كما يفعل العالِم الحديث بل اتَّبع معايير عصره من أجل أن يجد مكانه الصحيح داخل حقل البحث العلمي. فبيرْنِت بدأ فعلاً بفرضيَّة تقول إن الكتاب المقدَّس روى قصَّةً حقيقية عن تاريخ الأرض، ولكنه لم يصرَّ على صحَّتها الحرفية. وكانت النتيجة في واقع الأمر أنه فَقَدَ وظيفته المرموقة التي جعلت منه الراهب الخاص الذي يستمع لاعترافات الملك وِلْيَم الثالث لأنه طرح فكرة التفسير الرمزي للخَلْق كما يرد في سفر التكوين – فقد قال إن الأيام الستة التي ذكرها السِّفْر قد تمثِّل أزماناً لا يمكن تحديدُ أَمَدِها، وليس أياماً طولُ كلٍّ منها أربعٌ وعشرون ساعةً، أو أحداثاً طبيعيةً تتشكَّل كلٌّ منها من دورةٍ كاملةٍ على محور.

لقد قَبِلَ بيرْنِت القصَّة الكتابية على أنها وصفٌ موجزٌ لأحداثٍ فعلية، ولكنه أصرَّ على مبدأ واحدٍ أكثر من غيره، وهو أن تاريخ الأرض

لا يمكن تفسيره تفسيراً صحيحاً إلى أن يصبح بإمكاننا أن نبيِّن أن الأحداث جميعَها ما هي إلاّ نتائجُ حتميَّةٌ لقوانينَ طبيعيَّةٍ لا تقبل التغيير، تعمل بانتظام قابلٍ للمعرفة على النحو الذي برهنه صديقُه العزيز إسحاق نيوتن فيما يتعلَّق بالجاذبية وغيرها من الظواهر الأساسية. لكن المفارقة هي أن أغرب النواحي في وصف بيرنِت نفسه مصدرُها إصرارُه على أن القانون الطبيعي هو مصدر جميع الأحداث التاريخية في تاريخ الأرض وهو ما يفسِّرها – وهذا مطلبٌ عسيرٌ بالنظر إلى الطبيعة الخاصَّة والخارقة لعددٍ من القصص الكتابية، بما فيها الطوفانات والحرائق الكونية.

يبدأ بيرْنِت على سبيل المثال بالبحث عن مصدرٍ لمياه طوفان نوح. (فقد بالغ في التقليل من التقديرات الخاصَّة بعمق المحيطات وسعتها، ولذلك اعتقد بأن البحار الحالية لا يمكنها أن تغمر الجبال، فكتب الآتي: «لو كنت أصدِّق أن من الممكن للإنسان أن يغرق ببُصاقه لصدَّقتُ أن العالم يمكن أن يغرق بما فيه من ماء»). لكن بيرْنِت يعود فينكرُ أبسط الحلول الشائعة في عصره، وهو أن الله خلق المزيد من المياه خلقاً إعجازيّاً. وحجَّته في ذلك أن هذا الحلّ يقع خارج الحقل الذي اختار البحث فيه، وهو الحقل «الطبيعي» (أي العلمي). ذلك أن الإعجاز يقع خارج مجال التفسير العلمي حين نعرِّفه بأنه التعطيل الربّاني للقانون الطبيعي. يستشهد بيرْنِت في رفضه لهذا «المخرج السهل» الذي يرى فيه تحطيماً لأيِّ وصفٍ علميٍّ بقصَّة الإسكندر وعقدة گورديوس. (تقول الأسطورة إن الإسكندر الكبير عندما استولى على گورديوم عاصمة

فْرِجْيا صادف عربة شهيرة ربطت بعمود بعقدة بالغة التعقيد. وقيل إن مَنْ يتمكَّن من حلِّها ستخضع له آسيا كلُّها. فما كان من الإسكندر إلا أن تحايل على قواعد اللعبة واستلَّ سيفه وقطع العقدة قطعتين. يقول بعضُهم إن ذلك دليل على الجرأة، أما أنا ، ومعي بيرْنِت فيما يبدو، فأدعوه دليلاً على الاستخفاف بالعقل). قال بيرْنِت:

يقولون إن الله القدير خلق المياه بقصد إحداث الطوفان، ثم أفناها ثانية عندما حان موعدُ توقُّفِه. وإن هذا باختصار هو كلُّ ما حدث. وهو عندي بمثابة قطع العقدة عندما نعجز عن حلِّها.

أما بيرْنِت فقد ابتكر بدلاً من ذلك نظريةً طريفةً عن أرضٍ كانت في الأصل كرةً منتظمة ذات غلافٍ ناعم صلب يغطّي طبقة من الماء تقع تحتها (هي المصدر الطبيعي الذي غدا فيما بعد مصدر طوفان نوح). ومع مرور الزمن جفَّ هذا الغلاف وتشقَّق، فصعد الماء من خلال الشقوق وشكَّل الغيوم. ثم هطلت الأمطار وأغلقت الشقوق. لكن ضغط الماء المرتفع من الأسفل تفجَّر عبر الغلاف وتسبَّب بالطوفان وأحدث ما نراه الآن من طبوغرافية غير منتظمة على الأرض. إنها نظرية طريفة حقّاً ولكنها فسَّرت الأحداث بحسب القانون الطبيعي، ولذلك فإنها قابلة للاختبار وللدحض ضمن حقل العلم. وقد اختبرنا بالفعل أفكار بيرْنِت ووجدناها فاسدة وسخيفة، وحذفنا اسمه من ثلّة الأبطال العلماء. ولكنه لو تمسَّك بالخَلْق الإلهيِّ للمياه، أي بتلك الفكرة

التقليدية التي لا تخضع للاختبار، لما أَلْهَمَ بوفون وڤيكو وعدداً كبيراً من الباحثين الآخرين.

لقد سار بيرْنِت على خطى مجموعةٍ مدهشة من المؤمنين الذين وضعوا أسس العلم الحديث في أواخر القرن السابع عشر في بريطانيا – منهم نيوتن وهالي وبويل وهُكْ ورَيْ وبيرْنِت نفسه، فقد عبَّر هؤلاء عن أفكارهم بعبارة بليغة تسمح بها مفردات اللغة الإنكليزية تقول إن الله لا يسمح بوجود تعارض بين أقواله (كما وردت في الكتاب المقدَّس) وأفعاله (أي في العالم الطبيعي). غير أن هذا المبدأ لا يقدِّم في ذاته أيَّ تسويغ للعلم، بل قد يتعارض مع فكرتي الأساسية عن انفصال حقلَي العلم والدّين. أَوَلَنْ يندمج العلم في الدّين ويخضع له ويكون في خدمته إذا تحتَّم على الأفعال (أي على العالم الطبيعي) أن تتَّفق مع الأقوال (أي مع النصِّ الكتابي)؟ نعم، إذا أخذنا بأحد التفاسير الممكنة، ولكن على نحوٍ يختلف عما قاله هؤلاء الرجال عن هذا المفهوم. (فتِّشْ دائما عن ظلال المعاني وعن الفائدة المرجوَّة، ولا تقنعْ بالانطباع الأوَّلي الذي تثيره العبارة الغامضة في ذهنك). فقد خلق الله الطبيعةَ في زمنٍ لا قِبَل للعلم بمعرفته. ولكنه وضع أيضاً قوانين ثابتةً يعمل الكونُ بموجِبِها من غير حاجة لتدخُّله فيما بعد إلى الأبد. (إذ هذا هو مبدأ الكمال الذي تعمل به القدرةُ الكلِّية من غير شكّ، وليس عن طريق التعديل المتكرِّر كلَّما دعت الحاجة، أي عن طريق المعجزات الخاصَّة، لإصلاح خطأٍ أو اعوجاجٍ لم يكن في الحسبان – لخَلْقِ مياهٍ إضافيةٍ مثلاً عندما تنشأ الحاجة

لعقاب المعاصي البشرية).

هذا يعني أن الطبيعة تعمل وفق قوانين ثابتة تخضع للتفسير العلمي. والعالَمُ الطبيعي لا يمكنه مناقضة النصِّ الكتابي (لأن الله، خالقَ الاثنين، لا يمكن أن يناقض نفسه). ولذا – وهنا نأتي إلى النقطة الأساسية – إذا بدا أن تناقضاً ما يبرز للعيان بين نتيجةٍ جرى التحقُّق من صحَّتها وبين قراءة تقليدية للنصِّ الكتابي فإن علينا أن نعيد النظر في تفسيرنا لأن العالم الطبيعيَّ لا يكذب، ولكن الكلمات يمكن أن تؤدّي معانيَ متعدِّدة، بعضها رمزيٌّ أو مجازيٌّ. (فإن أثبت العلمُ أن العالَمَ قديمٌ وَجَبَ أن تُفهَم «الأيام» على أنها تمثِّل مُدَداً أطول من أربع وعشرين ساعة). وبهذا المعنى يظهر انفصال الحقلين، وتكون النظرة العلمية هي السائدة عندما يتعلَّق الأمر بالعالَم الطبيعي. ولقد يكون العالِمُ رجلاً ورِعاً تقيّاً على شاكلة هؤلاء الرجال ولكنه يحتفظ في ذهنه بتصوُّرٍ للذات الإلهية يترك العلم حرّاً تماماً في حقله الخاص به (كما لو أن الله ساعاتي زوَّد الساعة بطاقة الحركة عند بدء الزمن في هذه الصيغة من صيغ الانفصال).

اخترتُ تومَس بيرْنِت لتوضيح هذا المبدأ الأساسي لثلاثة أسباب: (1) لأن عمله الأساسي كان في سلك الكهنوت (وبذلك فإنه يمثِّل مبدأ الانفصال إذا ما حافظ على انفصال العالَمَيْن). (2) لأن نظريَّته تعرَّضت إلى قدْرٍ زائدٍ من السخرية نتيجة للوهم القائل بحتمية الحرب مع الدّين. (3) لأنه دافع عن أولوية العلْم على نحوٍ بالغ القوَّة (وبوضوح أشدَّ مما كان لدى صديقه إسحاق نيوتن، كما سنرى فيما بعد). فقد حثَّ

بيرْنِت قُرّاءه بسبب اعتقاده بأولوية العلم على ألا يؤكِّدوا تفسيراً لما يرد في الكتاب المقدَّس يناقض ما يكتشفه العلم، بل على إعادة النظر في تفسير النصِّ الكتابي – ذلك لأن العلم هو السيِّد في حقلٍ ما يصحُّ قولُه عن العالم الطبيعي:

إن من الخطر اللجوء إلى مرجعية الكتاب المقدَّس عند نشوب الجدل حول العالَم الطبيعي ضدَّ ما يقوله العقل لئلاّ يثبت الزمن، الذي من شأنه أن يأتي بالجديد، فساد ما جعلنا الكتاب المقدَّس يؤكِّد صحَّته.

وقد جاء بيرْنِت، في قطعة جميلة تساوي بين حقل العلم المنفصل وبين تصوُّرٍ من أعلى التصوُّرات لله، باستعارةٍ تُصَوِّر التفسيرات المتعارضة لتدمير الأرض بواسطة طوفان نوح قال فيها: ألا يغمرنا إعجابٌ أشدُّ بآلةٍ تؤدّي كلَّ ما يراد منها أن تعمله (سواء أكان ذلك منتظماً أم غيرَ منتظم) بواسطة قوانين طبيعية تعمل بواسطة أجزاء وضعت معاً منذ البداية من ذلك الذي قد نحسُّ به نحو آلة تعمل بصورة جيِّدة في الأمور الأساسية ولكنها تحتاج إلى زيارة خاصَّة من مخترعها عندما تجابه أوضاعاً أعقد:

نحن نعدُّ الفنّان الذي يصنع ساعة تدقُّ بانتظام كلَّ ساعةٍ بواسطة النوابض (الزُّنْبَرَكات) والعجلات التي وَضَعَها في الآلة أفضلَ من ذلك يصنع ساعته بحيث يحتاج إلى أن يدسَّ إصبعه فيها كلَّ ساعة ليجعلها تدقّ. ولو صنع أحدُهم

ساعةً بحيث تدقُّ بانتظام في كلِّ ساعة وبحيث تقوم بكلِّ حركاتها بانتظام إلى أن يحين وقتٌ معيَّنٌ، تنهار عنده من ذاتها، سواءٌ بإشارة تُعطى لها أو بلمسةٍ لنابضٍ من نوابضها: ألن تُعتَبر هذه الساعة عملاً فنّياً أعظم مما لو جاء صانعُها في الوقت المعلوم وحطَّمها بمطرقته؟

لقد مارس بيرْنِت عمله في الحقلين، بصفته راهباً وواحداً من كبار العلماء في عصره، ولكنه جعلهما منفصلَيْن، فأسلم العالَم الطبيعيَّ بكامله للعلْم. ولكنه كان على علْمٍ أيضاً بأن هذا الأسلوب من أساليب البحث لا يمكنه البتَّ في قضايا تقع خارج قدرة الوقائع الملموسة على إيضاحها أو في سياقات لا تنشأ فيها مسائل تخصُّ القانون الطبيعي. وقد جعل بيرْنِت تاريخ الأرض كلَّه من نصيب العلْم، وأدرك أن كلَّ ما كان قبل خلق المادَّة وكلّ تاريخ بعد يوم الحساب لا يمكن حصرُه ضمن حقل المعرفة الطبيعية، واستعمل لذلك استعارةً مستمدَّة من عصره:

أعتقد أن العناية الإلهية جعلتنا قادرين على فهم كلِّ ما يخصُّ عالمنا الواقع تحت مدار القمر على امتداد وجوده من الهيولى حتى آخر الزمن..والأبدية تقع على طرفَي هذا الوجود، قبل بدء العالم وبعد فنائه، وهي خارج نطاق معرفتنا. أما تلك البقعة الصغيرة التي تقع ما بين ذينك المحيطين فبوسعنا أن نتعهَّدها، ونحن سادتها، وفيها يمكننا أن نُعْمِلَ تفكيرنا وأن نَفهَم.

قد يبدو أنني أقرأ أكثر من اللازم في كلمات بيرْنِت، ولكن ألستُ

ألحظ عنده تفضيلاً لواقعية العلم، أو ميلاً لها على الأقلّ، عندما يضطرُّ، في السَّرد التاريخي الذي نجده في كتابه **نظرية الأرض من وجهة نظر الدّين**، لوداع العقل دليلاً له عند انتهائه من التاريخ القابل للمعرفة الواقعية لأرضٍ يحكمها القانون الطبيعي وينتقل للحديث عن مستقبلٍ مختلفٍ تمام الاختلاف عند يوم الحساب، عندما ينشئ الله نظاماً جديداً ويخبرنا (إن شاء أن يخبرنا) عن طريق الوحي؟ هنا يتحدَّث بيرنِت لمُلْهِمَةِ العلْم[1] فيقول:

وداعاً أيتها الرفيقة العزيزة، إذ عليَّ الآن أن أتَّخذ دليلاً آخر وأن أتركك هنا مثل موسى على جبل الفِسْجة، لكي أنظر إلى الأرض التي لا يمكنكِ العبورُ إليها. أنا أقرُّ بفضلِك عليّ، ويا لكِ من رفيقة مخلصة في رحلتي الطويلة منذ بداية الخليقة حتى هذه الساعة... لقد رحلنا معاً عبر أقاليم مظلمة من هيولى أولى وثانية، ورأينا العالم وقد تحطَّم مرَّتين. ولكن لا الماءُ فرَّقنا ولا النار. أما الآن فعليكِ أن تُخْلي المكان لأدلَّة آخرين.

لقد رويتُ قصّة التوماسَين لأُبرز الفرق بين حقلين مختلفين تمام الاختلاف ولكنهما أساسيّان لحيواتنا الغنية المعقَّدة – وهما صخرتا الزمن في عنوان كتابي. وعلينا ألاّ نفترض أن الحقل يستوعبه كتابٌ (وليكن الكتاب المقدَّس) أو وظيفةٌ (وظيفة الراهب في مثالنا). علينا بدلاً من ذلك أن ننظر في الموضوع، في المنطق، في الإفكار المعروضة.

(1) على غرار مُلْهِمَةِ الشعر التي يتحدَّث عنها الشعراء كثيراً.

ويتطلَّب هدفنا المنشود، ألا وهو الاحترام المتبادل، فهماً متبادلاً قبل كلِّ شيء. ولكن عليَّ أن أكمل عرضي دفاعاً عن فكرة الانفصال بأن أروي قصَّة أخرى لها مغزى مشابهٌ ولكن من الناحية الأخلاقية هذه المرَّة قبل أن أقدِّم العرض الفعليَّ في الفصل الثاني.

مَصيرُ أَبَوَيْن

لا أعلم إن كان ثمة ما هو أكثر شيوعاً أو أسخف في الفكر أو الشعور الإنساني من الوهم الذي يجعلنا نخترع أساطير عن «عصر ذهبي» وُجِدَ في ماضٍ يخلو من التعقيد تعمُّه السعادة الغامرة. فكلّما سمعتُ أحلاماً كهذه شعرتُ بالرغبة الجامحة لأن أردِّد مقولةً يجب أن تحفر في وعي كلٍّ منّا بحروف كبيرة على أنها «التذكار العظيم». وأنا شخصيّاً لا أقلُّ مقتاً عن أيِّ شخص آخر للأغاني المزعجة التي تضخُّها علينا المسجّلات ذات الصوت العالي التي يحملها الشباب في الشوارع، ولقوانين الضرائب الأمريكية المعقَّدة، وللمصوِّرين الذين يلتقطون صور المشاهير دون علمهم أو موافقتهم. وكثيراً ما حلمتُ بجمع ثروة طائلة عن طريق تسويق ألياف أخلاقية في صناديق المأكولات المصنوعة من الحبوب بدلاً من المنتوجات الطبيعية الآخذة في الاختفاء. ولكن إذا قال لي أحدُهم إنه كان بودِّه لو أنه قُيِّضَ له العيش في القرن الماضي فإنني سأذكّره بحجَّة لا يمكن دحضها لاختيار اللحظة الراهنة على أنها أفضل زمن عرفناه: إذ سيتمكَّن كلٌّ من له دخْل يكفيه في العالم الصناعي من التمتُّع بميزة لم تحصل عليها أيُّ مجموعة بشرية في السابق بسبب الطبِّ الحديث. فأطفالنا سيكبرون، ولن نفقد نصفهم أو أكثر من نصفهم في مهدهم أو طفولتهم. ولن نجد أنفسنا ونحن نغني الأغاني التي تمزِّق القلب والتي لحّنها ماهْلَر بعنوان *Kindertotenlieder* (أغانٍ عن موت الأطفال).

ولن يتعيَّن علينا أن ندعو مصوِّرَ الحيِّ لالتقاط الصورة الوحيدة لطفلنا المتوفّى (فالأطفال الصغار لم يكن بإمكانهم الجلوس دون حراك دقائق عديدة ضرورية للتصوير الفوتوغرافي في بداياته، بينما الأموات لا يتحرَّكون. وقد تخصَّص مصوِّرون كثيرون في هذا العمل المربح، وإن كان الموت هو مصدر الربح).

قد تخفِّفُ معرفتُنا بالاحتمالات من هول الصدمة، ولكنَّ الفهم المجرَّد للحقيقة القائلة إن نصف الأطفال قد يموتون لن يخفِّف الألم الناتج عن فقدان فرد عزيز إلى الأبد. ولذا فإن أسلافنا ذاقوا مرارة الألم – ذاقوها كلُّهم بلا استثناء، الملوكُ والملكاتُ، وكبارُ الصناعيين وأصحابُ الأراضي الرّيفيّون، لأن الثروة لم تكن ذات جدوى، ولم يكن بوسع أفضل الأطبّاء أن يفعلوا الكثير.

لقد فَقَدَ كلٌّ من چارلز دارْوِن وتومَس هنري هَكْسْلي، أعظمُ بطلين من أبطال العصر الفكتوريّ في حقل علم الأحياء التطوُّري الذي أعمل فيه، طفلَه الأثير في أشدِّ الظروف إيلاماً رغم ما كان لديهما من مالٍ ومعرفةٍ طبِّيَّة. وظلَّ كلٌّ منهما بُعْبُعاً مكروهاً لدى الإحيائيين والأصوليين الدّينيين منذ ذلك الزمن: دارْوِن لأنه جاء بنظرية التطوُّر، وهَكْسْلي لأنه كان أنشطَ في مجال «تجريح الرهبان». (قال هَكْسْلي في مقولة شهيرة إنه لم يكن بوسعه تذكُّر الجهة التي تحتوي على الصِّمام التاجيِّ من القلب الذي سمِّي بذلك الاسم لشبهه بقلنسوة المطران – إلى أن تذكَّر «أن المطران لا يكون على الجانب الأيمن»، فعرف أن الصِّمام التاجيَّ يصل

ما بين الأذين الأيسر والبطين الأيسر).[1] وقد صادف موتُ طفليهما انهِماكَهما بِجَدَلٍ حادٍّ واجه مصيبتهما بمصادر العزاء المسيحية التقليدية – ورفض كلاهما العزاء التقليديَّ على نحو مؤثِّر يقوم على مبادئ آمنا بها.

قد يظنُّ المرء أن الرجلين شعرا بالمرارة بسبب ما قد يَعِدُ به مذهبٌ متزمِّت من طمأنينة زائفة (أو أملٍ كاذب على الأقلّ). ولكن هل جعلتهما مأساة موت الطفلين غير المفهومة يعاديان الدّين عداءً لا موارية فيه كما يزعم مؤرخونا السطحيّون، أو كما يجعلنا نموذجُ الحرب التي لا مهرب منها بين العلم واللاهوت نتوقَّع؟ لم يحصل شيء من ذلك في الواقع لأن كلاًّ من الرجلين أظهر ما يليق بمكانته من جَلَدٍ ورهافة فكر. نعم، لقد فَقَدَ كلٌّ من هَكْسْلي ودارْوِن كلَّ ما بقي لديهما من اعتقاد شخصي بعالَمٍ عادلٍ بطبيعته تحكمه ذاتٌ إلهيَّة مُحِبَّة يسبغ عليها الناس صفاتٍ إنسانية.[2] ولكنَّ ألَمَ الخسارة الشخصية لم يؤدِّ إلاّ إلى تعميق وعيهما بالفرق بين العلم والدّين، وبالاحترام الذي تفرضه علينا المؤسَّستان عندما يمضي المرء في أيٍّ منهما ضمن حقله الخاص به، وبالفرق بين الأسئلة التي يمكن أن يجاب عنها وتلك التي تفوق قدرتنا

---

(1) تعتمد النكتة هنا على اللعب على كلمة *right* التي تعني «اليمين» و «الصواب» أو «الصحيح». فبما أن المطران من وجهة نظر هكسلي لا يكون على الجانب الصحيح (الأيمن) فلا بدّ أن يقع الصِّمام التاجي في الجهة اليسرى من القلب. كذلك فإن كلمة *mitral* (التاجي) مأخوذة من كلمة *miter* التي تعني قلنسوة المطران.

(2) المصطلح الإسلاميُّ هنا هو «التجسيمية»، أي النزعة الطبيعية لدى البشر لتصوُّر الذات الإلهية باللجوء إلى المماثلة مع البشر.

على فهمها أو حتى صياغتها.

ثمَّة قصَّةٌ معروفةٌ تقول إن دارْوِن كان ينوي أن يتَّخذ من الكهنوت مهنة عندما أبحر حول العالَم على ظهر السفينة بيگل، ولكن الطريق انتهت به إلى مهنةٍ أخرى. لكن الاستنتاج القائل إن اكتشاف دارْوِن للتطوُّر جعله يرتدُّ عن دينه ويتَّخِذ علم الأحياء مهنة له لا يثبت أمام الحقيقة. إذ لم يلتزم دارْوِن نفسُه بأن يتّخِذ من اللاهوت مهنةً له في يوم من الأيام. فقد ظلَّت مشاعره الدّينية في شبابه تتَّصف بالفتور، وظلّت آراؤه تقليديةً لا يعكِّر صفوها شيء، وذلك لأنه لم يشغل نفسه كثيراً بالموضوع. ونشأت نيَّة الالتحاق بالكهنوت من غياب البدائل، لا من كونها نتيجةَ الإيمان الفعلي أو الرغبة. وأغلب ظنّي أنه لو ترهبن وصار يدعى «الأب چارلز» لأدّى وظيفته اليومية بالطريقة التقليدية المعروفة بين الرهبان المشتغلين بعلم الأحياء – أي أن وظيفته ستكون وظيفة شكلية تدرُّ عليه دخلاً كافياً بلا واجبات كثيرة، وستترك له وقتاً كافياً لمتابعة العمل الذي يُشعِره بالغبطة الحقيقية: أي جمع الكتب ونشر المؤلّفات عن الخنافس وغيرها من مواضيع التاريخ الطبيعي.

وهكذا نجد أن دارْوِن، الذي ظلَّ حتى أواسط عمره ينعم بثروةٍ طائلة، وسمعةٍ علمية ممتازة، وحياةٍ عائلية سعيدة في بيته الريفي، لم ينشغل بقضايا الإيمان الدّيني الشخصي رغم أن آراءه التطوُّرية جعلته يتخلّى عن عددٍ من المعتقدات التقليدية التي فرضتها عليه نشأته الأنگليكانية. ولكن الشكوك الفكرية اجتمعت مع المأساة الشخصية

في المدَّة الواقعة بين أواخر سنة 1850 و 23 نيسان من سنة 1851 وأدّت إلى تغيير عالمه إلى الأبد.

وجد دارْون أن لديه من الوقت ما يعطيه الفرصة للقراءة ومن راحة البال لكي يفكِّر وأن صحَّته المعتلَّة قد تحسَّنت تحسُّناً ملحوظاً بعد أن قضى عدداً من السنين في عمل دؤوب على تصنيف القشريّات تصنيفاً علميّاً دقيقاً. وقرَّر في آخر الأمر أن يفحص معتقداته الدّينية فحصاً منظَّماً. ولذا فإنه نظر في أعمال مفكِّرٍ بليغِ الأثر كان في ذلك الوقت حديث الجميع، ولكنه غير معروف في وقتنا الحاضر، لأن أخاه الأشهر سلك طريقاً مختلفاً وغطَّت شهرته عليه. فالأخوان نْيومَن لم يحتملا التناقضات التي وجداها في المعتقدات والممارسات الأنگليكانية. وقد أحدث جون هنري نيومَن هزَّة من أعنف الهزّات في الحياة الفكرية البريطانية في القرن التاسع عشر عندما تحوَّل إلى الكاثوليكية ليصل إلى رتبة كردينال فيما بعد. (تسمّى منظمات الطلبة الكاثوليك في الجامعات الأمريكية جمعيّات نْيومَن عادةً تكريما له).

أما فْرانْسِس وِلْيَم نيومَن، الأخُ الأصغرُ للكردينال، فقد حصل من جامعة أوكْسفُرد على شهادةٍ أعلى من شهادة أخيه، وكان يُتَوَقَّعُ له أن يصبح أستاذاً جامعيّاً، ولكنه ترك هذا الصرح الفكريَّ ليصبح أستاذاً للغة اللاتينية في الكلِّية الجامعية غير التقليدية الناشئة في لندن لأنه رفض القبول بالبنود التسعة والثلاثين للكنيسة الأنگليكانية (وفق ما كان القانون والعرف يتطلَّبانه من أساتذة جامعة أوكْسفُرد). مضى نْيومَن

بعد ذلك في رحلةٍ روحيَّةٍ عبر عددٍ من الكتب الرائجة، فانتهى به الأمر إلى تديُّنٍ شديدٍ يقوم على رفض المعتقدات والمذاهب التقليدية القاسية (لا سيَّما فكرة الثواب والعقاب في العالم الآخر عن أعمال عُمِلَتْ في عالمنا هذا) – وذلك لصالح نظامٍ يتَّسق والعقل ومكتشفات العلم الحديث. وقد درس دارْوِن كلَّ كُتُبِ نيومَن الرئيسة بتركيزه المعهود بين سنتي 1850 و 1851 وتوصَّل إلى أفكارٍ مشابهة لأفكار نْيومَن عن خواء المعتقدات التقليدية (وقسوتها أحياناً)، ولكنه لم يجد العزاء في أفكار نْيومَن الخاصة بالإيمان الشخصي، وهذا ما جعله ينتهي إلى موقفٍ متشكِّكٍ تجاه كلِّ نواحي العقيدة الدِّينية.

لكن لولا أن أكبر مأساة في حياة دارْوِن حدثت في هذه الفترة بالذات لما أثَّرت دراسته لأعمال نْيومَن في نظرته للحياة إلى هذا الحدّ. فقد أحبَّ دارْوِن ابنته الكبرى آني حبّاً جمّاً سببه مزيجٌ من رقَّتها الشخصية وشبهها بعمّتها سوزَن، التي قامت بوظيفة الأمّ بعد وفاة والدتها ووالدة چارلز ورعت الأب بمنتهى الرقَّة إلى يوم وفاته قبل سنتين. غير أن آني كانت دائما طفلة معتلَّة الصحَّة.

وفي آذار من سنة 1851 اشتدَّ المرض بآني إلى حدٍّ جعل چارلز وزوجته إما يقرِّران إرسال ابنتهما التي يبلغ عمرها العاشرة إلى عيادة الدكتور گلي في مالڤرن، حيث تحسَّنت صحَّة چارلز نفسه تحسُّنا كبيراً بواسطة أسلوب ذلك الطبيب في «العلاج المائي» الشهير. وتقرَّر إرسالُ أختِ آني مع ممرِّضة خاصَّة لمرافقتها والعناية بها. ورافق چارلز ابنتيه إلى

مالڤَرن وبقي هناك عدَّة أيّام. (أما إما، التي كانت في أواخر أيّام حملها، فقد اتَّبعت تقاليد عصرها وبقيت «تلازم بيتها» في البيت الريفي لآل دارْوِن).

تحسَّنت صحَّة آني في البداية، ثمَّ ما لبثت أن ساءت حالها، فما كان من چارلز إلاّ أن أسرع ليكون إلى جوارها وقضى عدَّة أيّام في عذابٍ ممضّ تحسَّنت حالة آني في أثنائها تحسُّناً يبعث على الأمل، ثم انتكست وعاد اليأس من شفائها، إلى أن أسلمت الروح في الثالث والعشرين من نيسان، فكتب چارلز إلى أخيه إرازْمس يقول: «يعلم الله أننا لا نستطيع أن نرى بارقة راحة من أيِّ جهة من الجهات». وكتب بعد أسبوع في دفتر مذكِّراته الخاصَّة عن افتقاده لجمال آني جسماً وروحاً: «آه لو كان بوسعها أن تعلم كم نحبُّ وجهَها الحبيبَ العامرَ بالِفرح وكم سنظلُّ نحبُّه إلى الأبد. فلتحلَّ بركات الله عليها».

عزَّز موتُ آني القاسي كلّ الشكوك التي أثارتها كتب نْيومَن في چارلز وولَّدتها نظراتُه الثاقبة في الدّين؛ فقدْ فَقَدَ إلى الأبد كلَّ إيمان شخصي بإلهٍ يرعى خَلْقَه، ولم يعُدْ يبحث عن العزاء في الدّين. وتحاشى التصريح بأيِّ قولٍ مباشر في العلن أو في كتاباته الخاصَّة، ولذلك فإننا لا نعلم قرارته الداخلية. وأغلب الظنّ أنه قَبِلَ وصف هَكْسْلي لمذهب اللاأدرية بأنه الموقفُ الفكريُّ الصحيحُ الوحيدُ، بينما ظلَّ في دخيلة نفسه ميّالاً ميلاً قويّاً (يصعب إثباته كما كان يعلم) للإلحاد، وهو مَيْل شجَّع عليه موتُ آني غيرُ المفهوم.

لكن إذا كان العلم والدّين يخوضان معركةً دائمة للسيطرة على البقعة نفسها، فقد كان على دارْوِن أن يعادي الدّين أو أن يُسقطه من حسابه، وأن يتَّخذ من الحياة موقفاً يستهين بالقيَم. وكان عليه أن يتَّخذ من نظرية التطوُّر سلاحاً يحارب به ضدَّ كلِّ راحةٍ كاذبة وخداعٍ قاسٍ في عالمٍ يملأه موت الأطفال وغير ذلك من المآسي التي تعصر القلب وتخلو من أيِّ مغزى أخلاقي. ولكن دارْوِن لم يتَّخذ موقفاً كهذا. لقد حزن حزناً لا يقلُّ عمقُه عن حزن أيِّ إنسان عاش على ظهر البسيطة، ولكنه تجاوز محنته بأن ثابر على العمل. وحافظ على حبِّه للحياة والمعرفة، وسعد بالدفء الذي أحاطته به عائلته وبالنجاح الذي حقَّقته. نعم، لقد فَقَدَ راحته الشخصية وإيمانه بالممارسات التقليدية للدّين، ولكنه لم يُنَمِّ أيَّ رغبةٍ في جعل الآخرين يقبلون موقفه، ذلك لأنه فهم الفرق بين الأسئلة الواقعية التي يمكنها أن تؤدّي إلى أجوبة شاملة في حقل العلم وبين المسائل الأخلاقية التي ينبغي على كلِّ فرد أن يحلَّها بنفسه. وكان من دأبه أن يدافع بكلِّ ما أوتي من قوَّة عن صحَّة النظرية التطوُّرية وواقعيتها. أما أسباب تاريخ الحياة فلم يكن بوسعها حلُّ معضلةِ معنى الحياة. ومعرفة الأسباب الطبِّية للموت قد تمنع المآسي المستقبلية ولكنها لن تخفِّف من آلام الفقدان المباشر أو تُلقي الضوءَ على المعنى العام للعذاب.

سنعود فيما بعد إلى الرسالة المدهشة التي أرسلها دارْوِن لعالِم النبات في جامعة هارفرد أَيْسَا گري (الذي قَبِلَ نظرية الانتخاب الطبيعي والتطوُّر، ولكنه حثَّ دارْوِن على أن ينظر إلى قوانين كهذه على أنها

من وضع الله لغرضٍ قابلٍ للمعرفة) - ذلك أنني أعُدُّ هذه الوثيقة أروع ما كُتِبَ عن العلاقة الصحيحة بين العلم والدّين. أما الآن فأقتبس آراءه التي عبَّر عنها في أيّار من سنة 1860- أي بعد تسع سنوات من موت آني، وبعد ستة أشهر من نشر كتاب **أصل الأنواع** - حول السبب الذي يجعل حقيقة التطوُّر عاجزة عن حلِّ الأسئلة الدّينية المتعلِّقة بالمعنى النهائي:

آتي الآن إلى الموقف اللاهوتي من المسألة. إنه مصدر أَلَم دائم لي. يُشعِرُني بالضياع التامّ. لم أقصد أن أكتب شيئاً إلحاديّاً. ولكنّني أقرُّ بأنّني لا أرى أدلّة على التخطيط والخير أينما توجّهت بالوضوح الذي يراهما فيه الآخرون، وكما أحبُّ أنا أن أفعل؛ ففي العالم من الشقاء أكثرُ مما ينبغي... ولا أستطيع الاكتفاء، من الناحية الثانية، بالنظر إلى هذا الكون الرائع، لا سيما طبيعة الإنسان، وأن أستنتج أن كلّ شيء نتيجةٌ لقوّة عمياء. أنا أميل للنظر إلى كلِّ شيء على أنه نتيجة لقوانين صُمِّمت تصميماً بكلّ تفاصيلها سواء أكانت خيِّرة أم شرّيرة، لتعمل عملها بما قد ندعوه بالصدفة. أنا لا أقول إن هذه الفكرة تقنعني. ولكنني أشعر شعوراً عميقاً جدّاً بأن الموضوع برمَّته أعمقُ من أن يحيط به العقل البشري. إن التفكير فيه أشبه بتفكير كَلْبٍ يحاول فهم عقل نيوتن.

كان تومَس هنري هَكْسْلي أصغر سنّاً من دارْوِن، ولكنه كان زميلاً لامعاً مفوَّها له، وعُرِفَ بأنه «حارسُه» والمدافع عن نظريته الخاصَّة بالتطوُّر ضد جميع التيّارات الاجتماعية والدّينية المحافظة. وقد فَقَدَ

هَكْسْلي ابنه البكر الأثير نويل في 15 أيلول 1860 وهو في الثالثة من عمره – أي بعد أربعة أشهر من تاريخ رسالة دارْوِن لكَري، وبعد سنة من قراءة هَكْسْلي لكتاب **أصل الأنواع** وتعبيره عن دهشة يسودها الوجل ويتخلَّلها شيء من الحسد: «يا لشدّة غبائي لأنني لم أفكِّر بذلك!»

كانت آني، ابنة دارْوِن، معلولة الصحَّة، وجاء موتها تحقيقاً لاحتمالٍ كان كلٌّ من چارلز وإما، يعلمان به ويتمنَّيان أن يمنعا تحقُّقه فضلاً عما يمكن أن يفعله أيُّ دعاء ممكن. أما نويل هَكْسْلي فكان مليئاً بالحيوية والحركة، وكان قد لعب مع أبيه قبل أن يحين موعد النوم يوم الخميس، ولكنه مات يوم السبت. وقد كتب هَكْسْلي: «كأنَّ الصبيَّ حُقِنَ بسمٍّ قاتل». وقد قدّم كثيرٌ من أصدقاء هَكْسْلي العزاء له بهذه المناسبة التي وصل فيها حزنُه مداه، ولكنه لم يكشف عن مكنون نفسه إلاّ لذلك الرجل الذي كان هَكْسْلي يُكِنُّ له أقصى درجات الاحترام ويختلف معه أعمق الاختلاف – لرجل الدّين اللبرالي چارلز كنگزلي، الذي كان أيضاً عالم أحياءٍ هاوياً حقَّق بعض الشهرة، وكان من المدافعين عن نظرية التطوُّر، ولم يكن يرى أيَّ تعارضٍ بين العلم وواجباته الكهنوتية، وهو مؤلِّف الرواية الرائجة **هيّا إلى الغرب!** وقصيدة **أطفال الماء**.

كان كنگزلي قد حاول تعزية صديقه المتشكِّك بفكرة مؤدّاها أن هَكْسْلي في هذه الساعة التي بلغت حاجته للتعزية مداها قد يودُّ أن يعيد النظر في شكوكه ويجد العزاء في المذهب المسيحيِّ القائل بأبدية الروح

وما يرافق ذلك من إمكانية اللقاء بنويل ثانية في حياة أخرى مختلفة. وقد سلَّم كنگزلي في رسالته بأن آلام هَكْسْلي «فظيعة لا تطاق، وأنها أشبه بمن يحرق وهو حيّ». ولكن يمكننا الحصول على عزاء مستديم في التحضير على هذه الأرض للقاء في السماء بعد موت الجسد. وقال كنگزلي في رسالته إن علينا «أن نجعل من أنفسنا أهلاً للقاء» في أثناء مكوثنا على الأرض.

أجاب هَكْسْلي على رسالة كنگزلي في 23 أيلول 1860 برسالة يجب أن تُقَرَّر على الطلبة في جميع برامج الأدب الإنكليزي والفلسفة. فقد كان النثر الذي كتبه عددٌ من علماء القرن التاسع عشر (پليفير ولايل وهَكْسْلي على وجه الخصوص) لا يقلُّ في مستواه عن نثر أفضل روائيّي العصر الڤكتوري. وكان بودّي أن أقتبس هذه الرسالة الطويلة بكاملها، لأنني لم أقرأ في حياتي شيئاً أشدَّ عمقاً وتأثيراً في النفس في الدفاع عن الصدق الفكريِّ مع الذات مهما يكن إغراء العزاء السهل المباشر الآتي من مصادر لا يمكن للمرء أن يؤمن بها أو أن يجد لها تسويغاً بالحجج المقنعة.

يبدأ هَكْسْلي رسالته بشكر كنگزلي على تعازيه الصادقة وعلى تجنُّبه للوعظ الكاذب. ولكن هَكْسْلي يشرح بلغته الجميلة سبب عدم استعداده للتخلّي عن فلسفة شخصيَّة توصَّل إليها بعد صراع فكريٍّ طويل دام سنوات عديدة من أجل عزاء مباشر يأتيه من معتقد أساسي بخلود الروح كان قد رفضه:

عزيزي كنگزلي: أنا عاجزٌ عن التعبير عن شكري وشكر زوجتي لكتابتك تلك الرسالة الطويلة الصادقة ولكلِّ ما تعبِّر عنه من تعاطف صادر عن القلب... إن قناعاتي، السلبيَّ منها والإيجابي، بخصوص الأمور التي تحدَّثتَ عنها راسخةُ الجذور لأنها نمت نموّا بطيئاً منذ زمن طويل. ولكن النازلة التي ألَّمت بي بدا أنها هزَّتها من أعماقها، ولو كنت أعيش قبل قرنين من الزمن لتصوَّرت شيطاناً يسخر مني ومنها – ويسألني عن فائدة التخلّي عن الآمال والتعزيات التي تلجأ إليها غالبية بني البشر. وجوابي الوحيد عن السؤال كان سيتّخذ (وهو الآن يتَّخذ) الصيغة الآتية: أيها الشيطان! الحقيقة أفضل من الفائدة مهما كبرت. لقد بحثتُ عن أسس عقيدتي، ولو كان الثمن أن أدفع زوجتي وابني واسمي وسمعتي الواحد بعد الآخر لرفضت أن أكذب.

بعد ذلك يلخِّص هَكْسْلي حُجَجَه التي قادته إلى الشكّ في الخلود، ويتساءل أوَّلاً: لماذا نعزوا الخلود للكائنات الراقية، أي للبشر، ولا نعزوها للكائنات التي هي أدنى منها، بينما قد تكون نعمة الخلود أفيد لها. ولماذا يتعيَّن علينا – ثانياً – أن نصدِّق مذهباً لأننا نريد من أعمق أعماقنا أن يكون صحيحاً؟

والمسألة لا يغيِّرها الفرق الذي لا حدود له بيني وبين الحيوانات. أنا لا أعلم إن كانت الحيوانات تبقى بعد اختفائها أم لا. ولا أعلم حتى ما إذا كان الفرق الذي لا حدود له بيني وبينها لا يعوِّضه بقاؤها وفنائي بعد الموت الظاهري، كما تبقى البصلة التي تنبت منها الزهرة الحولية بينما تفنى الزهرة الرائعة التي

تنبت منها.

من الواضح بطبيعة الحال أن الشخص البارع يمكنه أن يتابع الحجج على الجانبين إلى ما لا نهاية له وأن يجد تشبيهات لكلِّ أحلامه. وليس ينفعني أن يقال لي إن ما يطمح له البشر قاطبة – أو حتى إن أعلى مطامحي أنا أيضاً – تقودني إلى مذهب الخلود. أنا أشكُّ في ذلك بدايةً، ولكن حتى لو كان ذلك كذلك، فهل هو أكثر من أن يراد مني أن أؤمن بشيء لأنه يروق لي؟

ثم يذكر هَكْسْلي بعد ذلك الأسباب التي جعلته يتَّخذ من العلم هادياً له في الأمور المتعلِّقة بالحقائق الملموسة. يقول في الاقتباس المألوف من هذه الرسالة، وهو اقتباس يرد في جميع طبعات كتاب بارتْلِتْ:[1]

وظيفتي هي أن أعلِّم طموحاتي كيف تكيِّف نفسها لتتَّفق مع الحقائق، لا أن أكيِّف الحقائق لتتَّفق مع طموحاتي. ويبدو لي أن العلم يعلِّم على أفضل وجه الحقيقةَ العليا التي يجسِّدها مبدأُ الخضوع المطلق للإرادة الربّانيّة عند المسيحيين، اجلسْ أمام الحقيقة كالطفل الصغير، وكنْ على استعدادٍ للتخلّي عن أيّةِ أفكارٍ مسبقة، واتْبَعِ الطبيعة صاغراً إلى أيِّة هاوية تقودك لها، وإلا فإنك لن تتعلَّم شيئاً.

(1) هذا عنوان كتاب مشهور وضعه جون بارتْلِتْ بعنوان ***Familiar Quotations*** (حرفيّاً: اقتباسات مألوفة، ولكن الأفضل أن نقول: أقوال مأثورة). وقد نشر الكتاب لأول مرَّة في سنة *1855*، ولا يزال متداولاً. ولكن يؤسفني أن أجد في قول المؤلِّف بعض المبالغة. فنسختي من الكتاب، وهي الطبعة الرابعة عشرة، لا تضمُّ هذا الاقتباس. لكن الاقتباس يتكرَّر كثيراً في مواقع مختلفة على الإنترنت.

وأنا لم أتعلَّم القناعة وهدوء البال إلاّ عندما قرَّرتُ أن أفعل ذلك مهما كانت الأخطار.

قد تؤخذ هذه الأقوال – وكثيراً ما أخذت – على أنها مانِفِسْتو أو بيان للنموذج المعتاد للحرب بين العلم والدّين وعلى أنها الدفاع الكلاسيكي عن العلم حتى في الأوقات التي تكون الحاجة للروحانيات على أشدِّها. ولكن هذه الرسالة عندما تُقرَأ كاملة تسير في الاتّجاه المعاكس الذي يشبه اتِّجاه رسالة دارْوِن بمناسبة وفاة آني. يرفض هَكْسْلي حقّاً فكرة خلود الروح مصدراً للعزاء عند اشتداد الأحزان – للأسباب التي ذكرت أعلاه. ولكنه على وعي تامٍّ بمبدأ الانفصال عندما يقول إن هذه الفكرة الدّينية لا تخضع للإثْبات العلمي: «أنا لا أنكر أو أؤكِّد خلود الإنسان. ولست أرى سبباً يجعلني أؤمن به، ولكنني لا أملك وسيلة لإثبات استحالته». ثم يضع هَكْسْلي الموضوع خارج حقل العلم وفي حقل القرار الشخصي بكلمات شديدة الشبه باستعارة دارْوِن عن الكلاب وعقل نيوتن، مفادها أننا لا يمكننا أن نتخيَّل اختباراً عقليّاً للمسألة: «إن العقل البشري يبدأ بالتخبُّط بمجرَّد البدء في التفكير في هذه المسائل».

ثم يلخِّص هَكْسْلي حالةً شخصية تدعم فكرة الانفصال في قطعة يختتم بها رسالته، وهي قطعة لا تزال تستثير فيَّ الدموع، فيذكر النواحي المنفصلة الثلاث للاستقامة الشخصية التي جعلها مرتكز حياته فأعطتها

معناها – الدّين في مجال الأخلاق، والعلم في مجال الحقائق، والحب في مجال القداسة. يبدأ باقتباس الكتاب الفلسفي الذي وضعه صديقُه تومَس كارْلايْل (كتاب *Sartor Resartus* أو **الخيّاط وقد كُسِيَ ثانيةً**)، وينتهي باقتباس المقولة الشهيرة التي قالها مارْتِن لوثر في برلمان ڤورمز، وأعلن بواسطتها أسباب رفضه التخلّي عن معتقداته الدّينية: «فليكن الله في عوني، إذ ليس بوسعي أن أفعل غير ما فعلت». هل قدَّم أيُّ «ملحدٍ» دفاعاً أفضل من هذا عن دور الدّين الحقيقي (بوصفه أساساً للتأمُّل الأخلاقي وليس بصفته مجموعة من المعتقدات التي تقبل بلا تفكير)؟

علَّمَني كتاب *Sartor Resartus* أن الشعور الدّيني العميق لا يتعارض مع غياب اللاهوت التام. ثانياً: أعطاني العلمُ ومناهجُه ملجأً مستقلاً عن السلطة والتقاليد. ثالثاً: فتح الحبُّ عينيَّ على قداسة الطبيعة البشرية وأوجد فيَّ شعوراً عميقاً بالمسؤولية.

ولئن لم أكن في هذه اللحظة جَسَداً متعباً منهكاً لا نفع فيه، ولئن كان أو سيكون من نصيبي أن أدفع بالعلم قُدُماً، ولئن ساورني الشعور بأن لي بعض الحقِّ في أن أنال حبَّ من هم حولي، ولئن شعرتُ في تلك اللحظة التي لا مثيل لها، عندما نظرت إلى قبر ابني وكانت لوعتي لوعة المستسلم بلا مرارة، فإن السبب هو أن تلك العوامل قد تركت أثرها فيَّ، وليس لأنني همَّني أن تبقى شخصيَّتي البائسة مختلفةً عن بقية ذلك الكلّ الذي جاءت منه وإليه ستذهب.

وبذا ستتفهَّم موقفي يا عزيزي كنگزلي. قد أكون مخطئاً تماماً، وأعرف أنني

سأدفع الثمن في تلك الحالة، ولكنني لا أملك إلا أن أقول مع لوثر: «فليكن الله في عوني، إذ ليس بوسعي أن أفعل غير ما فعلت».

أريد الآن أن أختتم هذا الفصل بقصَّة لها قيمة رمزية عن مراسم دفن دارْوِن وعن دَوْرِ هَكْسْلي في تغيير مكان الدَّفن لأن القصَّة تشكِّل رمزاً مناسباً يوضِّح فكرة الانفصال، أو فكرة الانسجام الممكن من خلال الاختلاف بين العلم والدِّين إذا ما فُهِما فَهْماً صحيحاً وعُرِفَت حدودُ كلٍّ منهما. فقد رغب دارْوِن في أن يُدفَن في مقبرة الكنيسة المحلِّيَّة التابعة للقرية التي اتّخذها موطناً له في منطقةِ داوْن حيث عمل ما يُتَوَقَّع عملُه من رجلٍ يتمتَّع بالثروة والمكانة الاجتماعية - فشغل وظيفة القاضي، وقدَّم الهبات المناسبة للكنيسة المحلِّيَّة لدعم البرامج المخصَّصة للفقراء، وأسس مشاريعه الخيرية الخاصَّة به مثل الصالة الترفيهية التي تضمُّ الكتب والألعاب المخصَّصة للعمّال، مع عدم السماح بالمشروبات الروحية. غير أن عدداً من أصدقاء دارْوِن المتنفِّذين وعلى رأسهم هَكْسْلي عملوا على إقناع السلطات الكنسية والبرلمانية بالموافقة على دفنه في كنيسة وِسْتمِنْستر،[1] حيث يرقد دارْوِن الآن في موقعٍ يقع حرفيّاً تحت قدمي إسحاق نيوتن.

لا بدَّ أن هَكْسْلي، ذلك المروِّج الذي لا يكلُّ ولا يملُّ من الترويج للعلم، قد راقته كثيراً فكرةُ دفنِ ذلك المفكِّر الحرّ الذي هزَّ أشدَّ الأفكار التقليدية رسوخاً في الفكر الغربي إلى جوار الملوك والفاتحين في أقدس

(1) الدفن في هذه المقبرة علامة على التكريم، فهي تضمُّ قبور كثير من عظماء إنكلترة.

بقعة بريطانية مخصَّصة لممثِّلي السلطة السياسية والكنسية. ولكن فلنُحسن الظنَّ أكثر فنعزو – حتى لِهَكْسْلي الذي لا يهاب النزاع ولرجال الدِّين وأعضاء البرلمان الذين جعلوا ذلك الدفن ممكناً – دافعاً تقف وراءه روحُ المصالحة، والرمزيةُ القويَّةُ ذاتُ المغزى الإيجابي المتمثِّلةُ في عالمٍ ثوريٍّ ذي موقفٍ لا أَدَريٍّ على الأقلّ في مجال العقيدة الشخصية مدفونٍ في أقدس الأقداس المسيحية لأنه لم يتهيَّب من السعي للمعرفة، وعَلِمَ أنه لن يتمكَّن من دحض الإحساس الدِّيني الأصيل مهما توصَّل إليه في بحثه.

لقد وضع السيِّد بْرِجّ، عازفُ الأرغن في كنيسة وستْمِنْسْتر، ترنيمةً لترافقَ مراسم دَفن دارْوِن (وهي ترنيمةٌ تناسب الغرض تماماً استمتعتُ بها كثيراً عند أداء وظيفةٍ غيرِ وظيفتي هذه بصفتي عضواً في جوقة دينية). وقد اختار بْرِجّ مقطعاً رائعاً من المقاطع المليئة بالحكمة من الكتاب المقدَّس، ولا أتخيَّل أن ثمة قطعةً أفضلَ منها للاحتفال بمراسم دفن دارْوِن ولموضوع الانفصال القائل إن الحياة المليئة – أي الحياة الحكيمة – تتطلَّب الدرس والاستقرار ضمن عددٍ من الحقول في حيواتنا وعقلياتنا المعقَّدة.

طُوبَى للإنْسَان الَّذي عَثَرَ عَلَى الْحِكْمَة وَللرَّجُلِ الَّذي أَحْرَزَ فَهْماً، لأَنَّ مَكَاسبَهَا أَفْضَلُ منْ مَكَاسبِ الْفضَّة، وَأَرْبَاحَها خَيْرٌ منْ أَرْبَاحِ الذَّهَبِ الْخَالص. هيَ أَثْمَنُ منَ الْجَوَاهرِ، وَكُلُّ نَفَائسك لاَ تُعَادلُهَا. في يَمينهَا حَيَاةٌ مَديدَةٌ وَفي يَسَارِهَا غِنًى وَجَاهٌ. طُرقُهَا طُرُقُ نِعَمٍ، وَدُرُوبُهَا دُرُوبُ

سَلامٍ.[1] **أمثال 3: 13–17.**

هذه أقوال جميلة حقّاً. وكان بودّي لو أن السيِّد بْرِجّ أضاف السطر الذي يليها مباشرة (أمثال 3:18) – وهو يتضمَّن حكمة أشهر، ويصادف أنه يصلح ليكون استعارة لفكرة التطوُّر في الوقت نفسه!

هِيَ شَجَرَةُ حَيَاةٍ لِمَنْ يَتَشَبَّثُ بِهَا، وَطُوبَى لِمَنْ يَتَمَسَّكُ بِهَا.

(1) ترجمة كتاب الحياة.

الفصل الثاني:
حلُّ القضية من حيث المبدأ

تعريفُ الانفصال ودعمُه بالحجج

مما لا شكَّ فيه أن الإسكندر كان قادراً على دفع الرسوم المطلوبة أو إصدار الأمر الإمبراطوري بأداء المهمَّة، ولكن هل حصل أيُّ تلميذٍ في التاريخ بنعمة التتلمذ على يد معلِّمٍ كالمعلِّم الخاصّ بالإسكندر الأكبر الذي حصل على سبع سنوات متواصلة من عناية أرسطو نفسه؟ لقد كان المذهبُ المركزيُّ الذي دعا إليه أرسطو هو مبدأ «الاعتدال» أو حلّ معظم القضايا الكبرى عند نقطة الاستقرار ما بين حدَّين متباعدين.

ولكنني غير واثق من مقدار ما تعلَّمه تلميذ أرسطو من دروس معلِّمِه عندما أتأمَّل في الصيغتين المختلفتين، بل المتناقضتين، لأشهر حادثة من حوادث حياته. فالقصة المعتادة تقول إن الإسكندر بكى عندما وجد، وهو في ذروة فتوحاته العسكرية، أنه لم يكن ثمة من عوالم جديدة لكي يفتحها – وتلك هي مشكلة الملل التي تنطبق على كلِّ المشروعات الممكنة والتي تلخِّصها عبارة «كنتُ هناك، وعملتُ ذلك». أما الصيغة التي رواها فلوطارخس، وهي صيغة تعود إلى القرن الأوَّل للميلاد ولذلك فإنها أقرب نسبيّاً إلى الأصل، فإنها تقدِّم لنا مشكلةً تتعارض مع هذه تعارضاً تامّاً – ألا وهي مشكلة العجز في عالمٍ أكبرَ من أن نحيط به أو أن نُحدِث فيه أثراً. كذلك تحظى رواية فلوطارخس بقدْر أكبر من المصداقية في التعبير عن مذهب أرسطو نفسه الخاص بأبديَّة العوالم: «بكى الإسكندر عندما سمع... أن ثمة عدداً لا يحصى من العوالم، قائلاً: ما دامت هنالك عوالم لا تحصى، هل يستحقُّ عدمُ استكمالنا فتحَ

واحدٍ منها البكاء؟»

لكن لربما فهم الإسكندر مبدأ الاعتدال رغم كلّ شيء. فلو جمعنا هذه القصص المتطرِّفة وقسمناها على اثنين فقد نجد نقطة استقرارٍ من الرضا بما أُنجِز في الماضي ممزوجاً بقدْرٍ كافٍ من الرغبة في بذْل المزيد من النشاط - أي قد نجد أنْ ليس ثمة ما يدعو للبكاء.

أنا أسخر سخريةً باهتة طبعاً من رمزٍ اختير لتمثيل فكرة الاستقرار العامَّة. ومع ذلك فإنني أرغب في إثارة مسألةٍ جادَّة عن تناولنا للقضايا المعقَّدة، وهي مسألة توضِّحها هاتان الصيغتان المتناقضتان للحادثة التي تُروى عن الإسكندر توضيحاً جيِّداً. فعقولنا تنحو إلى العمل عن طريق الفصل بين الأشياء - أي بتصوُّر القضايا المعقَّدة وقد انقسمت إلى «إما هذا أو ذاك»، وبالمطالبة باختيار إما هذا الطرف أو ذاك، من دون التفكير في أرضية مشتركة أو وَسَطٍ متاحٍ لأيِّ نقطة استقرارٍ بديلة. (وأنا أحسب أن مَيْلَنا الذي لا مهربَ لنا منه نحو التقسيم ما هو إلا من مخلَّفات ماضٍ بالغ القوّة من ماضينا التطوُّري عندما لم يكن بوسع وعينا المحدود أن يتجاوز البدائل التي نعبِّر عنها بقولنا «مفتوح أو مغلق»، «نعم أو لا»، «قاتل أو اهرب»، «تحرَّك أو لا تتحرَّك» - فاتَّصلت النقاط العصبية في أدمغتنا البسيطة وفقاً لتلك البدائل المتاحة. ولكن يجدر بنا أن نترك هذه الموضوع الذي ينتمي إلى عالم التخمين إلى وقتٍ آخر ومكانٍ غير هذا).

وهكذا فإننا نفترض أن أحد النقيضين يجب أن يكون هو الحلّ

عندما نجد أنَّ علينا أن نفهم العلاقة بين موضوعين مختلفين (هما العلم والدّين في حالتنا) - لا سيَّما عندما يبدو أنهما يثيران قضايا متشابهة تتعلَّق بأهمِّ ما يشغلنا حول الحياة ومعناها: فإمّا يتوجَّب على الحياة والدّين أن يتصارعا صراعاً مميتاً يؤدّي إلى انتصار أحدهما وانكسار الآخر، وإما أن يمثِّلا السعيَ نفسه، ولذا يمكن دمجهما معاً في منظومة كبرى واحدة.

ولكن هذين التصوُّرَيْن المتطرِّفَيْن يقومان على الاستبعاد - إما على تدمير طرفٍ بواسطة الطرف الآخر أو على دمج الطرفين في «كرة شمعيَّةكبيرة» ليِّنة تخلو من الخطوط والرؤوس الحادَّة. ولكن لماذا لا نلجأ بدلاً من ذلك إلى المنطقة الوسطى التي تمنح الرفعة والامتياز لكلٍّ من الطرفين؟ فلنستعر الآن عبارة تتَّصف بالمفارقة للكاتب الإنكليزي گلبرت كيث چسترتن، الذي لم يكن يسلّي نفسه بممارسة العادة الإنكليزية المتمثِّلة في كبح كلِّ ما هو حيويٌّ عفويٌّ بصوت «العقل» (لا تحدِّثْنا عن الجنس رجاءً، فنحن بريطانيّون)، بل كان يعبِّر عن نظرة عميقة في تجاوز المآزق والحصول على الفهم المستبصر عندما قال إن «الفنَّ يعني الحدود؛ فأساس كلِّ لوحة فنِّيَّة هو الإطار».

فلننظر في أيٍّ من تلك القضايا «الكبيرة» «الأساسية» التي شغلت البشر منذ انبثاق الوعي: ما هي الصلة التي تربط البشر بالكائنات الحيَّة الأخرى، وما معناها؟ إن هذا السؤال يبلغ من الغِنى حدّاً تعجز معه أيُّ صياغة مفردة وأيُّ إجابة بسيطة عن إرضائنا. (كلُّ سؤال بهذه

السعة يتضمَّن قدْراً كبيراً من الهلهلة والرخاوة في التعبير تحتاج إلى التوضيح والاتِّفاق حول التعريفات المقصودة قبل البحث عن الأرضية المشتركة).

نحتاج هنا إلى الاستعانة بفكرة چسترتن عن التأطير وبفكرة الانفصال الأساسية في هذا الكتاب. ولنفكِّر في أيِّ مقولة يكرِّرها الأمريكيون عن الأشياء التي تبقى منفصلة ولا تتَّحد: كالزيت والماء، أو التفّاح والبرتقال، أو كتلك التي يكرِّرها البريطانيون عندما يتحدَّثون عن عدم إمكان اتِّحاد الجبن والطباشير، أو عن عدم إمكانية اتِّحاد تراثين إنسانيَّيْن (لن يلتقي الطرفان) إلا عندما تُنهي القدرة الرَّبّانيّة الوضع القائم في عالم كپلنغ الإمبريالي (عندما تقف الأرض والسماء عند كرسي القضاء الربّاني). فكلُّ مجالٍ من مجالات البحث يؤطِّر قواعده والقضايا التي يسمح بطرحها، ويضع معاييره الخاصَّة به للحكم عليها والتوصُّل إلى حلٍّ لها. وتحدِّد هذه المعايير المقبولة، هي والإجراءات المتَّخذة لمناقشة القضايا المسموح بها ولإيجاد الحلول لها، الحقلَ المعرفيَّ لأيِّ مجالٍ من المجالات. وليس بوسع أيِّ حقلٍ أن يتَّسع لكلِّ القضايا الشائكة التي يثيرها أيُّ موضوع معقَّد، لا سيَّما إذا كان الموضوع موضوعاً يبلغ في غناه ما يبلغه معنى علاقتنا بأشكال الحياة الأخرى. وعلينا أن نُعِدَّ أنفسنا لزيارة قاعةٍ لعرض الصور نستطيع فيها النظر إلى لوحاتٍ متعدِّدة يحيط بكلٍّ منها إطارٌ سميك بدلاً من أن نفترض أن ثمة طريقةً واحدةً ترضي جميع اهتماماتنا (قياسٌ واحدٌ لكلِّ الأحجام).

فلنركّز على إطارين مختلفين – أي على حقلين لا يتداخلان – يحيط كلٌّ منهما بأسئلة مختلفةٍ ولكنها حيويةٌ بالقدْر نفسه في أثناء بحثنا عن معنى علاقتنا بالكائنات الحيَّة الأخرى، وذلك للتمثيل على فكرة الانفصال عند تطبيقها على «القضايا الأساسية». فنحن نسعى من إحدى النواحي للحصول على معلومات عن وقائع ملموسة يمكن الإجابة عنها بالسلْب أو بالإيجاب (من حيث المبدأ على الأقلّ؛ أما من الناحية العملية فقد تكون الإجابات بالغة الصعوبة). ويتعلَّق جانب من هذه الأسئلة عن الوقائع بقضايا ذات مدى شديد الاتِّساع. فقد حلَّت الصيغةُ الأساسيةُ للنظرية التطوُّرية قبل ما يزيد عن القرن مثلاً عدَّة مشكلات من هذا الحجم: هل تقوم علاقتنا بالكائنات الحيَّة الأخرى على أساس ارتباط الخلَف بالسلَف أم على أساس أننا وحداتٌ في نظامٍ وضعه خالقٌ ربّاني؟ هل يشبه البشر القرود إلى هذا الحدّ لأننا ننتمي إلى سلفٍ مشترك حديث العهد أم لأن الخلق اتَّبع نظاماً خطِّيّاً تقع القرود فيه على المستوى الواقع تحت مستوانا مباشرة؟ ولا تزال أسئلة أخرى أشدُّ تفصيلاً وأشدُّ رهافة باقيةً من غير أجوبة حتى يومنا هذا: لماذا لا يؤدّي ذلك الجانبُ الكبير من مادَّتنا الوراثية (ما يدعى بالـ DNA «الخردة»[1]) أيَّ وظيفة فيما يبدو؟ ما الذي أدّى إلى تلك الانقراضات الجماعية التي

(1) لمن شاء الاستزادة عن هذا الموضوع المهمّ أن يراجع الموقع الآتي: ***http://www.psrast.org/junkdna.htm***، حيث يقول الباحث إن ما نسبته *98* ٪ من الـ *DNA* لا يزال مجهول الوظيفة، ولذا فإن أي محاولة لإدخال جينات جديدة على نظام الـ *DNA* لأي كائن حيّ سوف يؤدّي إلى نتائج مجهولة تماماً، ولذا فإن هذه المحاولات يجب ألاّ تخرج من المختبر.

ظهرت بين الحين والآخر في تاريخ الحياة؟ (نحن نعلم علم اليقين أن اصطداماً تسبَّب به جِرْمٌ خارجي هو الذي كان وراء ما حدث قبل 65 مليون سنة فقضى على الدايناصورات وأعطى فرصة للحيوانات اللبونة لأن تبقى على قيد الحياة، ولكننا لم نهتدِ بعدُ إلى أسباب الكوارث الأربع الكبرى الأخرى).

إن هذا النوع من الأسئلة يقع – كما بيَّنتُ في التمهيد – ضمن الحقل الذي نسمّيه حقل «العلم» – أي الحقل التعليمي الذي وَقَفَ نفسه على استعمال الطرق الذهنية والوسائل الدراسية التي يجعلها ما حققته من نجاح وخبرة صالحةً لوصف البنية المادِّية للطبيعة ولمحاولة تفسيرها.

ولكن موضوع علاقتنا بالكائنات الحيَّة الأخرى نفسَه يثير كثيراً من الأسئلة ذات التوجُّه المختلف تماماً: هل نحن أهمُّ من الحشرات أو البكتيريا لأننا طوَّرنا جهازاً عصبيّاً أعقد؟ ما الظروف التي تعطينا الحقَّ (إن كان لنا الحقُّ أصلاً) في أن نقود الأجناس الحية الأخرى إلى الانقراض بحرمانها من أمكنة وجودها؟ هل تُرانا نخالف أيَّ نظام أخلاقي عندما نستخدم الهندسة الوراثية لوضع جينٍ من مخلوق معيَّن في نظام الجينات التابع لجنس آخر من الكائنات الحية؟ إن هذا النوع من الأسئلة يتناول مادّة «نحن وهم» نفسها – ويمكننا أن نملأ كتاباً طويلاً بقائمة منها لا تمسّ سوى السطح – ولكنها أسئلة تثير قضايا مختلفة لا تستطيع المعلومات الخاصة بالوقائع الملموسة، مهما كان نوعها، أن تجيب عنها أو أن تلقي عليها الضوء. وليس ثمة من مدى للقدرة العقلية

لدى البشر في مقابل ما لدى النمل يمكنه أن يجيب عن السؤال الأوَّل، ولن نجد في أيٍّ كتابٍ أساسي عن تكنولوجيا نقل الجينات من كائن إلى آخر ما ينفعنا في الإجابة عن القضية الأخيرة. تتناول هذه المسائل قضايا أخلاقية عن قيمة الحياة ومعناها، سواء في شكلها الإنساني أو في مفهومها الأشمل. والنقاش المثمر حولها يجب أن يمضي في حقل مختلف، حقلٍ أقدم من حقل العلم (إذا ما فُهِمَ العلمُ على أنه – في الأقلِّ – ضربٌ من البحثِ المنظَّم)، ويجب أن يسعى هذا النقاش للحصول على اتِّفاق عامٍّ أو على توضيح للمسلَّمات والمعايير التي يقوم عليها في مجال الموجبات الأخلاقية، لا أن يسعى للبحث عما هو قائم فعلاً في البنية المادِّيَّة للعالم الطبيعي.[1] ويتضمَّن حقل النقاش

(1) أعتذر لزملائي المشتغلين في الفلسفة والحقول المتَّصلة بها لهذا التناول السطحي السريع لموضوع قديم صعب لا يزال يخضع لكثير من الجدل ويتطلَّب قدراً كبيراً من الرهافة والتدقيق للتعبير عن تعقيداته وتشعُّباته. وأنا أدرك أن هذه الدعوة لفصل الواقعي الملموس عن الأخلاقي كانت مثار جدلٍ كثير منذ أن ميَّز ديڤد هيوم بصراحة بين ما هو قائم وما هو واجب. (وكنتُ يوماً قد كتبت بحثاً لا يخلو من الهوى على نحو محرج في أثناء دراستي الجامعية الأولى عن وصف جورج إدْوَرْد مور لهذه المسألة في كتابه *Principia Ethica* الصادر سنة 1903 بأنها «الوهم الطبيعي»). وأنا أدرك قوَّة الحجة التي تقوم عليها الاعتراضات الكلاسيكية ضدّ الفصل التامّ – ولا سيما خواء التأكيد على ما يجب في أنماطٍ من السلوك ثبتت استحالتها في عالم الطبيعة القائم. كذلك أعترف بانعدام معرفتي بالتفاصيل الحالية في النقاش الأكاديمي (رغم أنني ظللت أحاول الاطلاع على التطوُّرات العامَّة. وأعترف – أخيراً – بأنني سيتملَّكني الغضب إذا ما حاول أكاديميٌّ من خارج التخصُّص أن يلقي بأقوالٍ مبتسرة عن قضيَّة شائكة من قضايا حقل التطوُّر والأحافير القديمة الذي أعمل فيه. لكنني أريد مع ذلك أن أدافع عن تناولي للموضوع لأنه تناول يدرك من حيث المبدأ أن معظم القضايا التي تقع على هذا المستوى تتطلَّب معالجات تنتمي

إلى مستويات متباينة من البحث. فالتعميمات تتضمن استثناءات وتحفُّظات باستمرار – من دون التأثير على صحَّة الفكرة الرئيسة أو المساس بسلامة حجَّتها. (ونحن كثيراً ما نشير إلى هذه الظاهرة في مجال التاريخ الطبيعي الذي أعمل فيه بقاعدة «الفأر في مشكَن»، وذلك تكريماً للخبير المختصّ بتفاصيل تصنيف الكائنات الحية الذي يصيح من آخر القاعة ليصحِّح ما يدَّعيه المحاضر عن مبدأ تطوُّريٍّ عامٍّ بقوله: «نعم، ولكن هناك فأر في مشكَن ...»). وانتباه الخبراء يتَّجه في العادة إلى الاستثناءات والتحفُّظات – إذ هذه هي التفاصيل الممتعة التي تغذّي البحث العلمي في أعلى مستوياته. (زملائي في النظرية التطوُّرية على سبيل المثال مشغولون في هذه الأيّام بنقاش صحّيٍّ حول ما إذا كان ثمة قدرٌ محدودٌ من التطوُّر اللاماركي يحدث لظواهر معيَّنة في البكتيريا. على أنَّ سحر هذه المسألة وحدّتها لا يؤثِّران على النتيجة التي ثبتت بالأدلَّة، والتي تقول إن العمليات الداروِنية هي السائدة في الأمور التطوُّرية العامَّة). ولكنّ تركيز الخبير الشديد على ما يجده من التواءات عند الحافَّة يجب ألا يزيغ بصرنا عن المبادئ المركزية التي تحتل قلب الصورة. وأنا أرى أن التمييز بين ما هو قائم وما هو واجب هو من هذه المبادئ المركزية. وقد كتبتُ هذا الكتاب الصغير (لكلِّ القرّاء الأذكياء من دون تفريط أو تبسيط مخلٍّ) على هيئة معالجة ذات خطوط عريضة.

وأودُّ هنا أن أشير إلى شيءٍ مماثل: ففي المحاكمة المعروفة في آرْكَنْسو بقضية قصة الخلْق الكتابية (وهي القضية التي أناقشها في الفصل الثالث بالتفصيل) قدَّم الفيلسوف مايكل روس تعريف پپر المشهور لقابلية التزييف باعتباره المعيار الأعلى لوصفِ موضوعٍ ما بأنه علميٌّ (وهذا معيار يستبعد «علم الخلق» من حقل العلم لأنه لا يخضع للتزييف). وقد قَبِلَ القاضي أوفْرتن تحليل روس واستعمل هذا المعيار بصفته التعريف الرئيس للعلم للتوصُّل إلى قراره القاضي بإلغاء قانون «الوقت المساوي» في آرْكَنْسو. ولكن مذهب القابلية للتزييف، شأنه شأن التمييز بين ما هو قائم وما هو واجب، وشأن الظاهرة الدارونية السائدة في مقابل التطورات البكتيرية اللاماركية) ما هو إلا تعميم مفيد قابل للنقاش المستفيض والجدل الطويل فيما يتعلَّق بقضايا ثانوية تقع في المنطقة الفاصلة بين العلماء. وقد هاجم عددٌ من الفلاسفة الأكاديميين الفيلسوف روس لأنه بسَّط تعقيدات حقلهم، ولكنني أدعم شهادته بقوَّة (كما فعلت الغالبيةُ العظمى من الفلاسفة المتخصِّصين) بوصفها تحليلاً سليماً للمستوى العام الذي تتطلّبه التعريفات ذات الصفة العمومية. (المؤلِّف)

الأخلاقي والبحث عن معنى هذا عددا من الفروع المعرفية التي تُجمع معاً تحت عنوان الإنسانيات - ففيه جانب كبير من الفلسفة، وشيء من الأدب والتاريخ مثلاً. ولكن المجتمعات البشرية ركَّزت ما يجري من حديث في هذا الحقل في مؤسسة تدعى «الدّين» (وهي مؤسسة تُظهِر فيها تحت هذه الكلمة الواحدة تنوُّعاً مدهشاً من المعالجات، بما في ذلك كل المعتقدات الممكنة عن طبيعة القوَّة الربّانيَّة، أو حتى وجودها، وكل الاتِّجاهات الممكنة نحو حرِّيَّة النقاش في مقابل الخضوع لنصوص أو مذاهب لا تقبل التغيير).

وأودُّ التأكيد بقوَّة هنا أنني لا أقول إن على أصحاب الأخلاق أن يبرهنوا على صحَّة معاييرهم باللجوء الصريح إلى الدّين - فنحن نعطي عدة تسميات للحديث الأخلاقي لهذا الحقل الضروري، ونحن جميعاً نعلم أن الملحدين قادرون على العيش وفق أشدِّ المبادئ صرامة بينما يلفُّ المنافقون أنفسهم بأيِّ عَلَم يناسبهم، ولا سيَّما أعلام الله والوطن. ولكنني أكرِّر أن الدّين احتلَّ مركزاً هذا الحقل في تراث معظم الثقافات.

وبما أن على كلٍّ منّا أن يصل إلى قرار حول القواعد التي سيسير على هداها في حياته (حتى إذا وقف نفسه للصعود في سلّم الحياة على حساب غيره من الناس)، وبما أنني واثق من أنه ليس ثمة من أحد لا يكترث بكيفية جريان الأمور في هذا العالم (حتى لو اقتصر ذلك على معرفة ما يكفي لكي لا نقطع الشارع عندما تكون السيّارات فيه مسرعة)، فإن على بني البشر جميعاً أن يبدوا اهتماما أوَّليّاً على الأقلّ

بحقلي الدِّين والعلم بغضِّ النظر عن الاسم الذي نعطيه لحقلي البحث في الأخلاق والواقع الملموس. ولقد يمكن المضيُّ في الوجود الصِّرف بالحد الأدنى من الاهتمام الذي وصفناه على نحو كاريكاتيري أعلاه. ولكن النجاح الحقيقي – بالمعنى التقليدي الذي يتضمّن المكانة الحقيقية – يتطلَّب الانشغال الجادَّ بالقضايا العميقة الصعبة في كلا الحقلين. فالحقلان لن يندمجا، ولذا فإن على كلٍّ منّا أن يضع هذين المكوِّنين المنفصلين في نظرة متناسقة للحياة. وإذا ما نجحنا فإننا سنحصل على شيء «أثمن من الياقوت»، وعلى أجمل لقب في أيِّ لغة من اللغات: لقب الحكمة.

لقد تقدَّمتُ بمقولتين عندما وصفتُ مفهومي عن العلاقة الصحية بين العلم والدِّين بمفهوم الانفصال، أي عدم التداخل بين حقليهما: الأولى هي أن هذين الحقلين متساويان في القيمة ولهما مكانة ضرورية لكلِّ حياة بشرية كاملة؛ والثانية هي أنهما يبقيان منفصلين من الناحية المنطقية ويختلفان اختلافاً تامّاً من حيث أساليب البحث بغضِّ النظر عن شدَّة سعينا وحاجتنا لأن نوفِّق بين نظراتهما لبناء نظرة غنية مليئة للحياة نصفها تقليديّاً بالحكمة. ولذا أجد لزاماً عليّ، قبل أن أقدِّم أمثلةً ترتكز عليها التعميمات التي تحدَّثت عنها في هذا الجزء من الفصل، أي أن أقدِّم في النصف الثاني الذي سيبتعد عن التجريدات، دفاعاً عن هاتين المقولتين الأساسيتين عن فكرة الانفصال في وجه التحدّي الكامن في بنية ما تقدَّم من أفكار.

أوَّلاً: **تساوي الحقلين في المكانة.** أنا عالِمٌ من حيث المهنة، ومن المتشكِّكين في الدِّين ومن غير الممارسين له (كما ذكرت في التمهيد، وذلك بغضِّ النظر عن سحر الدِّين في نظري، وهو ما عبَّرت عنه بكلِّ صدق). فهل أمارس ما أدعو له حقّاً فيما يتعلَّق بمكانة الحقلين المتساوية التي لا مفرَّ منها فيما يستغرق أحدُهما حياتي بينما لا يفعل الآخر شيئاً أكثر من إثارة اهتمامي؟ كيف يمكنني على وجهٍ خاصٍّ أن أدافع عمّا أبديه من احترامٍ للدِّين بينما يبدو أنني أقلِّل من شأنه بنتيجتين واضحتين يتضمَّنهما النقاش السابق؟ لماذا لا ينظر القرّاء لي على أنني عالِمٌ مستكبرٌ آخرُ يدَّعي – نفاقاً – أنه لا يتدخَّل في أمور لا تعنيه بحجَّة الاحترام والحب العميقين بينما هو يحاول التقليل من شأن الدِّين بتصويره عاجزاً لا تأثير له؟

والأمر الأوَّل الذي قد يستدعي الشكّ في موقفي هو أنني قلتُ إنه بينما يتوجَّب على كلِّ شخصٍ أن يصوغ نظريته الأخلاقية ضمن حقل الأخلاق والمعنى وإن الدِّين أساس هذا الحقل في معظم الثقافات فإن الطريق الذي يختاره الشخص لصياغة نظريته الأخلاقية لا يمرُّ بحقل الدِّين بالضرورة، بل قد يمرُّ بحقول أخرى كالفلسفة مثلاً. وإذا توجَّب علينا جميعاً أن نضع نظاماً أخلاقيّاً من دون الرجوع إلى الدِّين بالضرورة فكيف يمكن لهذا الموضوع (أي الدِّين) أن يحظى بمكانة مساوية للعلم (وهو موضوع لا يمكن تجاهله إلا إذا آمن أحدهم صادقاً بأنَّ كلَّ خطوة يخطوها قد تقذفه إلى الفضاء ولا تعيده بقوَّة الجاذبية إلى الأرض)؟

فلنعد إلى مثال ذكرته سابقاً. فقد عبَّر ت. هـ. هَكْسْلي عن قلقه عند سماعه لعبارة مألوفة في مراسيم الدفن الأنكَليكانية، مؤدّاها أن الإيمان بالبعث دعامة للسلوك القويم في هذه الدنيا:

بينما كنتُ واقفاً خلف تابوت ابني الصغير قبل أيّام وكان ذهني أبعد ما يكون عن الرغبة في الجدل، أخذ الكاهن يقرأ الكلمات الآتية التي تشكِّل جزءاً من واجباته: «إن كنا لا نعتقد بأن الأموات سيُبعَثون، فلننعمْ بالأكل والشرب لأننا غداً ميِّتون». وأنا عاجز عن التعبير عن الصدمة التي أثارتها فيَّ تلك الكلمات...ماذا؟ ألأنني أواجه خسارةً لا تعوَّض، أيتوجَّب عليَّ أن أتخلّى عن رجولتي وأتمرَّغ صارخاً كالحيوانات في حمأة الحيوانية لأنني أعدتُ سبب سعادتي العظمى للمصدر الذي أتى منه، تلك السعادة التي غمرتْ حياتي وستبقى مصدراً لها ما حييت؟ القرود نفسها أوعى من ذلك، وإذا ما اصطيد صغيرٌ من صغارها فإن هذه القرود المسكينة سيتملَّكها الحزن إلى أن يخفَّ مع الزمن، ولن تحاول النسيان بالتهام الطعام.

ولكن لاحظْ أن هَكْسْلي هاجم هنا قولاً معيَّناً ضمن تراث ديني معيَّن ولم يهاجم مفهوم الدّين نفسه. وعندما قال في الرسالة نفسها فيما بعد «إن الإحساس العميق بالدّين لا يتعارض مع الغياب التام للاهوت» فلا بدَّ أنه كان يفكِّر في هذا المثال. فالحقل التعليمي ما هو إلا حقلٌ للحوار والنقاش، وليس مجموعةً من القواعد الأبدية الثابتة. وهكذا فإن هَكْسْلي يشارك بأقواله هذه في النقاش الدائر داخل حقل الدّين

حول القيمة الأخلاقية للأعمال الحسنة. ومما لا شكَّ فيه أنه يقف خارج حقل العلم – لا بل إنه يدَّعي شيئاً ثبت أنه غير صحيح وذلك عندما ذكر ما اعتقد أنه حقيقة (خاصة بحزن القرود) للتمثيل على موقف لا يمكن البتُّ فيه إلا بالنقاش الأخلاقي (أي بإثبات القيمة الأعلى للأفعال استناداً إلى مبادئ ثابتة، وليس استناداً إلى نتائج نخشاها). ومن الواضح أن هَكْسْلي، الذي عدَّه بعضُهم من أعداء الله، على استعداد تامٍّ لإقامة رفضه لفكرة مسيحية يردِّدها الناس دون تفكير على مبدأ أعلى يقبله على أنه مبدأ دينيٌّ في طبيعته الأساسية. وإذن فلنعترف بضرورة الحوار وأهمِّيَّته ضمن هذا الحقل (حول أمورٍ لا يمكن للعلم أن يقترب منها)، ولنترك المماحكة بخصوص التسميات. وأنا سأقبل نظرة هَكْسْلي واشتقاق الكلمة نفسها[1] – وسأفسِّر كل حديث أخلاقي يقوم على مبادئ تُفَعِّل مثالَ الأخوَّةِ الشاملة بين بني البشر على أنه دينيٌّ في جوهره (بالمعنى الحرفي للكلمة، وهو أنه يربطهم معاً).

والأمر الثاني الذي قد يثار ضدّي على نحوٍ أعمّ هو هذا: ألستُ أحطُّ من طرف خفيٍّ من شأن حقل الأخلاق والمعنى برمَّته (أو مهما كان الاسم الذي ندعوه به) عندما أقول ضمناً إن المسائل الأخلاقية لا يمكن أن يجاب عنها بأجوبة مطلقة بينما لا ينكِر دوران الأفلاك وتطوُّر الحياة إلا أحمق؟ هنا لا نملك إلا العودة إلى مبدأ التفّاح والبرتقال – أي إلى مبدأ الانفصال نفسه. فهذا العجز عن التوصُّل إلى أجوبة مطلقة

(1) الكلمة نفسها هي *religion* (الدين). وتعيدها القواميس إلى أصلٍ لاتينيٍّ يتكوَّن من السابقة re- التي تفيد تكرار الفعل والجذر *ligāre* ، أي يربط.

يجب أن ينظر إليه على أنه صفة منطقية لشكل الخطاب نفسه، وليس على أنه قيدٌ عليه. (فحيوية هذا الحقل مصدرها الأهمِّيَّة البالغة للقضايا الأخلاقية وللمسائل المتعلِّقة بالمعنى لدى كلِّ من يفكِّر أو يشعر من بني البشر، لا من حيث أسلوب الحلول المتاحة - وهذه الحيوية تقوم على الاتِّفاق والتسوية ضمن هذا الحقل وليس على الإثبات القطعي كما يحصل في حقل العلم). أيحطُّ من شأن حقل العلم أنَّ التكنولوجيا، وليدة العلم الجبّارة، يمكنها أن تصنع العجائب، بينما تعجز إمكانيّات هذا الحقل العظيم كلِّها عن تزويدنا ببارقة ضوء فيما يتعلَّق بأقدم المسائل الأخلاقية التي تلبَّست بني البشر منذ انبثاق الوعي وأبسطها؟

ثانياً: **استقلال الحقلين**. كيف يمكن لأيِّ شخص أن يأخذ هذا الادِّعاء باستقلال الحقلين مأخذ الجدّ بينما تميَّزت القرون القليلة الماضية من تاريخ البشرية بالقول إنهما بطبيعتهما يتناقضان - فها هو بِلي سَنْدَيْ (نجم لعبة البَيسْبول السابق) يقول إن أي قسٍّ يؤمن بنظرية التطوُّر لا بدَّ أنه «ظِربّانٌ نتنٌ، ومنافق، وكذّاب»، وها هو دِزْريلي يعبِّر عن رأيه بلُغةٍ أبلغ:

السؤال هو: هل الإنسان قردٌ أم ملاك؟ ربّاه! أنا أقف إلى جانب الملائكة. وأنا أعبِّر عن غضبي على الرأي الآخر وامتعاضي منه، وهو رأيٌ أرى أنه بعيد كلَّ البعد عن ضمير الإنسانية.. لقد خُلِقَ الإنسان على صورة خالقه، مصدرِ الإلهام والعزاء، الذي لا يصدر عنه إلا مبدأُ الأخلاق السليم والحقيقة الربّانية..وعلى المجتمع أن يختار ما بين

هذين التفسيرين المتعارضين لطبيعة الإنسان وما لكلٍّ منهما من نتائج، فالصراع بينهما أساس الأمور الإنسانية كلِّها.

سيحتلُّ حلَّ هذه المسألة النصف الثاني من هذا الكتاب (أي الفصلين الثالث والرابع بكاملهما تقريباً)، ولذا فإنني سأؤجِّل النقاش إلى أن نصل إليهما. أما هنا فسأذكر فقط أنني أحاول تحليل المنطق الكامن في حالة من الحالات منظوراً إليها من على مبعدة تاريخية من وطيس المعركة، وأنني لا أتقدَّم بأية دعاوى حول حقائق تاريخنا الفكري والاجتماعي. (كذلك أودُّ أن أكرِّر كما أوضحت في بداية التمهيد أن مبدأ الانفصال حاز منذ أمد بعيد على اتفاق الغالبية العظمى من قادة العلم والدّين، وأنه ليس حلاًّ خلافيّاً أو خاصّاً بي). وأقول باختصار قولاً هو أقرب إلى الكاريكاتير عن محتوى النصف الثاني، وهو أن المؤسسات لا تتنازل عن مناطق نفوذها طواعية؛ فحقل العلم قادم حديث العهد في التاريخ الإنساني، وطالما ظل هذا الحقل غائباً فإن علم اللاهوت هو الذي كان يقوم بمهمة البحث عن الوقائع التاريخية. ونحن لا نتوقَّع من أحد أن يتخلّى عن هذه الأرض الواسعة من دون صراع - مهما بلغت صحَّة الادِّعاء بأن هذا التراجع الظاهري سيعمل على تقوية هذا الحقل.

أخيراً، ما هي المسافة التي تفصل بين حقلي العلم والدّين؟ هل يؤطِّر كلٌّ منهما صورةً تقع على الطرف الآخر من معرض صورنا الذهنية، وتفصل بينهما أميال من الأرض المزروعة بالألغام؟ إن كان الأمر كذلك فلماذا نتحدَّث عن حوارٍ بين حقلين متباعدين لا يتداخلان، وعن

ضرورةِ تكامُلِهِما لِبَثِّ الحكمةِ في الحياة المليئة؟

اعتقد أن عدم التداخل هذا لا يصل درجة الكمال إلا بالمعنى المنطقي المهمّ القائل إن معايير الأسئلة المشروعة ومعايير الحلول تُجبر الحقلين على التباعد وفق نموذج عدم الامتزاج – أي وفق استعارة الزيت والماء المعهودة. ولكن الصلة بين الحقلين يبلغ من شدَّتها أنها تشبه الصلة بين سطحي الماء والزيت المتلامسين، إذ يضغط كلُّ جزء من أحدهما على ما يقابله من الآخر. فالدّين والعلم لا يحملق أحدهما في الآخر من إطارين يقعان على جدارين متقابلين من متحف الذهن الفنّي، بل تتشابك أصابعهما بأشكال معقَّدة، مهما صغر المقياس أو كبر.

ومع ذلك فإن الحقلين لا يمتزجان – والزوجان لا يمتزجان حتى في أفضل الزيجات. وأيُّ مشكلة تلفت الانتباه مهما كان المقياس تستدعي مساهمة منفصلة من كلٍّ من الحقلين للحصول على توضيح كافٍ لها. ومنطق البحث يمنع الامتزاج الحقيقي، كما قلتُ أعلاه. فحقل العلم لا يمكنه المضي إلى ما وراء أنثروبولوجيا الأخلاق – أي توثيق ما يعتقد به الناس، بما في ذلك من معلومات مهمَّة عن التكرار النسبي لقيم أخلاقية معيَّنة بين ثقافات مختلفة، وعن علاقة تلك القيم بالظروف البيئية والاقتصادية، وربما فائدة بعض المعتقدات للتأقلم في مواضع داروِنيَّة معيَّنة – رغم أن شكّي العميق في قيمة هذه الأبحاث التخمينية في هذا الحقل الأخير قد جرى التعبير عنه في أبحاث منشورة أخرى. ولكن العلم لا يستطيع أن يقول شيئاً عن أخلاقية الأخلاق. فقد يكتشف

الأنثروبولوجيّون أن ظواهر القتل ووأد الأطفال والقضاء على الأقوام الأخرى وكراهية الأغراب ربما رافقت كثيراً من المجتمعات البشرية، أو قد تكون ظهرت أكثر من غيرها في بعض المواقف الاجتماعية، أو أنها قد تكون مفيدة للتكيُّف في سياقات معيَّنة، ولكن هذه الاكتشافات لا تدعم المقولة الأخلاقية الداعية إلى التصرُّف على هذا النحو.

ومع ذلك فلن يعدَّ هذه المعلومات الممكنة معلوماتٍ لا تثير الاهتمام ولا فائدةَ منها إلا أجبنُ الفلاسفةِ وأضيقُهم أفقاً؛ فهذه الحقائق لا يمكنها أن تُثْبِتَ موقفاً أخلاقيّاً، ولكن لا شكَّ في أننا نحبُّ أن نفهم سوسيولوجيا السلوك الإنساني حتى وإن اقتصر ذلك على إدراك الصعوبة النسبية في الحصول على اتفاقات متباينة ضمن حقل الأخلاق والمعاني. وإذا كان لي أن أختار مثالاً مبتذلاً فإنني أرى أن من الأفضل لنا أن نفهم حقائق الحياة الجنسية عند الحيوانات اللبونة، حتى وإن اقتصرت فائدة ذلك على تفادي اليأس إذا ما قرَّرنا التمسُّك بالزواج من زوجة واحدة بحجَّة أنه الطريق الأخلاقي الوحيد للمجتمع البشري، لنجد أن الأمور قد اختلطت علينا عندما تفشل دعوتنا التي صغناها تلك الصياغة البليغة عند التطبيق.

كذلك سيصيبُ العلماءُ على النحو نفسه إذا ما قدَّروا معايير الخطاب الأخلاقي حقَّ قدرها حتى وإن اقتصرت فائدة ذلك على فهم السبب الذي يدعو شخصاً ثاقب النظر ولكنه يفتقر إلى المعرفة الدقيقة الخاصة بالمورِّثات، لمعارضة من يقول إن من الواجب إجراء تجربةٍ لتخليق البشر

تحت ظروف خاضعة للسيطرة لأننا الآن نملك القدرة التكنولوجية على المضي فيها وأن النتائج ستكون مثار الاهتمام ضمن المنطق الداخلي للمعرفة والتفسير اللذين يتوسّعان باستمرار.

تتضمّن ثقافاتنا كلُّها، بكل ما فيها من تنوُّع في المستويات والتقاليد، من مَتّ وجِفّ[1] إلى اليِنْ واليانغ،[2] صوراً عن تلك الأمور التي لا يمكن الفصلُ بينها مع أنها تختلف أشدَّ الاختلاف. لماذا لا نضيف إذن حقلي العلم والدّين إلى هذه القائمة المحترمة المتميزة؟

(1) شخصيّتان من شخصيات الرسوم الكاريكاتيرية التي كانت تنشر في الصحف. وقد بدأت هذه السلسة في سنة 1907 وحازت على شهرة واسعة.

(2) هما المبدآن المتكاملان ولكن المنفصلان في الحياة في الفلسفة الصينية وغيرها من الفلسفات التي تأثّرت بها.

أمثلة على الانفصال

وجدت في أثناء دعوتي لفكرة الانفصال طوال هذه السنوات العديدة أن أصدقائي من المتشكّكين في النواحي الدّينية لا يعارضون المنطق الذي تقوم عليه - وهو منطق يقبله كلٌّ واحد منهم تقريباً على أنه سليم من الناحية الفكرية وعمليٌّ في عالمنا الذي تسوده العواطف المتباينة - بل يشكِّكون في دعواي القائلة إن معظم قادة الدّين والعلم ينادون هم أيضاً بالانفصال. ونحن جميعاً ندرك بطبيعة الحال أن كثيراً من أتباع الحركات ومن الناس العاديين يعتنقون أفكاراً ضيِّقةً تنحو إلى التهجُّم على الآخرين، وأن هذه الأفكار ترتبط في العادة بأهداف سياسية، وتقوم على الإعلاء من شأن جانب والحطِّ من الجانب الآخر. ومن الواضح أن متطرِّفي اليمين المسيحي، ولا سيَّما تلك الفئة الصغيرة التي تقف جهودها على فرض قصَّة الخَلْق الكتابيَّة على المناهج الدراسية في العلوم في المدارس الأمريكية الرسمية، هم أشهر فئة من بين هؤلاء المتحزِّبين. ولكنني أضمُّ إلى مجموعة زملائي من المشتغلين بالعلوم بعض الملحدين النشطاء الذين يمنعهم فهمهم الضيق للدّين من رؤية ما فيه من تنوُّع ورهافة فكر، ويجعلهم يطابقون ما بين هذا الحقل وبين المعتقدات الخرافية السخيفة لأناسٍ يظنّون أنهم رأوا صورة العذراء وقد تشكَّلت على نحو بديع في ندى الصباح الذي جفَّ على زجاج معرض للسيارات في نيوجيرْزي.

وأنا أرى أن يكون صراعُنا مع هؤلاء الناس صراعاً سياسيّاً، لا فكريّاً. إذ لا يختار أناسٌ من هذا النوع وقفوا الجانب الأكبر من طاقتهم، بل من حياتهم، لهذا الاندفاع الشديد خلف غلوائهم، المشاركةَ في نقاش جادّ يقوم على الاحترام، باستثناء عددٍ قليل منهم. وعلى مؤيِّدي الانفصال ومن يلتزمون بالدفاع عن الاختلافات الصادقة أن يبقوا حذرين وأن يحرزوا النصر سياسيّاً.

لكن يحسب الكثيرون أن كبار زعماء حقلَي العلم والدّين سيبقون على خلاف (وسيسود علاقاتهم توتُّرٌ كبير)، حتى بعد إزاحة المتطرِّفين جانباً، لأن هذين الحقلين المتنافرين يكافحان لامتلاك بقعة الأرض نفسها. ولكن فكرة الانفصال ستظهَر في أبهى صورها إذا تمكّنتُ من إثبات حصولها على دعمٍ قويٍّ صريح حتى من الممثِّلين التقليديين للتراث المتشدِّد بوصفها موقفاً سليماً يحظى باتِّفاق عامٍّ جاء نتيجةً لصراع طويل بين أناس حسني النية في كلا الحقلين، وليس بصفتها موقفاً جانبياً يثير الرثاء تدعو له فئة صغيرة من دعاة السلام الواقفين على ساحة معركة لا مهرب منها.

ولذا فإنني سأتحدَّث عن دفاعين مختلفين أشدَّ الاختلاف، ولكنهما شديدا الوقْعِ بالدرجة نفسها، عن فكرة الانفصال – وهذا مثلان ما كان يمكن أن يوجدا لو أن العلم والدّين قُدِّر لهما أن يتصارعا للحصول على بقعةٍ واحدةٍ مختلَفٍ عليها. ومصدرُ الدفاع الأول اعترافُ الدّين بحقوق العلم في أشدِّ الموضوعات إثارة للجدل (ممثَّلاً باتِّجاهات بعض

البابوات المتأخِّرين نحو التطوُّر البشري). و مصدرُ الدفاع الثاني العلمُ في أوائل العصر الحديث كما مارسه رجالٌ شرفاءُ من الكنيسة (كان من واجبهم، من وجهة النظر التقليدية، أن يقوِّضوا تلك الجهود، لا أن يدعوا لها).

أوّلاً: **دارْوِن والكرسي البابوي**. ينحو أولئك الذين لم ينشأوا ضمن التقاليد الكاثوليكية للنظر إلى البابا على أنه التجسيد الأمثل للتمسُّك بالمعتقدات القديمة وأنه يناهض العلم لا محالة، وما ذلك إلا بسبب الجهل والميل للتنميط. كما تنحو أفكارٌ مثلُ مذهب العصمة، وما يصدر عن الكرسيِّ البابوي من بيانات أو أحكام، فضلاً عن البذخ في الملابس والطقوس (التي كانت تؤدّى في السابق بلغة لاتينية غير مفهومة) إلى تعزيز هذه الصورة النمطية في أذهان الذين لا يفهمون معناها ووظيفتها.

(أنا مدينٌ لما نشأ لديَّ من تقديرٍ لمؤسَّسة لا تسعى دائماً للإفصاح عن نفسها أو لتفسير أعمالها ليسوعيٍّ إنكليزيٍّ تخلّى عن عملٍ تجاريٍّ ناجحٍ لكي يتحمَّل تدريباً قاسياً دام قُرابة عشرين سنةً التقيتُ به صدفةً لأننا وجدنا نفسينا في مقعدين متجاورين في إحدى الليالي في دار الأوبرا في روما قبل سنوات طويلة. فقد قضينا اليومين التاليين في نقاشٍ لاينقطع. وعلَّمني أن كنيسته عندما تكون في أحسن حالاتها (وهذا ما يحصل كثيراً) تكون بكلماته هو «جمعية ضخمة للمناظرة». وقد تضع البيانات البابوية حدّاً للخلافات الرسمية والعلَنية، ولكن الحوار

الداخلي لا ينقطع. تأمَّل فقط في ما يُروى عن صبر أيوب وعناده [سفر أيوب 13: 15]: «فَهَا هُوَ حَتْماً يَقْضِي عَلَيَّ وَلاَ أَمَلَ لِي. وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنِّي أَبْسُطُ حُجَّتِي لأُزَكِّيَ طَرِيقِي أَمَامَهُ»[1].

أضف إلى ذلك حادثة محاكمة غاليليو في سنة 1633 وإجباره على التنصُّل من رأيه: فهذه الحادثة لا تزال تهيمن على حياتنا الثقافية وتُعَدُّ رمزاً أوَّليّاً يتبادر إلى الذهن تلقائيّاً تقريباً كلّما فكَّرنا بعلاقة العلم بالكاثوليكية. فالصيغة المعتادة تتعارض تعارضاً شديداً وفكرة الانفصال وتجعل من البابا إيرْبَن[2] الثامن شرّيراً ومن غاليليو بطلاً شهيداً فنحصل على نموذج تكون فيه الحرب بين حقلَي العلم والدّين حتميَّةً.

وهذا الموضوع يحتاج إلى مجلَّدات، ولا تكفيه فقرات قليلة يسمح بها هذا الكتاب. ولكنْ علينا أن نرفض الرواية التقليدية التي تتجاهل تعاقب الأحداث التاريخية وتجعل من غاليليو عالماً حديثاً يكافح ضدَّ التعصُّب المستحكم في كنيسة تتصرَّف خارج حقلها ويبلغ من ضلالها حول الصورة الأساسية للنظام الكوني أنها تكاد تثير السخرية. وأنا لن أدعو لمراجعة كاملة لهذه الرواية، فالحقائق الأساسية لا يمكن تجاهلها:

(1) هذه هي صيغة كتاب الحياة، أما النصُّ الذي ورد في الكتاب فمأخوذ عن الكتاب المقدَّس المعروف بصيغة الملك جيمز، وهذا هو:

Though he slay me, yet will I trust in him: but I will maintain mine own ways before him.

وهذه الصيغة لا تتضمّن معنى تزكية الطريق، بل تشدِّد على التمسُّك بالموقف، وأظن أن هذا هو ما يريد المؤلِّف أن يشدِّد عليه.

(2) أستخدم اللفظ الإنكليزي لأسماء الأعلام إلاّ إذا كان لفظٌ مغاير قد استقرَّ باللغة العربية.

فقد عومل غاليليو معاملةً قاسية (أُجبر على التنصُّل من أقواله جاثياً على ركبتيه، ثمَّ وُضِعَ تحت ما ندعوه في أيامنا هذه بالإقامة الجبرية بقيَّةَ عمره)، وكان غاليليو على حقّ. كذلك مثَّل صراعُه مع البابا – وفق أفضل كتاب حديث عن الموضوع (وهو كتاب **غاليليو رجل البلاط** من تأليف ماريو بياجولي الذي نشرته مطبعة جامعة شيكاغو في سنة 1993) – «الصراع بين نظرتين متعارضتين للعالم». كما أن البابا إيرْبَن دافع فعلاً عن مركزية الأرض في الكون على أنها هي المعتقد الذي تقبله الكنيسة. ولكننا عندما نقدِّر حتى الجزء الظاهر من كتلة الثلج المعقَّدة التي تمثِّلها حياة القرن السابع عشر في بلاط روما – وهو عالَم يبلغ من عمق اختلافه عن عالمنا أن تصنيفاتنا وتعريفاتنا لن تزيدنا إلاّ اضطراباً – فقد نفهم السبب الذي يجعل تعريفاتنا الراهنة للعلم والدّين لا تنطبق على محنة غاليليو انطباقاً له قيمة.

لقد وقع غاليليو ضحيَّةً لنوع تقليدي من الدراما في بلاط أمراء أوروبا كما يبيِّن لنا بياجولي. فقد كان مافيو باربَريني صديقاً شخصيّاً لغاليليو، وراعياً عامّاً للفنون والعلوم. وعندما تقلَّد باربَريني مقاليد البابوية تحت اسم إيرْبَن الثامن في سنة 1623 شعر غاليليو، الذي كان قد اقترب من سنِّ الستّين، بأن لحظة الحسم قد أزفت. وكانت الكنيسة قد حظرت اعتبار نظرية كوپيرنِكَس الخاصة بمركزية الشمس في الكون حقيقة من حقائق الطبيعة، ولكنها تركت باباً تقليديّاً مفتوحاً بأن أجازت استمرار النقاش حول التصوُّرات المختلفة للنظام الكوني بوصفها فرضيّات

رياضية خالصة.

ولكن غاليليو تسرَّع ومضى إلى أبعد مما تقتضيه الحكمة بأسلوب أثار الحفيظة. فقد سعى طوال حياته للحصول على دعم البلاط، ولكنه فَقَدَ الآن الحظوة وعاد إلى دوره الطبيعي الذي يتيحه له زمانه ومكانه. يقول بياجولي: «كانت ديناميّات الرعاية هي التي أوصلت غاليليو إلى المكانة التي وصل إليه ثم قضت عليه.. وكانت الدّيناميّات التي تسبَّبت له بما لحقه من مشكلات هي من ذلك النوع الذي نتوقّعه من بيئة بلاط الأمير: إنها تشبه ما كان يعرف بسقوط الشخص الأثير من عليائه».

سلْ نفسك عن السبب الذي يجعل زعيما روحيّا يُجْبِر غاليليو على عمل شيءٍ لتتمكّن من وضع التصنيفات الحديثة المضلِّلة موضع التساؤل. ما الذي جعل عالِمَ الفيزياء الكبير يوافق على عرض أفكاره أمام محكمةٍ كَنَسية في روما؟ تذكَّر أن إيطاليا لم يكن لها وجودٌ في العقد الرابع من القرن السابع عشر، وأن البابا كان يمارس السلطة الدنيوية الكاملة على روما ومناطق شاسعة تحيط بها. وكان على غاليليو أن يمثُل أمام محكمة التحقيق لأن هذه المؤسسة كانت تمثِّل «السلطة القانونية في البلاد»، وكانت مخوَّلةً بإصدار الأحكام وتنفيذها. أضف إلى ذلك أن البلاط البابوي كان أشدَّ المؤسّسات تعرُّضاً للتقلُّبات بين المؤسسات الملَكيَّة التي كانت تسيطر على قطاعات كبيرة من أوروبا: لقد كانت تلك الأيام أيّاماً عصيبة (تواجه الكنيسة الكاثوليكية فيها خطر توسُّع حركة الإصلاح في خضمِّ الحرب المدمِّرة التي تعرف بحرب الثلاثين

سنة). وكان البابا يتمتَّع بقوَّة غير اعتيادية بصفته الحاكمَ الدنيويَّ لبلادٍ معيَّنة والحاكمَ الروحانيَّ (اسميّاً في الأقل) لبلادٍ أوسعَ منها بكثير. ولربَّما كان البلاطُ البابويُّ الوحيدَ من بين بلاطات الأمراء الذي لم يتمتَّع بالاستقرار الذي ينتج عن قواعد توارث الحكم لأن شاغلي المنصب البابوي يأتون إليه بالانتخاب، ومن الممكن أن يأتوا من خلفيّات غير أرستقراطية. أخيراً، حصل معظم البابوات على مناصبهم بعد تقدُّمهم في السن، ولذلك كانت سرعة تغيُّرهم عالية، ولم يكن شاغلو المنصب يُعَمَّرون وقتاً كافياً لتعزيز قبضتهم على السلطة.

أضف إلى هذا الخليط من العوامل أن شخصاً لامعاً مندفعاً كان قد أثار المشاكل من قبل وأخذ الآن يسخر من بعض البيانات البابوية السابقة (أو أراد في أقلِّ تقدير أن يثير الحفيظة قاصداً، غيرَ آبهٍ بالعواقب) فوضع كتابه الجديد على هيئة حوارٍ مُتَخَيَّل بين خصمين متساويين، تأتي فيه الأفكار الخاصة بمركزية الأرض، أي بالمذهب الرسمي للكنيسة الكاثوليكية، على لسان شخصٍ تبلغ حجَّته من القوَّة ما يدلُّ عليه اسمه: «ساذج». لقد خطا إيرْبَن الثامن خطوة سيئة بحسب حكم التاريخ اللاحق، ولكنني أفهم تماماً شعوره بالامتعاض إن لم نقل بالخيانة – وقد أدَّت هذه المشاعر إلى نتائج متوقَّعة في عصر تختلف فيه التوجُّهات والإجراءات عمّا نعهده في عصرنا نحن.

لا يزال الأثر القوي لقصَّة غاليليو يتلبَّس أيَّ قضية يكون طرفاها العلم والبابوية في أيامنا هذه كما تلبَّسها في السابق. وهذا التلبُّس هو التفسير

الوحيد فيما أرى للدهشة العظيمة التي عبَّر عنها المعلِّقون الذين يمثِّلون حقل العلم وعبَّرت عنها عناوين الصحف في جميع أنحاء العالم الغربي عندما أصدر البابا يوحنّا بولس الثاني مؤخَّراً تصريحاً بدا لي عاديّاً جدّاً، منسجماً تمام الانسجام مع موقف الكنيسة الكاثوليكية المعهود والداعم لمبدأ الانفصال ولمشروعيَّة الدراسات التي تقوم على افتراض التطوُّر البشري على وجه الخصوص. كذلك فإنني كنت أعلم أن البابا پايَس الثاني عشر كان قد دافع عن التطوُّر بصفته موضوعاً مقبولاً للدراسة في رسالته المعنونة *Humani Generis* التي نشرت في سنة 1950، وأنه فعل ذلك بالاستشهاد الصريح بمبدأ الانفصال – أي بالقول إن دراسة التطوّر الطبيعي تقع خارج حقله، مميِّزاً في الوقت نفسه المفاهيم الدارْوِنيَّة عن موضوعٍ يختلط كثيراً بالدعاوى العلمية ولكن حقله الصحيح هو الدِّين: ألا وهو موضوع أصل الروح الإنسانية وتكوينها. ولكنني أدركت بعد الدراسة المتأنِّية لتصريح البابا يوحنّا بولس الذي أصدره في سنة 1996 أنه أضاف بُعداً مهمّاً لوثيقة پايَس الثاني عشر التي كانت قد صدرت قبل ما يقرب من نصف القرن. وتزوِّدني تفاصيل المقابلة بين الموقفين بالمثال الأثير لدي على فكرة الانفصال عند زعيم ديني لم يُعرَف عنه أنه يقف في طليعة الساعين للتوفيق بين الآراء المتباينة في داخل حقله. فإن كان مبدأ الانفصال يعبِّر عن الموقف الراهن من الخَلَف المباشر للبابا إيرْبَن الثامن، فإن من حقِّنا أن نسعد بالاتفاق السائد.(1)

(1) تعتمد بقية هذا الجزء الخاص بالآراء البابوية الخاصة بالتطوُّر على مقالة سبق نشرها في كتابي *Leonardo's Mountain of Clams and the Diet of Worms (Crown، 1998).* (المؤلِّف).

أصدر البابا پايَس الثاني عشر رسالته المعنونة *Humani Generis* في سنة 1950 لمواجهة كلِّ المذاهب والتوجُّهات التشكيكية التي أعقبت الحرب العالمية الثانية وأخذت توجِّه المحاولات التي جرت لإعادة بناء الهيبة الإنسانية من رماد المحرقة، وهذه الرسالة وثيقة تقليدية كتبها رجل شديد المحافظة. وعنوانها الفرعي هو: «فيما يخصّ بعض الآراء الزائفة التي تهدِّد أركان العقيدة الكاثوليكية». وتبدأ الرسالة بالتعبير عن موقف المواجهة على النحو الآتي:

كان الخلاف والخطأ بين الناس في الأمور الأخلاقية والدّينية مصدر حزن عميق على الدوام لجميع الناس الطيِّبين، وعلى رأسهم أبناءُ الكنيسة المخلصون الصادقون، لا سيَّما في هذه الأيام التي نرى فيها مبادئ الثقافة المسيحية وهي تتعرَّض للهجوم من كل جانب.

ويوجِّه پايَس انتقاداته اللاذعة لأعداء مختلفين من خارج الكنيسة: لمبدأ وحدة الوجود، وللفلسفة الوجودية، وللمادِّيَّة الجدليَّة، وللتاريخية، ولا سيّما للشيوعية التي تنال جانباً كبيراً من نقده. ثم يلاحظ بحزن أن بعض الناس داخل الكنيسة من ذوي النوايا الحسنة قد وقعوا ضحية النسبية الخطيرة – ضحية «المسالمة اللاهوتية وعدم المفاضلة بين الآراء بحيث تعتبر كلها صائبة» – وذلك ليشمل كلَّ الذين يتوقون للدين المسيحي، ولكنهم لا يريدون الخضوع لحقل التعاليم الكاثوليكية بالذات.

ويذكر پايَس نظرية التطوُّر أوَّل ما يذكرها لانتقاد المتحمِّسين

للمذاهب التي تعرَّض لها بالنقد وذلك للتنديد بسوء استخدام المصطلح وتوسيع مدلوله أكثر مما يحتمل:

يبالغ بعضهم ويجانبهم الصواب عندما يعتقدون بأن التطوُّر ... يفسِّر أصل كلِّ شيء ... والشيوعيون يسعدهم القبول بهذا الرأي من أجل أن يدافع الناس عن مادِّيَّتهم الجدلية بعد أن تُحرم أرواحُهم من كل فكرة تقول إن الله ذاتٌ منفصلة.

ويعرض پايَس فكرته الرئيسة عن التطوُّر قرب نهاية الرسالة، من الفقرة 35 إلى الفقرة 37. وفيها يقبَل مبدأ الانفصال المعروف ويسلِّم بأن التطوُّر ينتمي إلى مجالٍ مختلفٍ يضغط فيه كلُّ حقل على الحقل المجاور. «ويتبقّى أن نتحدَّث الآن عن مسائل تتَّصل بحقائق الديانة المسيحية رغم أنها تنتمي إلى حقل العلوم الوضعية».[1]

(1) ما يثير الانتباه أن الفكرة الرئيسة التي تقدِّمها هذه الفقرات لا تتناول التطوُّر بعامَّة، بل تستهدف دحض النظرية التي يدعوها پايس نظريَّةَ تعدُّد الأصول، أي انحدار بني البشر من أسلاف متعدِّدين. فهو يرى أن هذه النظرية لا تتَّفق ومذهب الخطيئة الأصلية التي «تنحدر من خطيئة ارتكبها آدمٌ واحد فعلاً، فانتقلت منه جيلاً بعد جيل لكلِّ البشر، وتوجد في كلِّ فرد كما لو أنها خطيئته هو». وقد يقال في هذه الحالة فقط إن پايس قد تجاوز مبدأ الانفصال – ولكنني لا أستطيع إصدار الحكم حول هذه المسألة لأنني لا أفهم تفاصيل اللاهوت الكاثوليكي، ولذلك فإنني لا أعرف إلى أيِّ حدٍّ يمكن أن تقرأ هذه الأقوال قراءة رمزية. أما إذا كانت الحجّة التي يسوقها پايس هي أننا لا نستطيع القبول بنظريةٍ عن انحدار جميع البشر في العصر الحديث من أجداد متعدِّدين بدلاً من انحدارهم من سَلَفٍ فردٍ (وهذه حقيقة ممكنة) لأن نظرية كهذه ستضع فكرة الخطيئة الأصلية موضع التساؤل (وهذه فكرة من وضع علم اللاهوت) فإنني مضطرٌّ للقول إنه تجاوز حقوقه لأنه جعل حقل الدين يملي نتيجة تنتمي إلى حقل العلم. (المؤلِّف)

ثم تأتي الكلمات المعروفة التي تسمح للكاثوليك بالاعتقاد بتطوُّر الجسد (وهذه قضية عن الواقع الملموس تقع داخل حقل العلم) ما داموا يعتقدون بأن الروح خلقها الله وبثَّها فيه (وهذه فكرة لاهوتية تقع داخل حقل الدّين).

إن السلطة التعليمية التابعة للكنيسة الكاثوليكية لا تمنع ذوي الخبرة في الحقلين من إجراء البحوث والمشاركة في النقاش حول مسألة التطوُّر وفقاً لما وصل إليه البشر من العلوم الإنسانية وعلم اللاهوت مادام النقاش يتناول تطوُّر الجسد من مادَّة حيَّة سابقة – ذلك أن العقيدة الكاثوليكية تدعونا للإيمان بأن الأرواح خلقها الله خلقاً مباشراً.

ولم أكن عند هذا الحدّ قد وجدتُ شيئاً مدهشاً في *Humani Generis*، أو شيئاً يزيل حيرتي حول جدَّة تصريح البابا يوحنّا بولس في سنة 1996. ولكنني تابعتُ القراءة ووجدتُ أن البابا پايَس قال أكثر من ذلك عن التطوُّر، شيئاً لم أرَ أحداً اقتبسه من قبل، شيئاً جعل تصريح البابا يوحنا بولس شديد الإثارة بالفعل. فقد كان پايَس – باختصار – قد أعلن أنه مع أن التطوُّر قد يكون موضوعاً مشروعاً من حيث المبدأ فإن النظرية لم تثبت صحَّتها، وقد تكون برمَّتها غير صحيحة. ويحسُّ القارئ إحساساً قويّاً بأن پايَس كان يرجو أن يأتي حكم العلم ضدّ النظرية؛ فهو يتابع مباشرة بعد المقطع الذي اقتبسناه أعلاه ويقدِّم لنا النصيحة حول الدراسة الصحيحة للتطوُّر.

غير أن هذا البحث يجب أن يجري بحيث يُوازَنُ بين الأسباب المؤيدة للطرفين، أي لمؤيِّدي التطوُّر ولمناهضيه، ويُحكَم عليها بما هو ضروري من الجدِّيَّة والاعتدال والحكمة..لكن ثمَّة أناسٌ يتجاوزون حرِّيَّة النقاش هذه دون رويَّة فيتصرَّفون كما لو أن تطوُّر الجسد الإنساني من مادة حيَّة سابقة أمرٌ مؤكَّد تثبته الوقائع التي اكتشفت حتى الوقت الحاضر وتثبته الاستدلالات العقلية المستمدَّة من تلك الوقائع، وكما لو أن مصادر الوحي الربّاني ليس فيها ما يحثُّ على أكبر قدرٍ من الاعتدال والحذر حول هذه المسألة.

أوجز فأقول إن پايَس يقبل مبدأ الانفصال من حيث المبدأ ويسمح للكاثوليك بالاعتقاد بفرضية تطوُّر الجسدالإنساني ما داموا يؤمنون بأن الله هو الذي يبثُّ الروح فيه. ولكنه يعود فيعرض نصيحة أبوية (مقدَّسة) للعلماء عن وضع التطوُّر بصفته مفهوماً علميّاً: لم تثبت الفكرة بعدُ، وعليكم جميعاً توخّي الحذر لأن التطوُّر يثير قضايا شائكة كثيرة تقع على حدود حقلي. وقد نقرأ هذه الناحية الثانية من النصيحة بطريقتين مختلفتين: فإما أنها تدخُّل لا ضرورة له في حقلٍ مختلف، أو أنها زاويةُ نظرٍ مفيدةٌ من شخصٍ ذكيٍّ من خارج الحقل يهمُّه ما يجري فيه.

إن ما يمنح الجدَّة لتصريح البابا يوحنّا بولس ويجعله مثيراً للاهتمام هو هذه الناحية الثانية التي تندر الإشارة إليها من الاقتباس (والتي تقول إن نظرية التطوُّر لم تثبت بعدُ وإنها تتَّصف بقدرٍ من الخطورة) – وليس

القول المألوف دفاعاً عن الانفصال (وهو أن الكاثوليك لهم أن يؤمنوا بتطوُّر الجسد ما داموا يؤمنون بخلق الروح).

يبدأ يوحنّا بولس بتلخيص بيان پايَس القديم الصادر في سنة 1950، ويعيد التأكيد على مبدأ الانفصال بخاصَّة، وهنا لا يأتي بجديد، وليس في هذا ما يستحق الترويج:

كان سَلَفي پايَس الثاني عشر قد قال في بيانه المعنون Humani Generis (1950) إن التطوُّر ومذهب الكنيسة الخاص بالإنسان ووظيفته لا يتعارضان.

أما الجدَّة في تصريح يوحنا بولس، والتي تجعله مادَّة إخبارية مهمَّة، فتكمن في تعديله العميق للجزء الثاني من القول الذي يندر اقتباسه والذي يقول فيه پايَس إن التطوُّر قد يكون ممكناً من حيث المبدأ وقابلاً لأن يُوَفَّقَ بينه وبين الدِّين، ولكنه لا يستطيع الاستشهاد بالكثير من الأدلَّة التي تدعمه، بل إنه قد لا يكون صحيحاً؛ فيوحنّا بولس يقول - ولا يسعني سوى أن أشكره على ملاحظته - إن نصف القرن الذي انقضى بين استعراض پايَس لما خلَّفته الحرب العالمية الأولى من دمار وبين أيامه التي تأتي على أعتاب الألفية الجديدة قد شهد من التراكم في الأدلَّة ومن التحسين في دقائق النظرية ما يجعل الشكَّ في صحَّة التطوُّر أمراً غير مقبول من أناسٍ حسني النية يتَّصفون بحدَّة الذكاء.

أضاف پايَس الثاني عشر... أن هذا الرأي [التطوُّر] يجب ألاّ يؤخذ على

أنه مذهبٌ مؤكَّد جرى إثباته... أما اليوم، أي بعد ما يقرب من نصف القرن، بعد نشر البيان البابوي، فإن ما تجمَّع لدينا من معرفة جديدة أدّى إلى قبول نظرية التطوُّر على أنها ليست مجرَّد فرضيَّة.

وما يلفت النظر أن هذه النظرية ظلّت تحظى بقبول الباحثين باطِّراد بعد سلسلة الاكتشافات في حقول معرفية مختلفة. ويُشكِّل تلاقي هذه الأدلَّة المستمدَّة من بحوث مستقلّة دليلاً مهمّاً على صحّة النظرية لأن هذا التلاقي لم يقصده الباحثون ولم يخترعوه.

والخلاصة هي أن پايَس كان قد وافق على مضض على عدِّ التطوُّر فرضيَّةً مشروعة وإن تكن الأدلَّةُ الداعمة لها غير حاسمة، ولذا فإن إمكانية فسادها قائمة (وهذا ما كان يرجوه، كما هو واضح). وقد أعاد يوحنّا بولس بعد ما يقرب من خمسين سنة تأكيد مشروعية التطوُّر وفق مبدأ الانفصال، ولكنه أضاف أن المعلومات الإضافية والأفكار النظرية التي تجمَّعت بعد ذلك وضعت التطوُّر فوق مستوى الشكّ. وأصبح بإمكان المسيحيين الصادقين الآن أن يقبلوا التطوُّر لا على أنه احتمالٌ ممكن، بل على أنه حقيقة مثبتة. أي أن الموقف الكاثوليكي الرسمي من التطوُّر تحوَّل من موقف پايَس لسنة 1950 (افرض أن الأمر ليس كما يقولون، ولكننا قادرون على معالجته إذا اضطررنا)، إلى موقف يوحنّا بولس المرحِّب (ثبتت صحَّتُه، ونحن نسعد دائما بما نراه في الطبيعة فعلاً، وننتظر بفارغ الصبر فرصة مناقشة المدلولات

اللاهوتية للموضوع). وأنا يسعدني أن أرى ما آلت إليه الأمور، وأرى فيها إنجيلاً – أي أخباراً طيِّبة.[1] وأنا أمثِّل حقل العلم، ولكنني أرحِّب بالدعم القادم من زعيم من الحقل الرئيس الآخر في حياتنا المعقَّدة. وأتذكَّر هنا حكمة الملكِ سليمان: «الْخَبَرُ الطَّيِّبُ مِنْ أَرْضٍ بَعِيدَةٍ مِثْلُ مَاءٍ بَارِدٍ لِلنَّفْسِ الظَّامِئَةِ» (أمثال 25 : 25).

ثانياً: القسّ الذي تفوّق على نيوتن.

لو لم يكن مبدأ الانفصال ناجحاً وطالَبَ الدِّينُ حقّاً بطمس المعلومات الحقيقية المهمَّة عندما تتعارض مع مقولات لاهوتية أساسية، فكيف نفسِّر انضواء ذلك العدد الكبير من رجال الكنيسة المخلصين ومن أعلى المراتب والمؤهِّلات تحت لواء العلم – بدءاً من المطران الدومنِكاني ألبرتُس ماگنس، الذي كان أستاذ توما الإكويني وأفضل من كتب في العلم في المواضيع العلمية في القرن الثالث عشر؛ إلى نِكُلَس سْتينو، الذي كَتَب أهمَّ كُتُب الجيولوجيا في القرن السابع عشر وأصبح مطراناً؛ إلى لازارو سبالانتْساني، عالم الفسيولوجيا الإيطالي، الذي أثبت في القرن الثامن عشر بتجاربه الرشيقة فساد آخر الحجج القائلة بالتخلُّق الذاتي للحياة؛ إلى آبي برول، أشهر دارسي رسوم الكهوف القديمة في قرننا هذا؟[2]

[1] كلمة «إنجيل» تعود إلى كلمة يونانية معناها «أخبار طيِّبة».

(2) يقصد القرن العشرين لأن الكتاب كان قد نُشر في سنة 1999، ولأن المقالة التي يعتمد علها هذا الجزء منه كانت قد نُشِرت في كتاب آخر للمؤلّف في سنة 1998، وهذا الكتاب نفسه كان تجميعاً لمقالات نشرت سابقاً في مجلَّة علمية.

بدأ العلم بالتوسُّع على حساب الدِّين، وفق النظرة التقليدية للصراع بين الحقلين، في أواخر القرن السابع عشر، وهي حقبة مدهشة يسمّيها المؤرخون «الثورة العلمية». ونحن جميعاً نبجِّل رمز النظام الجديد، ألا وهو إسحاق نيوتن، الذي عبَّر معاصِرُه الشاعر ألكزاندر پوپ عن منجزاته أروع تعبير موجز حين قال:

كانت الطبيعةُ وقوانينُها مسربلةً بالظلام،

ثم قال الله «فليكن نيوتن» فعمَّ الضياء.

غير أن الدهشة تصيب كثيراً من الناس عندما يكتشفون أن نيوتن، الذي لم يفعل شيئاً ليخفي قناعاته، ظلَّ شديد التمسُّك بالإيمان بالخالق، هو وجميع الأعضاء البارزين في دائرته. وقد قضى من الوقت لتفسير سِفْرَيْ دانيال ويوحنّا ولتنظيم تتابع الأحداث الكتابية في نظامٍ متناسق واحد أكثر مما قضاه في العمل في مجال الفيزياء.

وقد اتَّخذ الاعتقاد بمبدأ الانفصال لدى أصحاب الالتزام القويِّ بالأفكار اللاهوتية من العلماء أشكالاً متعدِّدة – ما بين قائلٍ بأن «الله ساعاتيّ»[1] (والقائلون بهذا هم من معاصري نيوتن بوجهٍ عامٍّ)، إلى «مادِّيّة المختبر العلمي» التي يدين بها معظم العلماء المتديِّنين في هذه الأيّام (والقائلون بهذا يؤمنون بأن المسائل «العميقة» حول المعاني النهائية تقع خارج حقل العلم وتحت راية البحث الدِّيني، بينما تنطبق الطرق العلمية، القائمة على ثبات القانون الطبيعي بغضِّ النظر عن

(1) أي خلق ساعةً متقنةً تعمل بانتظامٍ أبديٍّ.

الزمان والمكان، على كلِّ المسائل المتعلِّقة بالوقائع الملموسة في الطبيعة والقابلة للحلّ). وما لم تفرض المعتقدات الدّينية أجوبةً معيَّنة عن المسائل الملموسة أو تحجب قبول الوقائع الموثَّقة فإن العالِم المؤمن يجب ألاّ يخشى من متابعة عمله اليومي بالحماس نفسه.

يمكننا أن نوجز الوصية الأولى لجميع صِيَغ الانفصال على النحو الآتي: «لا تخلط بين الحقلين فتقول إن الله يقدِّر الأحداث المهمَّة في تاريخ الطبيعة تقديراً مباشراً بتدخُّلٍ لا يُعرف إلا بالوحي ولا يستطيع العلم التوصُّل إليه». ونحن ندعو هذا النوع من التدخُّل الخاصّ «معجزة» عادةً – ونقصد بها من الناحية الإجرائية التوقيف الفريد المؤقَّت للقانون الطبيعي لإعادة ترتيب وقائع الطبيعة بإرادة ربّانيَّة. (أنا أعرف أن هنالك من يستخدم كلمة «معجزة» بمعاني أخرى قد لا تتعارض ومبدأ الانفصال – ولكنني أستخدم التعريف الكلاسيكي هنا). ويتطلَّب مبدأ الانفصال هذا «التقييد» على تصوُّرنا لله مثلما يفرض قيوداً على الأهداف الإمبريالية[1] لكثير من العلماء (لا سيَّما عندما يقيِّد الادِّعاء بامتلاك الحقيقة الأخلاقية القائمة على الفهم الأفضل للوقائع الملموسة لأيِّ موضوع).

يظهر كلُّ اتِّفاق من هذا النوع ببطء من بدايات بسيطة قبل اتّضاح الفروق واستقرارها فيما بعد، فلم يجرِ التعبير عن الحاجة لوضع المعجزات خارج هذا الحقل الآخذ بالتشكُّل تعبيراً تامّاً فأثارت القضية

(1) يقصد تعدّيهم على حقل خارج اختصاصهم العلمي.

كثيراً من النقاش في بدايات العلم الحديث إلى أن استقرَّت على النحو الذي أوجزتُه أعلاه (مع بقاء التدخُّل الربّانيّ المباشر في خلق الكائنات الحيّة معقلاً قويّاً أخيراً، وذلك بعد التخلّي عن التدخُّل الإعجازي فيما يخصُّ بقيَّة العالم الطبيعي). ومن المفارقات أن نيوتن نفسه اتَّخذ موقفاً متساهلاً من قبول المعجزات في مجال الخطاب العلمي. ولا شكَّ أنه أدرك الفائدة التفسيرية للفكرة القائلة إن الله يعمل ضمن القوانين التي وضعها هو، ولكنه (أي نيوتن) عدَّ أيَّ محاولة من جانب دارسي النظام الطبيعي لوضع الحدود على إمكانيّات الفعل الربّاني تطاولاً لا ضرورة له. فإن أراد الله أن يوقف العمل بهذه القوانين للحظة من لحظات التدخُّل الخلاّق، فإنه سيفعل ما يريد، وما على العلماء إلا إن يبحثوا عن التفسير على أفضل نحو يستطيعونه.

غير أن ما يثير الانتباه أن أشدَّ معارضة لهذا الموقف المتساهل داخل هذا الحقل العلمي الآخذ بالتطوُّر، وأقوى حجَّة لوضع المعجزات خارج مجال البحث العلمي، جاءتا من واحد من أبرز رجال الكنيسة في حلقة نيوتن من العلماء البارزين، ألا وهو الأب تومَس بيرْنِت الذي زيَّن اسمُه فصلَنا الأوَّل. ويجب أن تقنعنا هذه المفارقة التي تجد فيها فكرة الانفصال أقوى سندٍ لها من رجل من رجال الكنيسة في مقابل موقف نيوتن الأكثر تساهلاً بأن التعارض بين الحقلين لا موجِبَ له، وبأن اللاهوتيَّ المؤمن يمكنه أن يكون عالِماً ممتازاً يؤمن بالعلم أيضاً.

وقد كتب نيوتن رسالة إلى بيرْنِت بعد انتهائه من قراءة كتاب صديقه

المعنون (النظرية الدّينية عن الأرض ***Sacred Theory of the Earth***)في كانون الثاني من سنة 1681 مدح فيها الكتاب ولكنه أثار أيضاً بعض القضايا؛ فقد أشار نيوتن على نحو خاصّ إلى أن مشكلة حشْر عملية الخلق الأولى في ستَّة أيّام قد يمكن حلُّها بافتراض أن الأرض آنذاك كانت تدور بسرعة بطيئة وتنتج بذلك «أيّاماً» بالغة الطول، فما كان من بيرْنِت إلا أن ردَّ مباشرة برسالة عبَّر فيها عن موقفه تعبيراً قويّاً:

لقد حمَّلَكَ كَرَمُك عبء كتابة هذه الرسالة الطويلة التي لم أستطع إلا أن أرى أنك أصررت فيها ... على ضرورة التمسُّك بأيّام موسى الستة واعتباره وصفاً طبيعيّاً [الزمن الخلق] ... وقد اضطررتُ لكي أبيِّن العكس إلى أن أطيل في رسالتي كلَّ هذه الإطالة.[1]

أما بيرْنِت نفسه فلم يجد في أيّام سفر التكوين ما يقلقه لأنه كان قد فضَّل تفسير هذه المقاطع من السفر تفسيراً رمزيّاً، وقال إن مفهوم «اليوم» لم يكن قابلاً للتحديد قبل خلق الشمس في اليوم الرابع من تسلسل الخلق حسبما ورد في سفر التكوين. ولكنه رفض تفسير نيوتن لسبب آخر: فقد خشي أن نيوتن لن يكون بوسعه إيجاد تفسير طبيعي

(1) يتضمَّن بقية الاقتباس تفسيراً لغويّا لتعبيرٍ ورد في كلمات بيرْنِت وجَّهه المؤلِّف إلى قرّائه الذين لا يألفون أسلوب التعبير عند كاتب من القرن السابع عشر. وهذا التفسير لا يعني القارئ العربي لأن المعنى انتقل في الترجمة. أما إشارته إلى أيّام موسى الستة فهي طبعاً إلى ما ورد في سفر التكوين عن الخلق. وسفر التكوين هو أحد كتب العهد القديم الخمسة التي تنسب لموسى عليه السلام.

لتسارع دوران الأرض بحيث يكون طول اليوم كما هو في أيامنا أربعاً وعشرين ساعة - وأن صديقه سيضطرُّ لذلك إلى اللجوء إلى تفسير خارق للطبيعة؛ فقد قال بيرْنِت في رسالته إلى نيوتن: «كيف تسارعت دورات الأرض إن كانت على هذه الدرجة من البطء في البداية؟ هل كانت الأسباب طبيعية أم خارقة للطبيعة؟» (أثار بيرْنِت اعتراضات أخرى على تفسير نيوتن: فتلك الأيام الطويلة ستمدُّ عُمْرَ أجدادنا آماداً أطول حتى من عُمْرِ الـ 969 الذي يقال إن مَتوشالَح قد عُمِّرَهُ، وهو رقم لا يخلو من مشكلات بحدِّ ذاته.[1] ثم إن الليالي بالنسبة للحيوانات كانت ستكون طويلة طولاً لا يُحتمل رغم أن طول الساعات التي يعمُّ فيها ضوء الشمس كان سيسعدها: «إن كان النهار بهذا الطول، فيا لطول ليلته!»)

ردَّ نيوتن مباشرة على ما كان يقلق بيرْنِت من مشكلات منهجية؛ فقد كان يعرف أن صديقه أراد أن يتحاشى أي حجاج يقوم على الإعجاز في العلم - وهي قضية أخطر بكثير من مسألة طول الأيّام الأولى، ولذلك قال، مؤكِّداً أسوأ ما كان بيرْنِت يخشاه:

عندما تكون الأسباب الطبيعية موجودة فإن الله يستخدمها لتنفيذ ما يريد، ولكنني لا أظنها كافية للخلق بحد ذاتها، ولذلك فإنني أفترض أن الله أعطى الأرض من بين ما أعطاها حركتها بحسب الدرجات والأوقات

[1] للراغبين في الاطّلاع على بعض هذه المشكلات الرجوع إلى هذا الموقع: *http:// en.wikipedia.org/wiki/Methuselah*

الأنسب للمخلوقات.

كذلك ردَّ نيوتن على ما أبداه بيرْنِت من قلق على طول الليالي وعلى أثر هذا الطول على الكائنات الحيَّة الأولى: «لماذا لا تحتمل الطيور والأسماك ليلاً طويلاً واحداً بينما تحتمله هي وغيرها من الحيوانات في جرينْلَند؟»

لا شكَّ في أن نيوتن، وهو واحد من أذكى الرجال في تاريخنا، سجَّل نقطة على حساب بيرْنِت في هذا الردّ بإشارته إلى الحياة فوق دائرة القطب الشمالي. سجِّلْ علامة واحدة للدُّبِّ القطبيّ (وعلامة أخرى لطيور البطريق التي لا نعرف عنها الكثير عند القطب الآخر). ولكنني أرى أن علينا التسليم بأن حجَّة بيرْنِت هي الأقوى في الدعوة المنهجية التي أصبحت أساسية لتعريف العلم: وهي أن المعجزات تقع خارج هذا الحقل. وهنا كان القسُّ، لا العالِم الذي يُعَدُّ رمز العلم الحديث، هو الذي قدَّم الدفاع الأقوى عن إجراءات الحصول على الأجوبة المفيدة. سجِّل علامة واحدة لمبدأ الانفصال!

تذييل سريع

ألقى ج. س. هولدَين (1860—1936)، عالمُ الفسيولوجيا الأسكتلنديُّ الكبيرُ ذو المشاعر الدّينية العميقة (ووالد ج. ب. س. هولدَين عالم البيولوجيا التطوُّريَّة الذي فاق أباه شهرة، ومال إلى التطرُّف في السياسة وإلى الإلحاد في اللاهوت)، ألقى سلسلة المحاضرات المعروفة بمحاضرات گفرد، وهي سلسلةٌ مخصَّصةٌ للبحث في العلاقات القائمة بين العلم والفلسفة في جامعة گلاسگو في سنة 1927. وخصَّص هولدين محاضرته في موضوع «العلوم والدّين» للحلّ الأفضل المتمثِّل بمبدأ الانفصال ولما يتضمَّنه من دلالات مركزية للمفكِّرين المتديّنين حول موضوع المعجزات والتفسيرات الخاصة بالعالَم الطبيعي. وقد بدأ هولدَين محاضرته على النحو الآتي:

كثيراً ما يُظَنُّ أن العلوم... تتعارض مع الدّين. وهذا في الوقت الحاضر اعتقادٌ شائع يبدو للوهلة الأولى أنه يقوم على أساسٍ متين. ولا شكَّ في أن هذا الاعتقاد شائعٌ بين رجال العلم أنفسهم رغم أنهم لا يتحدَّثون عنه كثيراً من باب الاحترام لمن يؤمنون بمعتقدات دينية صادقة وينال أسلوبهم في الحياة احترام زملائهم من العلماء.

ثم يعبِّر هولدَين عن الرأي القائل إن الحائل الذي يحول دون اللجوء

إلى مبدأ الانفصال يكمن في الخلط بين جميع أشكال المعتقدات الدّينية وبين دعوى معيَّنة – دعوى تخلط بين الحقلين ولذلك فإنها تستبعد الانفصال – وهذه الدعوى تقول إن جانباً كبيراً من الطبيعة المادِّيَّة أقيمَ بمعجزات تقف الدراسة العلمية عاجزة دونها:

لقد لاح لأولئك الذين آمنوا بأن الدّين يعتمد على الإيمان بالتدخُّل الخارق للطبيعة أنه مات ميتةَ بقيَّةِ الخرافات. ولكن الدّين ظلَّ في الواقع يجتذب الناس بالقوَّة التي كان يجتذبهم بها في السابق، إن لم نقل بقوَّة أعظم...وأعتقد أن بإمكاني أن أوضِّح السبب. وإذا ما صحَّ تفكيري فإن العلاقة بين الدّين والاعتقاد بالأحداث الخارقة للطبيعة من أي نوع معدومة.

أخيراً شدَّد هولدَين على القول إن هذا الموقف من المعجزات ينبع من التزامه العميق والفعّال بالدّين، وليس من أيِّ رغبة لديه بحماية حقل العلم الذي ينتمي إليه:

يمكنني أن أقف نفسي على هذه المحاولة (لصياغة العلاقة الصحيحة بين العلم والدّين) لأنه لا يمكن لأحد أن يشعر شعوراً أقوى من شعوري بأن الدّين أعظم ما في الحياة، وبأن هنالك خلف الكنائس المعروفة كنيسةً غيرَ معروفةٍ يمكن للجميع أن ينتموا إليها رغم أن عقيدتها تخلو من المعجزات.

تؤكِّد فكرة هولدَين صلابة مبدأ الانفصال وتزوِّدنا بوسيلة للانتقال السريع إلى النصف الثاني من هذا الكتاب، وفيه أسأل عن السبب الذي

يدعو هذا العدد الكبير من الناس للمضيّ في رفض هذا الحلّ الإنساني المعقول الناجح للمشكلة الزائفة الكبرى التي تواجه عصرنا؛ فالانفصال ليس وسيلة ضعيفة سطحية تعمل كما تعمل الحكاية الدبلوماسية أو كالغطاء الدخاني لتجعل الحياة سهلة عن طريق التسوية في عالَمٍ تتجاذبه العواطف المتصارعة. إن الانفصال حلٌّ صحيح يقوم على أساس المبادئ - أي يقوم على فلسفة سليمة - لمشكلة ذات وزنٍ تاريخيٍّ وعاطفيٍّ كبير. ويتّصف مبدأ الانفصال بقوّة الشكيمة. وهو يفرض الحوار والحديث القائم على الاحترام بخصوص التزامات أساسية. والانفصال لا يقول: «أنا على ما يُرام، وأنت على ما يُرام - ولذا فلنتحاشَ الكلام عن العلم والدّين».

والانفصال بهذا المعنى يفرض متطلَّبات تصبح صعبة جدّاً على كثير من الناس. وهو يضع بعض صيغ العقيدة الدّينية (الشعبية) موضع التساؤل حتى في أثناء التأكيد على أهمية الدّين العامَّة. وهو أيضاً يمنع تدخُّل العلوم في حقول يحبُّ بعضُ العلماء المتعجرفين السير فيها ويتشوَّقون للسيطرة عليها. فإذا تطلَّب الشكلُ الخاصُّ بك من الدّين مثلاً الاعتقاد بأن عمر الأرض لا يتجاوز عشرة آلاف سنة (لأنك تفضِّل قراءة سفر التكوين قراءة حرفية بغضِّ النظر عما يعنيه هذا القول) فإنك تكون بذلك قد خالفت مبدأ الانفصال - ذلك أنك تكون قد حاولت أن تفرض قراءة دينية خاصة بك لنصٍّ من النصوص على قضية تتناول الوقائع المحسوسة التي تقع داخل حقل العلم والتي وجدت

حلّها باكتشافٍ يقول إن عمرها يبلغ عدّة بلايين من السنين. إن من السهل تعيين الأخطاء التي يأتي بها هذا التطرُّف في قراءة ما يرد في الكتاب المقدَّس قراءةً حرفية، ولكن ماذا عن تلك المخالفات الخفية لمبدأ الانفصال الذي كثيراً ما نجده عند أناس يتطلَّب تصوُّرهم للذات الإلهية أن يكون الله إلهاً مُحبّاً يتابع بنفسه حياة كلِّ مخلوق من مخلوقاته – وليس ساعاتيّاً جبّاراً شغَّل ساعته واختفى؟ إن هذا النوع من الناس يمضي خطوةً أخرى ويصرُّ على أن يُظهِر الله وجودَه (وعنايتَه) بدلائل معيَّنة يتركها على الطبيعة قد تكون مناقضةً لمكتشفات العلم. والعلم لا يقف ضدَّ حاجة أيِّ إنسان لفهمٍ شخصي للقوَّة الربّانية أو ضدَّ اعتقاده به، ولكن مبدأ الانفصال يعارِض أيَّ ادِّعاءٍ بأن الله يجب أن يرتِّب وقائع الطبيعة الملموسة بطريقة مُعَدَّة سلَفاً. فلو كنت تؤمن مثلاً بأن الله الذي يحبُّ حبّاً كافياً يجب أن يُظهِر أفعاله بأن يزيِّن الطبيعة بمعجزاتٍ بادية للعيان، أو تؤمن بأن إلهاً كهذا سيسمح بأن يجري التطوُّر على نحوٍ يتناقض مع الأحافير التي وُجِدَت فعلا (كما لو أن القصَّة قصة تطوُّرٍ خطِّيٍّ بطيء باتِّجاه الإنسان العاقل Homo sapiens مثلاً)، فإن النتيجة هي أن نظرة متحزِّبة للدين (لا تقول بها سوى أقليِّة) تكون قد تطفَّلت على حقل العلم لأنها تُملي استنتاجات يجب أن تبقى قابلة للاختبار العيني والرفض الممكن.

كذلك فإن مبدأ الانفصال سيردُّ بالقوَّة نفسها على العالِم الذي يظنُّ أنه اكتسب الحقَّ في تحديد فوائد اختراعٍ جديدٍ قادرٍ على تغيير المجتمع

وتحديد استعمالات هذا الاختراع لمجرَّد أنه تمكَّن من إجراء هذا الاختراع بما فيه من إمكانيّات وأنه يعرف عن تفاصيله الفنِّيَّة أكثر من أيِّ شخص آخر – ويستاء من المخاوف الأخلاقية التي يبديها مواطنون أكفاء، لا سيما من إصرارهم على أن يكون لهم دورٌ في الحوار الخاصِّ بالضوابط التي يتوقَّع وضعها لضبط استخدامات ذلك الاختراع – بأن وقائع الطبيعة الملموسة لا تستطيع إملاء الأساس الأخلاقي للاستخدام وبأن العالِم لا يحقُّ له الحصول على هذه القوَّة أكثر مما يحقُّ لجاره المؤمن بحرفية الكتاب المقدَّس أن يقرِّر عمر الأرض.

إن مبدأ الانفصال يوزِّع المهامّ ولا يمنح القوَّة – ولذلك فإنه لا يتوقَّع أن يحرز انتصاراً كاسحاً تكون نتيجتُه الاتِّفاقَ الشامل وسط ابتسام الطرفين وتهليلهما. ويتمثَّل ما يحقِّقه من نجاح في أنه يحرِّر الباحثين عن الحكمة ويجعل مجال عملهم أرحب.

الفصل الثالث

الأسباب التاريخية للصراع

الأساس العارض للحِدَّة

عمل أنْدْرو دِكْسن وايْت (1832–1918)، أوَّلُ رئيسٍ لجامعة كورْنِل، مبعوثاً دبلوماسيّاً لروسيا في أواسط العقد الأخير من القرن التاسع عشر أيضاً. ونشر بعد ذلك بقليل، أي في سنة 1896، كتاباً من مجلَّدين أصبح من أبعد الكتب أثراً في نهاية ذلك القرن، وهو بعنوان **تاريخ الصراع بين العلم واللاهوت في العالَم المسيحي**. وقد بدأ وايْت كتابه باستعارة استمدَّها من حادثة حدثت له في روسيا. فقد نظر في أوائل نيسان من نافذة غرفته المطلَّة على نهر النيڤا في مدينة سَيْنْت بطرسبيرغ إلى حشد من الفلاّحين وهم يستعملون فؤوسهم لكسر الجليد الذي كان لا يزال يشكِّل سدّاً على حافَّة النهر عند اقتراب موسم الذوبان في الربيع. وكان الفلاّحون يفتحون مئات من القنوات الصغيرة في السَّدّ لكي تجري مياه النهر المرتفعة فيها، تجنُّباً لانكسار السدّ الثلجي بكامله فجأة، وهو ما كان سيؤدّي إلى فيضان عارم.

كانت المياه الجارية من آلاف الجداول الملأى من أعالي النهر تضغط على السَّدِّ الثلجيّ، وتتجمَّع قطع الحطام والفضلات خلف السَّدّ. وكان الجميع يعرفون أن السَّدَّ سينكسر لا محالة. ويشعرون بخطر انكساره الفجائي بحيث يقلع الأرصفة الگرانيتية من أساسها متسبِّباً بدمار عدد هائل من السكّان .. ولذا أصاب الفلاّحون الصَّبورون بعملهم ذاك، فلا شكَّ في أن السدَّ سينكسر انكساراً تدريجيّاً بعد تعرُّضه لدفء الربيع الذي يأتيه من عشرات القنوات التي

أخذوا يفتحونها، وسيجري النهر جرياناً جميلاً في مجراه جالباً معه الخير.

يمثِّل النهر الجاري في استعارة وايْت المعقَّدة التقدُّم البشري، بينما يمثِّل الثلج البرودة التي يفرضها اللاهوت المتزمِّت على مكتشفات العلم. والتقدُّم لا يمكن كبحُه طويلاً، وإذا رفض اللاهوتُ التخلّي عن سيطرته السابقة على حقل العلم فإن الدّين، بكلٍّ ما فيه من مزايا، سيذهب ضحيَّة انفجار ثقافيٍّ أو سياسيٍّ يدمِّر الإنسانية جمعاء. أمّا إذا تنازل اللاهوت عن طيبِ خاطرٍ ورَوِيَّةٍ وتأنٍّ عن هذه المنطقة المتنازع عليها لساكنيها الشرعيّين من العلماء فإن نهر التقدُّم سيجري في طريقه بهدوء مثلما ستجري مياه نهر النيڤا إذا ما فتح الفلاّحون عدداً كافياً من القنوات عبر جدار الثلج.

وما يلفت النظر أن وايْت لم يَصُغ أطروحته الخاصَّة بالصراع بين العلم واللاهوت لدعم قضيَّة العلم بالدرجة الأولى، وإنما لإنقاذ الدّين من أعدائه الداخليين. فقد شعر بالإحباط الشديد بسبب معارضة رجال الكنيسة المحلِّيِّين لسعيه لجعل كورْنِل جامعة لا تنتمي إلى مذهب ديني معيَّن لأنهم رأوا في إنشاء مؤسَّسة علمانية كتلك عملاً من أعمال الشيطان.

قال وايْت: بدأت المعارضة على الفور .. من المطران البروتستنتي الطيِّب الذي قال إن على جميع الأساتذة أن يكونوا من رجال الكنيسة لأن الكنيسة وحدها هي التي أُمرت بأن تعلِّم كلَّ الأمم، إلى القسّ الذي أخذَتْه

الحميَّة فنشر تهمةً تقول: إن باحثاً مسيحيّاً أتى إلى كورْنِل لينشر الكُفْر ... من رجل الدّين ذي المركز العالي الذي أخذ يتنقَّل من مدينة إلى أخرى ليشجب «الاتجاهات الإلحادية» التي سيأتي بها نظام التعليم المقترح وما سيرافقها من «أفكار تجعل الله والطبيعة شيئاً واحداً»، إلى القسّ الذي جعله حماسُه المفرط يخبر مجلساً من مجالس كنيسته أن أگاسي،[1] آخر المعارضين الكبار لدارْوِن، والمؤمن بالله إيماناً عميقاً، صار «يدعو للدارْوِنيّة والإلحاد» في المؤسَّسة الجديدة.

كان وايْت نفسه متديِّناً يهتمُّ بالدّين أكثر من اهتمامه بالعلم، وقد كتب الآتي عن عمله المشترك مع إزرا كورنِل: «كنا نأمل أن نقوّي الدّين، ولكننا لم نخلط بين الدّين والطائفية».

وقد عرض وايْت مقولته الأساسية في مقدِّمة كتابه:

أدّى التدخُّل في أمور العلم بحجَّة الحفاظ على مصلحة الدّين طوال التاريخ الحديث إلى أفدح الضرر بالدّين والعلم على حدٍّ سواء بغضِّ النظر عن درجة الحرص وسلامة النية من وراء التدخُّل،... بينما أدّى رفع القيود رفعاً كاملاً عما يمكن للعلم أن يبحث فيه إلى أفضل النتائج للدّين والعلم على حدٍّ سواء بغضِّ النظر عن الخطر الذي بدا أنه يتسبَّب به للدّين في بعض المراحل من وقت لآخر.

(1) جان لوي أگاسي (1807–1873) عالم جيولوجيا سويسري الأصل عمل في جامعتي نيوشاتل وهارڤرد، وكان من رأيه أن البشر لم ينحدروا من أبٍ وأمٍّ منفردين، بل انحدروا من آباء متعدِّدين في مناطق متعدِّدة من العالم. واستعملت نظريّاته لدعم الاتجاهات العنصرية ضد الزنوج في أمريكا.

ونحن لا يسعنا إلاّ أن نحيّي مقاصد وايْت، ولكنَّ النموذج الذي وضعه وكان له أثرٌ بعيد، بما تضمَّنه من حربٍ ضروسٍ بين قوَّتين متعارضتين يتنافس كلٌّ منهما على احتلال الرقعة الفاصلة بينهما – وهذه استعارة شائعة من استعارات القرن التاسع عشر روَّجت لها ترويجاً قويّاً فيه ما فيه من المفارقة في سياقنا الراهن بعضُ القراءات الثقافية لبعض العبارات الدارْوِنيَّة الأساسية عن «الصراع من أجل البقاء»، و «البقاء للأصلح» – أقول: إن ذلك النموذج أثَّر تأثيراً سلبيّاً على الجدل الذي لا ينتهي حول علاقة العلم بالدّين. ومع أن وايْت لم يقصد سوى انتقاد اللاهوت المتعصِّب – دفاعاً عن الدّين الصحيح، كما ألمحنا أعلاه – فإن مقولته فُسِّرتْ تفسيراً سطحيّاً لا يخلو من الهوى على أنها ادِّعاء بأنَّ التقدُّم البشري يتطلَّب انتصار العلم على المؤسَّسة الدّينية بكاملها.

ومن الممكن العثور على هذه النتيجة أيضاً في الكتاب الرئيس الثاني الذي ينتمي إلى هذا النوع الأدبي، وهو كتابٌ أقدمُ من سابقه ولا يقلُّ عنه ذيوعاً، من تأليف جون وِلْيَم دْرَيپر، الذي كان طبيباً من حيث التخصُّص ومؤرِّخاً من حيث الهواية. وقد نُشِر الكتاب في سنة 1874 بعنوان **تاريخ الصراع بين الدّين والعلم**. فعندما وضع دْرَيپر، وهو كاتبٌ لا يتمتَّع بما يتمتَّع به وايْت من حسن التأتّي ولا بما يكنُّه هذا الأخير من احترام للدّين – أقول: عندما وضع دْرَيپر كلمةَ «الدّين» في عنوان كتابه فإنه قصد هو أيضاً اللاهوت المتعصِّب.

ومع أنه كان يرجو أن تكون العلاقة بين العلم والبروتستنتية علاقة تقوم على التعاون، فإنه أتاح لنا أن نقرأ نصَّه على أنه هجوم على الدّين، أو على دينٍ معيَّنٍ على الأقلّ لأنه دَعَمَ التحيُّز الشائع عند الأمريكيين الناجحين في زمانه ضدَّ الكاثوليكية، دينِ[1] معظم المهاجرين الفقراء «القذرين» الذين كانوا يهدِّدون بإفساد صفاء العنصر الوطني.

إن من الصعب على أي إنسان أن ينكر أن الصراع العلني قد ساد في العديد من حالات التفاعل التاريخي بين مؤسستي العلم والدّين بغضِّ النظر عما نراه من شدَّة النَّزعة الإنسانية في مبدأ الانفصال وشدَّة التماسك المنطقي فيه، وبغضِّ النظر عن درجة ما ننسبه إلى فكرة الصراع الكامن بين العلم والدّين من فسادٍ وتبسيط.

كيف يمكننا إذن أن ندافع عن هذا المبدأ إن كانت أنماطٌ من التاريخ الفعلي تتحدَّث بمثل هذه الأصوات المختلفة؟

أنا أرى أن ثمة أربعةَ أسبابٍ كبرى قادرةٍ على تفسير هذه الظاهرة الشاذَّة وعلى تمكيننا من فهم السبب الذي يجعل فكرةً حميدةً كفكرة الانفصال تواجه كلَّ هذه العقبات في وجه قبولها، بل حتى فهمها – وهي كلُّها من صنع التاريخ أو نتائج عوامل نفسية أكثر من كونها أفكاراً قابلة للإثبات ضدَّ هدفٍ مرغوب فيه قابلٍ للتحقيق:

---

(1) قد يكون من المناسب أن أذكر هنا أن كلمة *religion* (دين) هي التي وردت في النصّ، وأنها هي التي تطلق في الأغلب على البروتستنتية والكاثوليكية، وليس كلمة sect (طائفة، مذهب) التي قد يظنّ المسلمون أنها الأنسب.

(1) لا يملك العقل البشري كما ذكرنا سابقا ومع التبسيط الشديد للتاريخ لوهلة من الزمن (مع الحفاظ على النهج الأساسي)، إلاّ أن يتساءل عن طبيعة الأشياء، سواء لأسبابٍ عمليَّة كالزرع والإبحار، أو لأسبابٍ أعمَّ تدفعنا لإشباع حسّ الفضول لدينا - كما في سؤالنا: لماذا تضيء الشمس؟ ولماذا لونُ العشب أخضر؟ فقدكانت المسائل ذات الحلول الفعلية المحسوسة التي نضعها الآن في حقل العلم تقع تحت سلطانِ مفهومٍ موسَّع للدّين عندما لم يكن العلم موجوداً في الحقب الأولى من تاريخ معظم الثقافات الغربية بصفته مطلباً إنسانيّاً صريحاً، وعندما كان الإحساس الموحَّد بطبيعة الأشياء يضع كلَّ الأسئلة التي تبدأ بـ «لماذا» تحت مظلَّة الدّين.

كان حُماة الدّين ومفكِّروه يتعاملون مع مسائل كهذه على نحو ندعوه علميّاً في أيّامنا هذه - مثل مراقبتهم وحسابهم للدورات الفلكية لوضع تقاويم تفيدهم في النواحي العملية والدّينية (كما في المسألة المعقَّدة المتعلِّقة بحساب مواعيد الأعياد غير الثابتة مثل عيد الفصح). ولكن كانت هنالك مسائل أخرى تنتمي الآن إلى حقل العلم تحصل في غياب المعرفة العلمية ولأسباب عقديَّة ضيِّقة على أجوبة من السلطة الدّينية («كيف لي أن أعرف؟ هذا ما يقوله لي الكتاب المقدَّس») أو على أجوبة نبوية («الملائكة فعلت ذلك»)، وهي أجوبة نعدُّها الآن متعارضة مع مبدأ الانفصال.

لكن ثمَّة لدينا، إلى جانب ما تتَّصف به الطبيعة البشرية من صفاتٍ

تثير الإعجاب مثل الرغبة المباركة بمعرفة ما لا نعرف، ميولٌ لا تثير القدر نفسه من الإعجاب، كالمَيْل المتمثِّل في المبدأ الشائع القائل: «لا تتخلَّ طوعاً عن البقعة التي تحتلُّها ولو كنتَ لا تملك الحقَّ فيها». ولستُ أرى أن علينا أن نذهب إلى أعمق مما ذهبنا إليه لنفهم السبب الذي يقدِّم لنا فيه التاريخ كلَّ أمثلة الصراع هذه بينما كان على مبدأ الانفصال أن يسود؛ فكثيراً ما يكون في المهن جميعاً متعصِّبون ومتمسِّكون بالسلطة، وكثيراً ما يحصل هؤلاء على مناصب مؤثِّرة. وقد حصل الدّين في وقت من الأوقات على قدْرٍ من القوَّة والسلطان جعله يجتذب أكثر من نصيبه من أمثال هؤلاء. وقد سَعِدَ كثيرٌ من المفكِّرين الدّينيّين بالتنازل عن الأرض التي لم تكن ملكاً حقيقيّاً لهم لحقل العلم، ولكن اختار سواهم، لا سيَّما أولئك الذين احتلّوا مواقع الزعامة، ألاّ يتنازلوا عن إنشٍ واحد، ولجأوا إلى لعبة الصراع القديمة ليصفوا حقل العلم النامي بقولهم إن القائمين عليه ليسوا سوى مجموعة شرّيرة من المغتصبين الذين يأتمرون بأوامر الشيطان – ومن هنا جاءت حروب العلم المتكرِّرة لا مع الدّين بالمعنى الكامل للكلمة، بل مع تجسُّدات معيَّنة له من الأصحّ تسميتُها باللاهوت المتعصِّب، وهو اللاهوت الذي يتعارض مع مفهوم أكثر الناس للدّين حتى وإن تسمّى بالاسم الرسمي لمعتَقَدٍ من المعتقدات.

(2) لا تبعثُ المبادئ العامَّة الحياة دائماً في الأشياء المفردة. وقد تسبَّبت وقائع التاريخ هذه بحالات من التصادم العنيف بين المؤسَّسات التي تمثِّل العلم والدّين حول قضايا معيَّنة كثيرة رغم أن المنطق المجرَّد

والنية الحسنة يجب أن تجعل الطرفين يلجآن إلى التسامح تحت ظلّ مبدأ الانفصال. ولو تصوَّرنا مدى الحدَّة في بعض المواجهات بين قادةً معيَّنين من جانب الدّين وبين بعض الاستنتاجات العلمية (كما في حالة غاليليو والمعارك الحديثة التي خضناها ضدَّ المتمسِّكين بقصَّة الخَلْق الكتابية) فقد نتصوَّر الحروب الأشدّ التي شنَّها (بالمعنى الحرفيّ للكلمة في أحيان كثيرة) زعماء دينيّون يعتنقون مبادئ سياسية مختلفة - للحصول على أكبر قدْر من القوَّة ولو أنهم شنُّوها تحت راية الدّين في الظاهر.

وهذا مثال واضح واحد: فقد كتب كلٌّ من دْرَيپر ووايْت - واضعي النموذج المعتمد للحرب بين العلم والدّين - كتابه وقد رسخت في ذهنه القصص الدرامية الكبرى التي حدثت في التاريخ الأوروبي في القرن التاسع عشر: كالصراع بين مؤسِّسي الدولة الإيطالية من ناحية وبين شخصيَّةٍ من أشدِّ الشخصيّات سحراً وغموضاً في عصره، ألا وهو البابا پايَس التاسع الذي بدأ لبراليّاً ثم انتهى بأن تحوَّل إلى شخصٍ رجعيٍّ يحسُّ بالمرارة، والذي لا يزال يحتفظ بالرقم القياسي بين البابوات من حيث طول المدَّة التي حَكَمَ فيها (إذ حَكَمَ ما بين سنة 1846 إلى أن توفِّي في سنة 1878).

فقد أُجبِر البابا پايَس التاسع في أوائل حكمه، نتيجةً لثورات سنة 1848، على الذهاب إلى منفاه في مدينة گييتا في مملكة نابولي (إذ لم يكن الشعب الإيطالي قد وُلِدَ بعدُ). لكنه عاد إلى السلطة في سنة 1850 فاتَّبع منذئذٍ سياسةً أشدَّ محافظةً وأشدَّ رغبة في المواجهة مع الوقائع السياسية

المحيطة به بقية سني حكمه – وتتوّج كلُّ ذلك بإصدار منهجه المشؤوم لسنة 1864، الذي ذكر فيه ثمانين من «أخطاء زماننا الكبرى»، فكان بمثابة إعلان الحرب على المجتمع الحديث، ولا سيَّما العلم ومفهوم التسامح الدّيني. وقد جمع البابا بايَس التاسع مجلس الڤاتيكان الأوَّل في سنة 1869 وتمكَّن فيه من الحصول على أغلبية كبيرة صوَّتت تحت تأثيره لإقرار مذهب العصمة البابوية (أما مجلس الڤاتيكان الثاني الذي عقد في سنة 1962 في عهد البابا يوحنّا الثالث والعشرين، فقد اتَّبع سياسة مختلفة تماماً تبتعد عن المواجهة).

وقد جرى الإعلان عن توحيد الشعب الإيطالي الحديث في سنة 1861، فأصبحت مشكلة السيطرة على روما والمناطق المحيطة بها – وهي مناطق كانت تقع تحت حكم البابا كأنه مَلِكُها الدنيوي وأميرُها الروحي – مشكلةً لا يمكن التغاضي عنها طويلاً. ففي 20 أيلول 1870 دخلت فصائل الجيش الإيطالي مدينة روما بعد مقاومة رمزية من الحرس البابوي المسلَّح، وبقي البابا بايَس التاسع في الڤاتيكان (وهي منطقة أبقتها إيطاليا تحت سيطرة البابا، منذئذ حتى الوقت الحاضر) طوال بقية عمره، محتجّاً على تجريده من سلطته، ومعلناً عن أنه سجين.

لكن هل يحقُّ لنا أن نعدّ هذه الحادثة التاريخية فصلاً من فصول الحرب بين الدّين والدولة الحديثة؟ إن قراءتنا لها على هذا النحو ستحوِّل تعقيدات التاريخ إلى مهزلة؛ فمن الناحية الأولى، ليس ثمة من ظاهرة واحدة موحَّدة تسمّى «الدّين»، والصراع الأكبر في هذه القصَّة

حدث في داخل الكنيسة الكاثوليكية، كما حدث عندما هزم البابا پايَس التاسع جناحه اللبرالي وتخلَّص منه. ولماذا يتعيَّن علينا من الناحية الثانية أن نقرأ هذه الأحداث كما لو أنها قصَّة صراع بين الدّين والدولة الحديثة وليس على أنها قصة صدام بين قوَّتين سياسيَّتين تستخدم كلٌّ منهما الوسائل البلاغية الخاصَّة بها؟ ولماذا يتعيَّن علينا نتيجة لذلك أن نقبل نموذج الصراع بين العلم والدّين عندما يتَّصل الأمر بحوارات أقلَّ تحديداً ووضوحاً وأقلَّ حدَّة وخلافاً ما بين العلم والدّين ما دام لا يمكن النظر إلى هذه المعركة الحقيقيَّة على قطعةٍ حقيقيَّة من الأرض بين أحد الأديان الرئيسة وبين شعبٍ وليدٍ على أنها حربٌ حتميَّةٌ بين مؤسَّستين متعارضتين؟ لقد ظلَّ رجال الكنيسة اللبراليّون لكلِّ الأديان الكبرى يرحِّبون على الدوام بالعلم ويكنّون له الاحترام، بينما ظلَّ كثير من كبار رجال العلم محافظين على التزامهم التقليدي بالمعتقدات الدّينية.

(3) عندما يجري إنكار النتائج العلمية على أُسُسٍ يقول خصومُها صراحة إنها أُسُسٌ دينيَّة فإن المواضيع التي يجري بحثها تقترب دائماً من أعمق مخاوفنا وآمالنا النفسية -أسئلة مثل: «من هو الإنسان حتّى تهتمَّ به؟»[1] (والمقصود بالإنسان نحن جميعاً برغم اللغة المستخدمة في ترجمة الملك جيمز للكتاب المقدَّس).[2]

(1) ترد هذه الجملة في المزمور الثامن، ورقمها 4. وسياقها يقارن بين ضَآلة شأن الإنسان وعِظَم الكون الذي خلقه الله من قمر ونجوم تدور في مداراتها. والترجمة مأخوذة من كتاب الحياة.

(2) المقصودُ بترجمة الملك جيمز الترجمةُ التي أمر بها ونُشِرَت في عهده (في سنة 1611)، وتعرف إما بهذه العبارة أو بعبارة «الترجمة المعتمدة» (*Authorized Version*).=

ولا مُشاحَّة في أن حقائق العلم المتَّصلة بنواحٍ معيَّنة من هذا السؤال لا يمكنها أن تَبُتَّ في قضايا تتعلَّق بالقيم الروحيَّة أو المعاني النهائيَّة – أي في قضايا تقع ضمن حقل العلم. ولكنَّ الاستنتاجات المستمدَّة من الوقائع الملموسة القائلة إن بني البشر وأسلافاً أشبهَ بالقرود العلياكان لهم قبلَ خمسة ملايين إلى ثمانية ملايين من السنين أصلٌ واحد تُرعب كثيراً من الناس الذين لم يتعاملوا مع مفهوم الانفصال، والذين يخشون أن أيَّ شيءٍ يخالف فكرة الخلق من العدم من شأنه أن يحرم الحياة البشرية من المكانة الخاصَّة الضرورية للاستقرار النفسي في عالم تتكرَّر فيه المآسي. ولقد يصف أحدُنا الاستقرارَ الذي يبديه الآخر بأنه يجانف المنطق، ولكن لا سبيل إلى إنكار الأثر النفسي الحقيقي لذلك العزاء، بل لكون ذلك التأثير ضرورياً في أيِّ صيغة يتَّبعها المرءُ للمثابرة في وجه المصاعب. إن هذه المعتقدات المتعلِّقة بأمور ملموسة لن يجري التخلّي عنها بسهولة حتى ولو بقيت العقيدة الدّينية صامدة أمام مكتشفات العلم المناقضة لها. ولا تنسَ الجواب الذي يبثُّ الراحة في النفس والذي يعطيه المزمور الثامن للسؤال المُقلق الذي مرَّ بنا أعلاه: «أَعْطَيْتَهُ السُّلْطَةَ عَلَى كُلِّ مَا صَنَعَتْهُ يَداكَ. أَخْضَعْتَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ. الْغَنَمَ وَالْبَقَرَ

= أما قول المؤلِّف إن المقصود بالإنسان نحن جميعاً فإشارة غير مباشرة إلى أن كلمة *man* (الإنسان) بالإنكليزية لا تفي بالغرض لأن المقصود ليس *man* (الرجل) فقط بل *woman* (المرأة) أيضاً. وهذه الجملة أقرب إلى الاعتذار للحركة النسوية عن طرائق في التعبير لم تعد كافية في العصر الحديث رغم أن كلمة *man* ظلَّت دائماً تفهم بمعنى «الإنسانية» في السياقات التي لا تشير القرائن إلى أن المقصود منها هو الذَّكَر.

وَجَمِيعَ الْمَوَاشِي، وَوُحُوشَ الْبَرِّيَّةِ أَيْضاً، وَالطُّيُورَ والأَسْمَاكَ وَجَمِيعَ الْحَيَوَانَاتِ الْمَائِيَّةِ.»

(4) لو وقف العلم والدّين بعيداً عن بعضهما عند الفصل بينهما فصلاً صحيحاً حسب مبدأ الانفصال ولم يتناولا الموضوع نفسه ثانية لأُغلق هذا التاريخ الطويل من الصراع غير الضروري وغير المنطقي. ولكن الحقلين يتلامسان عن كثب - كما ألمحنا سابقا - وتتشابك أصابعهما على نحو بالغ القرب والتعقيد. والأسئلة التي على العلم والدّين أن يسألاها يجب أن تكون مختلفة منفصلة من الناحية المنطقية، ولكن المواضيع التي يثيران حولها هذه الأسئلة كثيراً ما تكون متطابقةً وذات أهمِّيَّة قصوى. فالعلم والدّين يراقبان نواحيَ متباينةً من أشدِّ مناحي حياتنا حساسية. وكلُّ ما نرجوه هو أن يفعلا ذلك بسلام يؤدّي إلى تعزيز مكانتهما - وليس على شاكلة الرجال الذين شكَّلوا غذاءً لمدافع الحرب العالمية الأولى في خنادق صراعٍ يجافي العقل ويبدو أنه لا ينتهي فيما كان الرصاص ينهمر وقنابل الغاز السامّ تتساقط على من قيل إنهم أعداء كانوا مثلهم مثل غيرهم من الجنود لا يريدون شيئاً سوى الخروج من ساحة المعركة والعودة لقضاء حياة يمكن أن تكون مثمرة تتحقَّق فيها الرغبات.

كولمبس والأرض المنبسطة:
مثالٌ على مغالطة الحرب بين العلم والدّين

يعرف كلُّ تلميذ من تلاميذ المدارس – أو كان يعرف قبل أن تطوي متطلَّباتُ اللغة السياسية السليمة ذاكرة الرجل في طيِّ النسيان – قصَّة كْرِسْتُفر كولمبس الشجاع الذي اكتشف أمريكا رغم قناعة الجميع تقريباً بأن سفينته ستسقط من حافة الأرض المنبسطة بدلاً من ذلك. وتزوِّدنا هذه القصَّة التي تبلغ من السخف مداه ومن الكذب أقصاه، والتي تنتمي إلى ذلك النوع المحترم من القصص التي «تكتب لأغراض تعليم الأطفال» بأفضل مثال أعرفه للكشف عن الأذى الذي يُلحِقه نموذج الحرب بين العلم والدّين – ذلك أن بوسعنا إرجاع أصل هذه الأسطورة إلى صياغة هذا النموذج على يدي دْرَيپر ووايْت. وقد يكون في العموميّات التي وردت في القسم السابق ما يكفي لدعم مبدأ الانفصال بإثبات مغالطة نموذج «الحرب»، ولكنني أرى – لأنني كاتب مقالات في حقيقة أمري – أن أفضل توضيح لأيٍّ تعميم هو ذلك الذي يقوم على اختيار موفَّق لمثال «صغير» موثَّق – وليس على المواجهة المباشرة للفكرة المجرَّدة (وهذه استراتيجية يندر أن تتجاوز الثرثرة المنحازة التي لا تقوم على تفاصيل تثير اهتمام القارئ).[1]

(1) استمدُّ الجزء الأكبر من بقيَّة هذا القسم من مقالة سابقة عنوانها «الميلاد المتأخِّر لفكرة الأرض المنبسطة» نشرت في كتابي *Dinosaur in a Haystack (Harmony Books, 1995).* (المؤلِّف).

نعرف جميعاً أن المفكِّرين القدماء أثبتوا كُرَويَّة الأرض. وافترض علم الفلك الأرسطي كرويَّة الكوكب، وقام إِراتُسْثِنيز بقياس محيط الأرض في القرن الثالث قبل الميلاد. وتقول أسطورة انبساط الأرض إن هذه المعرفة ضاعت عندما حلَّ الظلام الكنسي فوق أوروبا. وظلَّ جميع العلماء تقريباً يعتقدون على مدى ألف سنة بأن الأرض لا بدَّ أن تكون منبسطة – كأنَّها أرضيةُ خيمةٍ تمسك بها قبَّة السماء، إذا ما كان لنا أن نقرأ ما يرد في استعارةٍ من الكتاب المقدَّس قراءة حرفية. ثم اكتشف عصر النهضة الأفكار الكلاسيكية الخاصَّة بكرويَّة الأرض، ولكن الدليل القاطع احتاج إلى شجاعة كولمبس وغيره من المستكشفين العظام الذين كان يتوقَّع لهم أن تسقط سفنهم من حافة الأرض، ولكنهم عادوا (بدءاً من رحلة ماجلان) إلى بلادهم من الجهة المعاكسة بعد أن أكملوا الدَّورة.

تركِّز الصيغة الوعظية الموجَّهة لأطفال المدارس على شخصية كولمبس الذي يقال إنه انتصر على مزاعم رجال الدِّين في معركة بطولية في سَلَمَنكا وقعت بين حرِّيَّة التفكير والتزمُّت الدِّيني. تأمَّل هذه الصيغة من الحكاية التي ترد في كتابٍ لتلاميذ المدارس الابتدائية كُتِبَ في سنة 1887، أي بُعَيد اختراع القصَّة بوقتٍ قصير (ولكنها لا تختلف كثيراً عن القصَّة التي قرأتها عندما كنت طفلاً في العقد السادس من القرن العشرين):

قال كولمبس: «أما إذا كان العالم مستديراً فإن ما يقع خلف البحر

المائج ليس الجحيم، بل الحدود الشرقية لآسيا أو بلاد الخطا[1] التي تحدَّث عنها ماركو بولو»... وكانت قد تجمَّعت في بهو الدَّير جماعة مهيبة من الرهبان حليقي الرؤوس بأثوابهم الكهنوتية... ومن الكرادلة بأروابهم القرمزية...«أنت ترى أن الأرض كروية...ألا تعلم أن آباء الكنيسة قد كفَّروا هذا المعتقد... نظريَّتُك هذه تبدو لنا ضرباً من الهرطقة». ولم يكن بوسع كولمبس إلاّ أن ترتعد فرائصه عند ذكر الهرطقة، إذ كانت محاكم التحقيق الجديدة تعمل عملها بكلِّ كفاءة، بما اعتمدته من أساليب لتكسير عظام الهراطقة، وقرض للحمهم، وخرق لإبهاماتهم ، ومن شنق وحرق وتحطيم لأجسادهم.

(أخذتُ بعض الاقتباسات والكثير من الإحالات في هذا الجزء من الكتاب الممتاز الذي وضعه المؤرِّخ ج. ب. رَسِل بعنوان **اختراع الأرض المنبسطة**).[2]

قصَّة مؤثِّرة من غير شكّ، ولكنها محضُ خيال، إذ لم تأتِ حقبة آمن العلماء فيها بـ «ظلام الأرض المنبسطة» (وذلك بغضِّ النظر عن عدد الجَهَلَة الذين ربَّما تصوَّروا الأرض على هذه الشاكلة، في الماضي أو الحاضر). فمعرفة الإغريق بكرويَّة الأرض لم تختفِ، وتقبَّل علماء الدّين الكبار في العصور الوسطى كلُّهم كرويَّة الأرض على أنها حقيقة ثابتة في علم الفلك. وقد أحال كلٌّ من فيردِناند وإزابيلا خطط كولمبس

(1) بلاد الخَطا هي التسمية التي ترد في رحلة ابن بطوطة عند الإشارة إلى الصين، وهي الصيغة العربية للكلمة التي ترد في النص، وهي *Cathay*.

(2) *J. B.* Russell, *Inventing the Flat Earth* (Praeger, 1991).

إلى هيئة يترأَّسها إرنانْدو دي تالاڤيرا، ، الراهب الذي كانت إزابيلا تعترف له، ومن ثم إلى أسقف غرناطة بعد هزيمة العرب. وقد اجتمع أعضاء هذه الهيئة المشكَّلة من مستشارين من رجال الكنيسة ومن خارجها في سَلَمَنْكا وغيرها من الأمكنة، وأثاروا اعتراضاتٍ فكريةً شديدةً على كولمبس، ولكن لم يعترض أحدٌ منهم على كرويَّة الأرض. ومن اعتراضاتهم الكبرى أن كولمبس لم يكن بوسعه الوصول إلى جزر الهند في المدَّة التي قدَّرها لنفسه لأن محيط الأرض كان أكبر من أن يسمح بذلك. وكان كولمبس قد «تلاعب» بالأرقام ليخرج بنتيجة تجعل الأرض أصغرَ مما هي فعلاً، بحيث يتمكَّن من الوصول إلى الجزر. وغنيٌّ عن القول أنه لم يصل، ولا كان بوسعه أن يصل، إلى آسيا، ولا يزال سكّان أمريكا الأصليّون يُدْعَون هنوداً نتيجة للخطأ الذي ارتكبه.

لقد أكَّد كبار الباحثين المسيحيين جميعهم تقريباً كرويَّة كوكبنا؛ فقد أشار بِيد المبجَّل إلى الأرض بعبارة *orbis in medio totius mundi positus* (أي كرة موضوعة في وسط الكون) في القرن الثامن الميلادي. كما وسَّعت الترجمات الكثيرة التي عُمِلَت من الأعمال اليونانية والعربية التقديرَ العامَّ للعلوم الطبيعية، ولا سيما علم الفلك بين العلماء – فانتشر الاعتقاد بكروية الأرض وتعزَّز.

وأكَّد روجر بيكن (1220–1292) وتوماس الإكويني (1225–1274) استدارة الأرض عبر أرسطو وشرَّاحه العرب، مثلما فعل أكبر عالم من علماء الحقبة الأخيرة من القرون الوسطى، بمن فيهم نِكُلَس أورِزْم

Oresme (1320–1382). وكان كلُّ هؤلاء من رجال الدّين. مَن كان يقول إن الأرض منبسطةٌ إذن ما دام هؤلاء العلماء الكبار كلُّهم يعتقدون باستدارتها؟ لا بدَّ من الحصول على أشرارٍ يُنسَبُ لهم كلُّ تصرُّفٍ خاطئ، وقد بيَّن رَسِل أن فيلسوفَ العِلْم الإنكليزيَّ الكبيرَ وِلْيَم وَوِلْ كأن أوَّل من عيَّن عددا من الأشرار الكبار في كتابه **تاريخ العلم الاستقرائي** الذي نُشِرَ في سنة 1837 – ومنهم اثنان ليسا على درجة كبيرة من الأهمية أحدهما أبٌ معروفٌ إلى حدٍّ ما من آباء الكنيسة هو لاكتانتْيَس (245–325) والثاني مجهولٌ تماماً اسمُه كوزْماس إندِكوپلوسْتِس، الذي كتب كتابه **الطوبوغرافيا المسيحية** ما بين سنتي 547 و 549. وقد علَّق رَسِل بقوله: «أشار وَوِلْ إلى الأشرار... للتدليل على أن هناك من آمن في القرون الوسطى بأن الأرض منبسطة، فقلَّده كلُّ مؤرِّخ أتى بعده تقريباً – ولكن لم يجد أحدٌ منهم أمثلة كثيرة أخرى».

وأنا أمتلك نسخةً من كتاب لاكتانتْيَس المعنون *Divinae institutiones* (أوامر ربّانية)، نُشِر في لِيون في سنة 1541. وهذا الكتاب يتضمَّن فعلاً فصلاً بعنوان *De antipodibus* («في القطبين»)، يسخر من فكرة استدارة الأرض، مع كل الحجج الخاصة بسخف الفكرة القائلة إن الأستراليين يقفون بالعكس وما إلى ذلك مما كان مثار تسلية في سنتي الابتدائية الخامسة. قال لاكتانتْيَس: «هل يبلغ البَلَهُ بأحدٍ حدّاً يجعله يصدِّق أن الناس يقفون بحيث تكون أطرافهم فوق رؤوسهم *[quorum vestigia sint superiora quam capita]*.. وأن الأشجار

يمكن أن تنمو للأسفل، وأن يتَّجه المطر والثلج والبَرَد نحو الأعلى بدلاً من السقوط على الأرض *[pluvia، ey nives، et grandinem sursum versus cadere in terram]*؟» كذلك أيَّد كوزماس قراءةً حرفيَّةً للاستعارة الكتابية القائلة إن الأرض أرضيَّة منبسطة لقبَّة السَّماء المربَّعة من فوقها.

غير أن مروِّجي أسطورة الأرض المنبسطة لا يمكنهم إنكار الشهادة الواضحة التي شهد بها بِيدْ وبيكن والإكويني وغيرهم - فقالوا إن هؤلاء الرجال كانوا بمثابة المنارات النادرة وسط الظلام الدامس. ولكن تأمَّل سخف هذا الموقف. فمن الذي شكّل الرأي السائد الذي يمثِّل هذا الجهل العامّ؟ شخصان ثانويّان اسمهما لاكتانتْيَس وكوزْماس إندِكوپلوسْتِس؟ لم يكن بِيدْ وبيكن والإكويني وأمثالُهم متمرِّدين يعملون على تحطيم الآراء السائدة، بل كانوا هم الذين شكَّلوا الرأي السائد، وكان اعتقادهم باستدارة الأرض هو الرأي المعتمد، بينما بقي لاكتانتْيَس وزملاؤه هامشيين.

أين نشأت أسطورة القرون الوسطى حول الأرض المنبسطة إذن؟ ولماذا؟ يعطينا العمل التاريخي الذي قام به رَسِل القدرة على تحديد الزمان والأسماء. إذ لم يتَّهِمْ أيٌّ من أعداء الكنيسة من أتباع الفلسفة العقلية من أمثال كونْدِياك وكونْدورسِيه وديدِرُو وگبن وهْيوم والأمريكي بِنْجَمِن فْرانْكْلِن علماءَ الكنيسة الأوائل بالاعتقاد بانبساط الأرض رغم أن هؤلاء الرجال لم يخفوا استخفافهم بالصيغ القروسطية من المسيحية.

وقد دعم واشنگتن إرْڤنغ قصَّة الأرض المنبسطة في تاريخه الخاص بكولمبس، وهو تاريخ ينحو فيه نحو الخيال نشره في سنة 1828 – ولكن هذه الصيغة لم ترسخ في الأذهان. ومع أن القصَّة نمت في القرن التاسع عشر، فإنها لم تدخل في الغذاء الفكري الذي يقدَّم لأطفال المدارس أو لغة الأدلَّة السياحية. وقد قام رَسِل باستعراضٍ شيِّق لكتب التاريخ المدرسية المخصَّصة للمدارس الثانوية في القرن التاسع عشر فوجد أن الكتب التي تذكر أسطورة الأرض المنبسطة قليلةٌ جدّاً قبل سنة 1870، أما الكتب التي نشرت بعد سنة 1880 فلا يكاد يخلو أيٌّ منها من هذه الحكاية. ولذا فإن بوسعنا إن نحدِّد الزمان الذي غزت فيه أسطورة الأرض المنبسطة الثقافة العامَّة. كذلك شهدت تلك السنوات وضع النموذج الخاص بالحرب بين العلم والدِّين، وهو النموذج الذي أخذ يكرِّره كلٌّ من كتب عن تاريخ الغرب. وتحتاج أمثال هذه النظريّات التي تصوِّر الصراع بين قوَّتين متعارضتين إلى هدفٍ تُوَجَّه له سهام النقد وإلى حكايات تدعم مزاعمها. ويرى رَسِل أن هذا التقسيم الزائف للتاريخ الغربي هو الذى أعطى أسطورة الأرض المنبسطة مكانتها الثابتة فيه وجعلها شاهداً أساسيّاً على انتصار العلم. وهل بالإمكان وضعُ قصَّةٍ أفضلَ من هذه لتعزيز جيش العلم؟ الظلام الدّيني يقضي على المعرفة اليونانية وينسج حولنا سربالاً من المخاوف المستمدَّة من المذاهب المتزمِّتة المناهضة للعقل والتجربة، ولذا فإن أسلافنا عاشوا في قلقٍ دائم، مقيَّدين بلاعقلانية رجال الدّين، خائفين من أن يؤدّي أيُّ تَحَدٍّ إلى السقوط عن

حافَّة الأرض نحو اللعنة الأبدية. كانت تلك حكايةً وُضِعَت لخدمة هدفٍ محدَّد، ولكنها حكايةٌ كاذبةٌ تماماً لأن كرويَّة الأرض لم تشكِّك بها سوى قلَّةٍ قليلةٍ من العلماء المسيحيين في القرون الوسطى.

وجدتُ في القسم السابق أن نشوء نموذج الحرب بين العلم والدّين يعود إلى الكتابين اللذَيْن كتبهما دْرَيپر ووايْت وكان لهما أثرٌ كبير. وقد استعمل كلٌّ من هذين المؤلِّفَيْن أسطورة الأرض المنبسطة مثالاً رئيساً للتمثيل على ما أراد قولَه. فقد بدأ دْرَيپر بعرض أطروحته على النحو الآتي:

ليس تاريخُ العلم مجرَّدَ سجلٍّ للاكتشافات المنعزلة فقط، بل هو قصَّةُ الصراع بين قوَّتين متنافستين، بين القوَّة المتنامية للعقل البشري من ناحية، وبين التضييق الذي يفرضه نوعٌ تقليديٌّ من الدّين والمصالحُ البشريةُ من الناحية الثانية... والدّين بطبعه ثابتٌ لا يتغيَّر، بينما العلم تقدُّميٌّ بطبعه، ولذا فإن الشقَّة بينهما لا يمكن إخفاؤها، ولا مهرب منها.

ثمَّ ينحدر دْرَيپر من هذه العبارات الموزونة إلى التعبير عن عداءٍ محموم للكاثوليكية وإلى ما يقرب من إعلان الحرب:

هل تقبل الحضارة الحديثة التخلّي عمّا تحقَّق من تقدُّم أعطاها القوَّة والسعادة..؟ هل تخضع إلى إملاءات سلطةٍ ... أبقتْ أوروبا في حالة ركودٍ على مدى قرون، وكَبَتَتْ بالسيف والخازوق كلَّ مسعى للتقدُّم: سلطةٍ تقوم

على ضبابٍ من الأسرار، وتضع نفسها فوق العقل والحسِّ السليم، وتعلن بأعلى صوتها عن حقدها الذي تكنُّه لحرِّيَّة الفكر وحرِّيَّة المؤسَّسات المدنيَّة...؟

لقد انتهينا إلى هذه الحقيقة، وهي أن المسيحية الروميّة والعلم يبدوان لأتباعهما على طرفي نقيض. لا يمكنهما أن يوجدا معاً، ولا بدَّ لأحدهما من الاستسلام للآخر. على الإنسانية أن تختار – إذ لا يمكنها الجمع بين الطرفين.

وقد صدرت أقوالٌ لا تقلُّ تشدُّداً تعلن الحرب من الجانب الآخر، كما في الإعلان الذي أصدره مجلس الڤاتيكان الأوَّل:

فلتحلَّ عليه اللعنة...

من ذا الذي يمكنه أن يقول إن المعجزات لن تحدث، أو إنها لا يمكن أن تُعرَف على وجه اليقين، وإن أصل المسيحية الربّاني لا يمكن إثباته بها؟...

من ذا الذي يمكنه أن يقول إن العلوم الإنسانية يجب أن تجري متابعتُها بروحٍ من الحرِّيَّة تسمح للمرء بأن يصدِّق أقوالها حتى عندما تتعارض مع العقيدة الموحى بها؟...

من ذا الذي يمكنه أن يقول إنه قد يحدث أحياناً، مع تقدُّم العلم، أن المعتقدات التي تقول بها الكنيسة يجب أن تُفهم بمعنى غير المعنى الذي ظلَّت الكنيسة – وما زالت – تتلقّاه؟

تلك كلمات حربية حقّاً. ولكن تذكَّر أن هذه الأقوال الناريَّة من

الطرفين تعكس الأحوال السياسية السائدة على أرض الواقع في وقتٍ معيَّن (كما بيَّنتُ أعلاه في ص 102– 103) ولا تعكس النتائج الحتمية التي يفضي إليها منطقُ الحِجاج الثابت المتناسق؛ فقد أثار إعلان البابا پايَس التاسع حنق العلماء، ولكنه تسبَّب أيضاً بألَم كبير للّبراليين ومؤيِّدي العلم داخل الكنيسة. كما أن الكنيسة الكاثوليكيّة تخلّت بعد ذلك عن موقف المجابهة هذا – كما بيَّنتُ في الفصل الثاني (ص 74–80)، إذ كان ذلك الموقف فيما يتعلَّق المشاعر البابوية نحو التطوُّر البشري وليد مجموعة من الظروف التاريخية، وأخذت تدافع بحرارة عن مبدأ الانفصال.

وقد امتدح دْرَيپر أسطورة الأرض المنبسطة لأنها مثالٌ أساسي على تضييق الدّين وقوّة العلم التقدُّميَّة:

لا يمكن لظاهرة الأفق الدائري البادي للعيان وسقوط هذا الأفق في البحر، ولظهور السفن البعيدة واختفائها تدريجيّاً سوى أن يجعلا البحّار الذكيّ ميّالاً للإيمان بالشكل الكروي للأرض. وقد كانت كتابات علماء الفلك المسلمين وفلاسفتهم قد أشاعت الفكرة في جميع أنحاء أوروبا الغربية، ولكنها جوبهت بالرفض كما نتوقَّع على يد اللاهوتيين... فقد منعت التقاليدُ والسياسةُ [الحكومةَ البابويةَ] من قبول أيِّ تصوُّر للأرض لا يقول إنها مسطَّحة كما ورد في الكتاب المقدَّس.

وقد علَّق رَسِل على نجاح كتاب دْرَيپر بقوله:

لكتاب **تاريخ الصراع** أهمِّيَّة عظيمة لأنه كان أوَّل مثالٍ على إعلان شخصيةٍ لها تأثيرٌ قويٌّ لكون العلم والدِّين في حالة حرب، وقد حقَّق من النجاح ما لا تحقِّقُه سوى قلَّةٍ من الكتب. ورسَّخ في أذهان المتعلِّمين فكرةَ وقوف «العلم» إلى جانب الحرِّيَّة والتقدُّم ضد خرافة «الدِّين» وكَتْبِه. وصار موقفُه هو الحكمة المتعارف عليها.

كذلك فإن كتاب وايْت، الذي ظهر فيما بعد، يجعل كولمبس رسولاً للعقلانية قي مواجهة التزمُّت اللاهوتي؛ فقد كتب الآتي عن نظرية الأرض المنبسطة عند كوزماس إندِكوپلوسْتِس مثلاً: «وقف نَفَرٌ من أبرز رجال الكنيسة أنفسَهم على دعمها بنصوصٍ جديدة ووضعوا حولها أفكاراً لاهوتيةً جديدةً لحمايتها، ونظرت غالبية المؤمنين إليها على أنها نعمة من الله».

وضع دْرَيپر ووايت نموذجهما الأساسي الذي يضع العلم في مواجهة اللاهوت في سياق الصراع الجوهري المعاصر الذي يغري بأن يُنظر إليه على هذا النحو - أي في سياق الصراع من أجل التطوُّر، لا سيَّما الصيغة الدّارْوِنيَّة القائمة على الاختيار الطبيعي. إذ لم تظهر قضيَّة تتحدّى الأفكار التقليدية حول أعمق معاني الحياة مثل هذا التحدّي، منذ عهد غاليليو على الأقل، فمسَّت حقل البحث الدّيني أيضاً. ولستُ أبالغ إذا قلتُ إن الثورة الدّارْوِنيَّة هي السبب المباشر لظهور هذا التصوُّر البعيد الأثر للتاريخ الغربي على أنه تاريخ للحرب بين العلم والدّين. وقد أقام وايْت هذه الصلة بصراحة في مقولته (التي اقتبستُها أعلاه)

الخاصة بأكَاسي (مؤسِّس المتحف الذي أعمل فيه الآن إلى جانب عملي محاضراً زائَراً في جامعة كورنِل). كذلك فإن الفصل الأوَّل من كتابه يتناول المعركة الدائرة حول التطوُّر، بينما يبدأ الفصل الثاني بالحديث عن أسطورة الأرض المنبسطة.

يلفُّ دْرَيپر نفسه برداء دارْوِنيٍّ أطول حتّى من رداء وايْت. فهو يسمّي في خاتمة استهلاله لكتابه خمس مراحل في تاريخ صراع العلم مع الدّين: انحطاط العلم الكلاسيكي وحلول عصور الظلام؛ ازدهار العلم في عهود الإسلام الأولى؛ معركة غاليليو مع الكنيسة الكاثوليكية؛ ظهور حركة الإصلاح (وهي حركة إيجابية من وجهة نظر شخصٍ مُعادٍ للكاثوليكية مثل دْرَيپر)؛ والصراع من أجل الدارْوِنيَّة. أضف إلى ذلك أنه لم يكن بوسع أحدٍ أن يدَّعي لنفسه حقّاً أكبر في التعبير عن رأي كهذا من دْرَيپر لأنه كان شهد رغما عنه أشهر حادثة في الصراع العلني بين دارْوِن ورجال الكنيسة - هذا إذا لم نقل إنه كان المحرِّض على ما حدث. فقد سمعنا جميعاً بالقصَّة الشهيرة التي جعلت المطران وِلْبَرفورْس وتومَس هـ. هَكْسْلي ينخرطان في مشادَّة أمام الملأ في اجتماع الجمعية البريطانية في سنة 1860. ولكن كم من الناس يعرفون أن الملاسنات التي جرت بينهما لم تكن جزءاً من الأجندة المعلنة لذلك الاجتماع، وأنها لم تحدث إلاّ في أثناء النقاش الحرّ الذي أعقب البحث المعلن عنه رسميّاً في تلك الجلسة - وهو بحثٌ لصاحبنا الدكتور دْرَيپر عن «تطوُّر أوروبا الفكري في إطار آراء السيِّد دارْون».

تسمح لي هذه الصِّلة بين الصِّراعات التي دارت حوال الدارْوِنيَّة وبين وضع دْرَيبر ووايْت لنموذج الحرب الأسطورية بين العلم والدِّين - وهو نموذج لا بدَّ من فضحه لكي يسود مبدأ الانفصال - بالانتقال بسهولة إلى الحديث الذي لا مناصَّ منه عن المعركة المحتدمة في هذه الأيّام بين الأدلَّة العلمية والأقوال التي تُقدَّم باسم الدِّين - في محاولةٍ يقوم بها المتمسِّكون بحرفية الكتاب المقدَّس منذ ما يزيد عن سبعين سنة لمنع تدريس التطوُّر في المدارس الحكومية الأمريكية أو - على الأقلّ - لإعطاء وقتٍ مُساوٍ لتدريس النظرية القائلة بالخَلْق وفق ما يرد في الكتاب المقدَّس وبحسب المقياس الزمني فيه (بحيث لا يزيد عمرُ الأرض عن عشرة آلاف سنة) في أيِّ صفٍّ مدرسيٍّ تدرَّس فيه نظرية التطوُّر. فما دامت هذه المعركة قد أسهمت بنصيبٍ كبيرٍ في التاريخ الثقافي الأمريكي في القرن العشرين واستهلكت جانباً كبيراً من وقتِ كثيرٍ من العلماء (بمن فيهم الداعي لكم بطول العمر) في حملات سياسية ناجحة للحفاظ على التعديل الأوَّل للدستور[1] ورفض تدريس الكلام الفارغ المفروض بحكم القانون، فكيف يمكن للدفاع عن مبدأ الانفصال أن يكون أكثر من حلمٍ من أحلام اليقظة يجري في عالم من صنع الخيال؟

---

(1) يضمن هذا التعديل حرِّيَّة التعبير ويحظر على الدولة إنشاء دين رسمي أو الوقوف ضد حرِّية العبادة. وهذا هو نصُّه: يُحظَر سنُّ أيِّ تشريع يتضمَّن إقامة دين من الأديان أو يمنع حرِّية ممارسته، أو يحدُّ من حرِّية التعبير أو الصحافة، أو من حرِّية الناس على التجمُّع السلمي والطلب من الحكومة رفع المظالم عنهم.

الدفاع عن مبدأ الانفصال من الجانبين في الوقت الحاضر

الصراع ضدَّ المدافعين الجدد عن قصَّة الخلق الكتابية

قصَّة الخلق الكتابية: خَرْقٌ أمريكيٌّ خالص لمبدأ الانفصال

تساند أسطورة كولمبس والأرض المنبسطة مبدأ الانفصال باستراتيجيَّة عكسية تُظهِر كيف أن النموذج العكسيَّ القائل بوجود حرب بين الدّين والعلم يخترع معارك لم تحصل أبداً، ولكنها تُستنتَج استنتاجاً مفتعلاً من النموذج المختَلَق؛ فالعلماء المسيحيّون لم يعلنوا مساندتهم لفكرة انبساط الأرض ضدَّ مكتشفات العلم ومعارف القدماء، ولم يَخُضْ كولمبس معارك ضدَّ السلطات الكنسية حول هذه القضية التي لم تنشأ أصلاً. أما مساندو قصة الخلق الكتابية فقد تسبَّبوا بمعركة حقيقية مع الأسف بحيث زوَّدوا مبدأ الانفصال بدعم مباشر على أساس أن كل صراع بين العلم والدّين ينشأ في واقع الأمر من خرق هذا المبدأ، وذلك عندما تحاول مجموعة صغيرة تنتمي لأحد الحقلين أن تفرض إرادتها التي لا صلة لها بالموضوع ولا مسوِّغ لها على الحقل الآخر، ولذا فإن المعارك الحقيقية من أمثال هذه المعركة لا تضع العلم في مواجهة الدّين، بل تمثِّل سعي مجموعة من المتعصِّبين المساندين لأحد الحقلين لعرض قوَّتهم في محاولة منهم لفرض آرائهم الخاصة بهم، وهي آراء لا تؤمن بها إلا أقلِّيَّة محدودة، على حقل الطرف الآخر.

تشكِّل سلسلة المحاولات التي قام بها أنصار قصَّة الخلق الكتابية لمنع تدريس نظرية التطوُّر أو لفرض صيغتهم المعتمدة على القراءة الحرفية للكتاب المقدَّس عن تاريخ الحياة على المناهج العلمية في المدارس الحكومية فصلاً من أمتع فصول التاريخ الثقافي الأمريكي في القرن العشرين، وأشدِّها خصوصية بأمريكا وأكثرها تكراراً. تبدأ القصَّة بداية عاصفة أخذت دور البطولة فيها شخصيَّتان عظيمتان من شخصيّات العقد الثالث من القرن العشرين، وانتهت نهاية تبعث على الرضا عندما اتَّخذت المحكمة العليا قرارها الصائب في سنة 1987. غير أن الصراع الأكبر لم يتوقَّف، بل تغيَّر مكانه – ذلك أن المتعصِّبين ما زالوا يجدون طرقاً أخرى لفرض إرادتهم وسخافاتهم بعد أن جعل دفاع المحكمة عن التعديل الأوَّل استراتيجيَّتهم القديمة الرامية إلى فرض قصَّة الخلق الكتابية من خلال التشريعات الخاصَّة بالولايات لا طائل من ورائها![1]

أرجو أن تلاحظوا أنني أتحدَّث عن حادثة تاريخية معيَّنة – عن محاولات المتشبِّثين بحرفية الكتاب المقدَّس لفرض قصَّة الخَلْق الكتابية على مناهج التدريس في المدارس الحكومية عن طريق سنّ التشريعات – ولا أتحدَّث عن كلِّ المعاني المتفرِّعة عن عبارة «قصة الخلق الكتابية». ذلك أن بعض الصِّيغ الشخصية للخَلْق تقع بكاملها ضمن روح مبدأ الانفصال ولا علاقة لها بقصَّتنا الراهنة – كالاعتقاد مثلاً بأن الله

(1) من المعروف أن في الولايات المتَّحدة نوعين من التشريعات: تشريعات فدرالية، وهذه واجبة التنفيذ في جميع الولايات، وتشريعات خاصَّة بكلِّ ولاية، وهذه واجبة التنفيذ في الولاية فقط.

يعمل عبر قوانين التطوُّر على مقياس الزمن الطويل الذي يحدِّده علم الجيولوجيا، وأن أسلوب السيطرة هذا قد يُعَدُّ ضرباً من ضروب الخَلْق.

يؤمن الناشطون من أعضاء الحركة المناهضة لتدريس نظرية التطوُّر من بين المؤمنين بحرفية القصَّة الكتابية عن الخَلْق في الحقيقة، وليس بحكم المنطق، بأن الأرض ما تزال في مقتبل عمرها، وأن ما يقوله الكتاب المقدَّس صحيح بحرفيَّة معناه، وأن عمر الأرض لا يتجاوز عشرة آلاف سنة، وأن الله خَلَقَ كلَّ نوعٍ على حدة من العدم في ستة أيّام طول كلٍّ منها أربع وعشرون ساعة. ويُبدي هؤلاء الناس من ثمَّ نوعاً من الشطط (أو ربما من الجهل البسيط) فيطابقون بين هذه الأقوال التي ثبت بطلانها وبين حقل «الدّين» كلِّه.

وأنا لا اعتراض لديّ على الحرْفيّين الذين يؤمنون بتعليم مذهبهم في بيوتهم أو كنائسهم، ولا يسعون لفرض هذا المذهب على المدارس الحكومية. أنا واثق تماماً من أنهم مخطئون تماماً حول عُمْر الأرض وتاريخ الحياة، وأنا على استعداد تامٍّ لمحاججة أيِّ شخصٍ ذي ذهن متفتِّح حول هذه المسائل (وهذه صفة غير شائعة بين أعضاء الحركة). ويعلم الله أن لنا الحقَّ في أن نكون على خطأ، بل أن نكون أغبياء، في بلدٍ ديمقراطي! ولذا فإنني لا مشكلة لدي مع أكبر مجموعة من المجموعات التي تؤمن بقصَّة الخلق الكتابية، والتي ربما كانت أبعدها أثراً، وهي مجموعة شهود يهوه؛ فهذه المجموعة لا تحاول أن تفرض معتقداتها اللاهوتية على المناهج العلمية في المدارس الحكومية، ويوافقني أعضاؤها

على أن الكنائس والبيوت الخاصة هي الأماكن الصحيحة لتدريس مذهب خاصٍّ يتحزَّب الناس له أو ضدَّه. ومعنى هذا أن صراعنا ضدَّ معتنقي قصَّة الخَلْق الكتابية صراعٌ سياسيٌّ محدَّدٌ، وليس صراعاً دينيّاً على الإطلاق، ولا هو بالصراع الفكري بأيِّ معنى أصيل. (وأنا أعتذر عن اللهجة القاسية، ولكن المذهب القائل إن الأرض ما تزال في مقتبل عمرها لم يقدِّم ما يمكنني أن أرى فيه شيئاً له قيمة فكرية - كلُّ ما فيه هو خليط من الادِّعاءات التي جرى البتُّ فيها على النحو الصحيح في حقل العلم، والتي ثَبَتَ بطلانها منذ ما يزيد عن قرن من الزمان).

أودُّ قبل تقديم عرض تاريخي مختصر أن أُلَخِّصَ الأمور التي يتميَّز بها صراعنا المعاصر مع قصَّة الخلق الكتابية في مقولتين:

(1) إن المحاولة القوية التي لا يكلُّ الملتزمون بقصَّة الخلق الكتابية، المؤمنون بأن الأرض ما تزال في مقتبل عمرها، والتي يسعون فيها لحشر معتقدهم اللاهوتي الذي لا تؤمن به سوى أقلِّيَّة من الناس، لها هوى سياسيٌّ معيَّن، في المناهج العلمية في المدارس الحكومية الأمريكية لا يمكن أن تُقرَأَ قراءة سليمة على أنها حادثةٌ من حوادثِ حربٍ عامَّةٍ مزعومةٍ بين العلم والدّين.

وإذا ما كان لنا أن نرى في القصَّة مثالاً على الافتراق فإن الجانبين يمكن وصفهما بأن أحدهما يناهض مبدأ الانفصال بينما يسانده الجانب الآخر؛ أو بأن أحدهما يدافع عن التعديل الأوَّل الداعي لفصل الدّين[1]

---

(1) في الأصل «الكنيسة»، ولكن السياق يتطلَّب توسيع المعنى، إذ المقصود هو الدّين بعامَّة.

عن الدَّولة في مقابل الثيوقراطيين الذين يريدون جعل معتقداتهم جزءاً من سياسة الدَّولة؛ أو على نحوٍ أعمَّ بأن أحدهما يدافع عن البحث الحرّ وعن حقِّ المعلِّمين في عرض أفضل فهمٍ لهم للموضوعات في ضوء ما تلقَّوه من تدريب مهني في مقابل وضع المناهج لتناسب الحساسيّات والمعتقدات المحلِّيَّة (أو على يد أولئك الذين يُصدِرون أعلى قدْرٍ من الضجيج أو يحصلون على سلطة عابرة)، مهما كان وضع المعرفة الطبيعية، ومهما كانت خبرة المعلِّمين.

لا تسمح أبسط معايير الأدلَّة التجريبية بوصف الجانبين بأنهما يمثِّلان العلم والدّين مهما كانت الأحوال ومهما كانت طريقة النظر إلى هذا الخلاف؛ فالغالبية العظمى من رجال الكنيسة والباحثين في أمور الدّين تقف في الجانب نفسه مع الغالبية العظمى من العلماء، وتدعم مبدأ الانفصال والتعديل الأوَّل، وتعارض فرض أيِّ مذهبٍ لاهوتيٍّ على المناهج العلمية للمدارس الحكومية، لا سيّما إذا كان المذهب مذهباً متحزِّباً تدعو له أقلِّيَّة من الناس. فالقائمة الطويلة من المشتكين الرسميّين الذين نجحوا في معارضة تشريع ولاية آرْكَنْسو الداعي إلى تدريس قصَّة الخلق الكتابية[1] كانت تضمُّ بعض العلماء والمربّين، ولكنها ضمَّت عدداً أكبر من رجال الكنيسة من جميع الأديان الكبرى[2] ومن الباحثين

(1) نصَّ التشريع المذكور على وجوب تدريس قصَّة الخلق الكتابية إلى جانب تدريس نظرية التطوُّر على نحوٍ متوازن في المدارس الحكومية داخل ولاية آركَنْسو. انظر التفاصيل على هذا الموقع: *http://www.talkorigins.org/faqs/mclean-v-arkansas.html*

(2) تدلُّ هذه العبارة في السياق الأمريكي على البروتستنتية والكاثوليكية واليهودية.

في مجال الدّين.

(2) هذا الجدل جدلٌ محلّيٌّ أمريكيٌّ صرفٌ مثلُ فطائر التفّاح[1] ومثلُ العمّ سام. فليس هنالك من بلد غربيٍّ يواجه مثل هذا الكابوس كما لو أنه حركة سياسية ذات خطر (بدلاً من كونها مجرَّد إزعاجات يتسبب بها عدد محدود من المعتوهين على الهامش). فقد نشأت الحركة الداعية إلى فرض قصة الخلق الكتابية على المناهج العلمية في المدارس الحكومية من مجموعة من التعارضات الخاصة بالأمريكيين، أو من مجموعة من التعميمات ذات الطبيعة الأمريكية الخالصة: الشمال في مقابل الجنوب، المناطق المدنية في مقابل المناطق الريفية، الأغنياء في مقابل الفقراء، سيطرة البلدة أو الولاية في مقابل المعايير الفدرالية. أضف إلى ذلك أن فكرة شباب الأرض التي يقول بها المؤمنون بقصة الخَلْق الكتابية لا تستهوي سوى من يدعون بالحرفيّين الذين يقبلون كل كلمة من كلمات الكتاب المقدَّس على أنها صحيحة بمعناها الحرفي – وهذا اعتقاد هامشي عند كلِّ الأديان الغربية الكبرى في هذه الأيّام، وهو مذهب لم يجرِ التوسُّع فيه إلاّ في السياق الأمريكي لتعدُّدية الكنائس البروتستنتية.[2]

لكن هذا المنظور الحرفي لا يعني شيئاً لأيِّ بلدٍ أغلبيةُ سكّانه من الكاثوليك حيث لم ينشأ تراثٌ يقوم على القراءة الحرفية للكتاب المقدَّس

---

(1) *as American as apple pie* تعبير دارج في أمريكا يدلُّ على ما يعتبرونه أمريكيّاً أصيلاً.

(2) للراغبين في متابعة الموضوع مراجعة المادة الموجودة في هذا الموقع: *http://en.wikipedia.org/wiki/Protestantism*

(أو للإكثار من قراءته أصلاً).[1] أما اليهود، حتى الأورثوذكس منهم، فإنهم قد يقدّسون التوراة تقديساً مطلقاً باعتبارها كلام الله الذي شكّ على الإطلاق في صحّته، ولا يمكن أن تتغيّر فيه أقلُّ نقطة أو علامة، ولكن لن يخطر على بال كثيرٍ من علماء الدين عندهم أن يفسّروا هذا النصَّ الثابت حرفيّاً.[2]

---

(1) يقول المؤلّف هذا لأن قراءة الكتاب المقدَّس في الكاثوليكية تجري تحت إشراف الكنيسة، أما البروتستنت فيقرأونه في بيوتهم باستمرار.

(2) لست خبيراً في أمور الكتاب المقدَّس، ولست قادراً على تفسيره، ولا أستطيع تناول هذه المسألة تناولاً له قيمة كبيرة. ولكن لا بدَّ لي من القول إنني لا أفهم ماذا يمكن أن تعني قراءة الكتاب المقدَّس قراءةً «حرفيّةً» لأن نصّه الذي وُصِلَتْ بعضُ أجزائه ببعضها الآخر توصيلاً من مصادر عديدة يتضمّن العديد من التناقضات التي لا مفرَّ منها. وهذه القراءات المتباينة لا تشكل عقبة للغالبية العظمى من المتديّنين الذين ينظرون إلى الكتاب المقدَّس على أنه وثيقةٌ موحى بها تملأها الحقيقة الأخلاقية، وليس على أنه تاريخٌ صحيحٌ للتاريخ البشري أو وصفٌ لا يعتورد النقصان لحقائق الطبيعة. فلنأخذ مثالاً بالغ الوضوح: كيف يمكن «للحَرْفيّين» أن يوفّقوا بين قصّتي الخَلْق المختلفتين على نحو واضح في الإصحاحين الأوّل والثاني من سفر التكوين، وهما قصّتان مستمدّتان من مصدرين مختلفين حسبما يقوله كلٌّ من اطّلعتُ على كتاباتهم من المختصّين بالدراسات الكتابية؟ فالقصّة الأشيع في الإصحاح الأول من سفر التكوين تروي كيف خلق الله في ستة أيّام شيئاً بعد آخر فبدأ بالنور، ثمَّ فصل المياه عن السماء، وانتقل إلى الأرض والنباتات، ثمَّ إلى الشمس والقمر، وأخيراً إلى الأحياء من أقلها إلى أكثرها تعقيداً. وفي اليوم السادس خلق البشر، الذكر والأنثى، معاً: «فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِه. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَراً وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ» [تكوين1: 27]. أما في الإصحاح الثاني من سفر التكوين فتقول القصَّة إن الله خلق الأرض والسماء، ثم جبَلَ الربُّ آدمَ «من ترابِ الأرض» [تكوين 2: 7]. وبعد ذلك خلق النباتات والحيوانات، وأتى بوحوش البرِّيَّة إلى آدم ومنح الإنسان الأوَّل القدرة على إطلاق الأسماء. ولكن آدم شعر بالوحدة، ولذا فإن الله خلق له رفيقاً أنثويّاً من أحد أضلاعه.» فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ في نَوْم عَميقٍ، ثُمَّ تَنَاوَلَ ضِلْعاً مِنْ أَضْلاعِهِ وَسَدَّ مَكَانَهَا بِاللَّحْمِ، وَعَمِلَ مِنْ هَذِهِ الضِّلْعِ امْرَأَةً أَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. فَقَالَ آدَمُ:=

لقد شدَّدت البروتستنتية على الدوام على الدراسة الشخصية للكتاب المقدَّس، وعلى الخلاص بالإيمان، وليس بواسطة القدّيسين أو تفسيرات القساوسة – ومن المتوقَّع للحرفيّة أن تظهر في ظل هذه ظروفٍ كهذه. ولكن الغالبية العظمى من البروتستنتيين في العصر الحديث يرفضون قراءةِ نصوصهم المقدَّسة على هذا النحو المتزمِّت – لا سيّما في الدول الأوروبية التي لا تتنوَّع فيها الاتِّجاهات اللبرالية كثيراً. أما البروتستنتية الأمريكية فقد تعدَّدت طوائفها تعدُّداً كبيراً شمل جميع الأطياف الممكنة من المعتقدات وطرق العبادة.

وتنحو الغالبية العظمى منهم بطبيعة الحال نحو القراءة الرمزية الروحية التي يتَّبعها جيرانهم الكاثوليك واليهود.

غير أن عدداً قليلاً من الجماعات التي يقع أكثرها في الجنوب وفي المناطق الريفية والفقيرة، إن شئنا الاستشهاد بالافتراقات الواضحة التي أشرنا لها أعلاه، تمترست ضدَّ «الحداثة» بقراءتها الحرفيَّة التي لا تخضع

= «هَذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. فَهِيَ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِيءٍ أُخِذَتْ»» [تكوين 2: 21-23]. وقراءتنا التقليدية توفِّق بين الصيغتين، وتعتمد التسلسل الأساسي، وتجعل خلق البشر يحدث في الأخير حسبما يرد في الإصحاح الأوَّل، وتأخذ سيناريو الضلع الخاص بخلق حوّاء الذي جرى بعد خلق آدم من الإصحاح الثاني. وكثيراً ما أثير دهشة الناس عندما أنبِّههم إلى هذا التناقض وإلى هذا التوفيق (إذ لم يعد حتى المتديِّنون من الناس يتدبَّرون الكتاب المقدَّس كثيراً في هذه الأيّام). وهم يحسبونني قد جُنِنْت أو أُصِبْتُ بالهلوسة، ولذا فإنني أقول لهم، راجعوا النصّ (إذ لا تزال أغلبية البيوت تحتفظ بالمعلومات الأساسية مهما بلغ من عزوفها عن الكتب!) – ويا للمفاجأة التي تصيبهم! حذارِ إذن مما تظنُّ أنك تعرفه معرفة جيدة. (المؤلِّف) – جميع الاقتباسات من الكتاب المقدَّس مأخوذة من ترجمة كتاب الحياة (المترجم).

للتغيير ولا حتى للمناقشة: «اعطني دين آبائي. كان مناسباً لهم، وهو لا شكَّ يناسبني». (ولست أتناول هنا تقاليد الإسلام والأديان غير الغربية بسبب جهلي الشخصي بها).

وإليكم هذا المثال عن كون الحركة الداعية إلى القراءة الحرفية للكتاب المقدّس حركةً أمريكية الطابع وعن مقدار الحيرة التي يستثيرها الإيمان بقصَّة الخلق الكتابية في بقية العالم الديني؛ فقد أقمتُ يوماً في «كاسا دِلْ كْليرِكو» (قصر الرهبان) في روما، وهو فندقٌ يرعاه الڤاتيكان ليقيم فيه الرهبان المتجوِّلون في العادة. وقد دعتني في أحد الأيام مجموعةٌ من اليسوعيّين الفرنسيين والإيطاليين في قاعة الطعام للانضمام إليهم. وكانوا ينتمون إلى مجموعة من العلماء الممارسين الذين كانوا في زيارة لروما لحضور مؤتمر عن العلم والكنيسة. وكانوا قد قرأوا شيئاً عن تنامي حركة «الخَلْق العلمية» في أمريكا، وهو أمرٌ جعلهم في حيرة من أمرهم. فقد كانوا يحسبون أن التطوُّر قد حاز على قدْر كافٍ من البراهين، ولم يكن يتسبَّب في أيِّ تحدٍّ لعقيدتهم الدينية على أيِّ حال (سواء وفق تفكيرهم هم أو وفق الإعلان البابوي الذي تحدَّثتُ عنه أعلاه). ولذا سألوني عما كان يجري في بلادى، وعمّا إذا ما ظهرت حججٌ علمية مقنعة يثبت بها دعاة قراءة الكتاب المقدَّس قراءة حرفية، لا العلماء المتخصِّصون، أن الأرض ما تزال في شبابها. وهنا انخرطنا في حديث متعدِّد اللغات على مدى نصف الساعة التالي قلتُ لهم في أثنائه إنه لم تظهر ولم توجد أيّ حجج جديدة، وإن القضايا المثارة كانت سياسية

وذات طبيعة أمريكية خالصة، فغادروا مطمئنّين، مع فهم أفضل للُّغز الذي تمثِّله أمريكا لبقية العالم.

مشكلات في البيت: استعراض قانوني موجز من سكوپس[1] إلى سْكالْيا[2]

تعود الحركة الداعية إلى التمسُّك بحرفية القراءة الحرفية للكتاب المقدَّس إلى بدايات تاريخ أمريكا، كما تعود معارضتها لتدريس التطوُّر إلى بدايات الفكر الدارْوِني. ولكن هذه الحركة الهامشية التي لم تحصل على حقوقها السياسية، والتي ظلَّت محصورة في مناطق معيَّنة لم يكن بوسعها الحصول على قوَّة سياسية تمكِّنها من الضغط ضغطاً كافياً لتمرير التشريعات التي تريدها إلى أن قرَّر وِلْيَم جننكَز بْرايَن، وهو من كبار شخصيّات التاريخ الأمريكي، أن يقوم بمحاولته الأخيرة حول هذا الموضوع. فقد أعطى بْرايَن للحركة الداعية لقبول قصَّة الخَلْق الكتابية قدْراً من التأثير وأوصلَها إلى عددٍ من الشخصيّات المهمَّة. وقد سنَّ عددٌ من الولايات الجنوبية في أوائل العقد الثالث من القرن العشرين تشريعاتٍ تعارض نظرية التطوُّر معارضةً صريحةً. فقد جعل قانونُ ولاية تَنِسي مثلاً تدريسَ الفكرة القائلة إن «الإنسان انحدر من جنسٍ أدنى من الحيوانات» جريمة يعاقب عليه القانون.

وقد فوجئ اللبراليّون الأمريكيّون، ومنهم عددٌ كبير من رجال الكنيسة، بذلك وأصابهم الحرج بسبب ما أحرزته الحركة من نجاح

---

(1) انظر المعلومات المفيدة عنه في هذ الموقع: *http://en.wikipedia.org/wiki/Scopes_Trial*

(2) انظر المعلومات المفيدة عنه في هذ الموقع: *http://en.wikipedia.org/wiki/Scalia*

(ولو على الصعيد المحلّي). فما كان من الاتحاد الأمريكي للحرِّيّات المدنيَّة إلاّ أن تحدّى دستوريَّة هذه التشريعات وذلك في المحاكمة الشهيرة التي عُرِفت باسم سكوپْس في مدينة دَيْتن، بولاية تَنِسي، في سنة 1925. وكان جون سكوپْس، (وهو شابٌّ من ذوي التفكير الحرّ، يحبُّه تلاميذه الذين تؤمن أغلبيَّتهم بالقراءة الحرفية للكتاب المقدَّس، مدرِّساً لعلم الفيزياء ومدرِّباً لرياضة الركض في المدرسة الثانوية المحلِّيَّة. وكان قد عمل مدرِّساً بديلاً في علم الأحياء في غياب المدرِّس الأصيل الذي غاب في إجازة مرضية، وكان هذا المدرِّس الأصيل من المؤمنين بحرفية الكتاب المقدَّس). وقد طلب سكوپْس من طلبته دراسة الفصول المتعلّقة بالتطوُّر في كتابهم المقرَّر بعنوان **علم الأحياء المدني** من تأليف جورج وِلْيَم هَنْتَر. ووافق سكوپْس على أن يُستَخدَم كما تُستَخدَم الخنازير الغينية في التجارب العلمية أو كما تُستَخدَم خيول التعمية[1] (اخترْ ما يروق لك من الاستعارات الحيوانية) للتقدُّم بتحدٍّ لدستورية التشريعات التي كانت ولاية تَنِسي قد سنّتْها مؤخَّراً ضدَّ تدريس نظرية التطوُّر – وقد أصبحت بقيَّة القصَّة مُلْكاً للتاريخ، وهو بالنسبة لمعظم الأمريكيين تاريخٌ عُدِّل وشُوِّه في طريقة عرضه في المسرحية الرائعة المعنونة «**خذ من الريح إرثاً**»، التي كتبها في سنة 1966 كلٌّ من جيروم لورنس وروبِرْت إِدْوِن لي، وقام بتمثيلها نَفَرٌ من أفضل الممثِّلين في أمريكا بعدَّة صِيغ. (وقد كان من حسن طالعي عندما كنت في العقد الثاني من عمري أن أشاهد الممثِّل

(1) حصان التعمية كنايةٌ في حقل السياسة الأمريكية تدلُّ على شخص يقول في الانتخابات إنه يريد الحلول محلَّ رئيسه، ولكنه في الواقع يمهِّد الطريق إلى شخصية أخرى أوفر منه حظّاً.

پول موني في أواخر حياته في التمثيل وهو يقوم بدور كلارِنْس دارو في الصيغة الأصلية التي مُثِّلَتْ في بْرودْوَيْ، مع الممثِّل إدْ بكلي الذي لا يقلُّ عنه إثارة للإعجاب في دور وِلْيَم جننكز بْرايَن. كما عُمِلَ فلمان قام بالتمثيل فيهما ممثِّلون بالدرجة نفسها من الإجادة، أدّى دَوْرَ دارُو في أوَّلِهما سپنسر تْرَيْسي ،وأدّى فْرِدْرِك مارْچ دَوْرَ بْرايَن، وأدّى كيرْك دُگلس في الصيغة الثانية التي عُمِلَتْ للتلفزيون دَوْرَ دارُو، بينما أدّى جَيْسن روباردْز دَوْرَ بْرايَن).

لم يتعرَّض سكوپْس للاضطهاد على يد الملوِّحين بالكتاب المقدَّس، على عكس ما تقوله المسرحية، ولم يقضِ في السجن لحظة واحدة. لكنَّ المحاكمة حصلت على لحظتها الملحمية – لا سيَّما عندما ضمَّن بْرايَن كلمته الرئيسة ما يُفهَم منه أنه إنكار لكون البشر من اللبونات، وكذلك عندما جمع القاضي رولْسْتن هيئة المحكمة في العراء على قطعة الأرض المزروعة بالعشب (لأن درجة الحرارة كانت قد زادت عن المئة [حسب مقياس فهرنهايت] ولأن الشقوق أخذت تظهر في سقف القاعة الواقعة أسفل قاعة المحكمة المكتظَّة) وسمح لدارُو بوضع بْرايَن على المنصَّة ليشهد إلى جانب الدِّفاع. غير أن القراءة المعتادة للمحاكمة على أنها صراعٌ ملحميٌّ بين التخلُّف الظلامي والفضيلة البهية لا يمكن أن تكون مقنعةً، رغم الدعم الذي تلقَّته من مسرحيَّة **خذ من الريح إرثاً** ومن طريقة هـ. ل. مِنْكِن، الذي حضر المحاكمة، في كتابة تقاريره الصحفية الشهيرة عنها، والذي لم يُبْدِ كثيراً من الاحترام لِبْرايَن عندما دعاه «بالبابا الفارغ

في حزام الكوكا كولا».

استُخدِمَ سكوپْس لأداء وظيفة معيَّنة - استخدَمَه كلٌّ من الاتِّحاد الأمريكي للحرِّيّات المدنية والمؤمنون بحرفية الكتاب المقدَّس في دَيْتن، الذين رأوا في المحاكمة مناسبةً لوضع مدينتهم الصغيرة على الخارطة - ولم يتعرَّض للاضطهاد بأيِّ شكل من الأشكال. كلُّ ما أراده الاتِّحادُ الأمريكيُّ للحرِّيّات المدنية هو إصدار حكم سريع في القضية، وليس سِركاً تستخدمه وسائل الإعلام. (بدأ البثُّ الإذاعي المباشر مع محاكمة سكوپْس، ولذا فإن تلك المحاكمة يمكن وصفها بأنها بدأت حركةً أدَّى مسارُها إلى بثِّ محاكمة أو. جَي. سمپسن[1] وغير ذلك من البرامج المسلِّية الباذخة ذات القيمة المشكوك فيها). ولم يكن بوسع القاضي المحلّي أن يفتي في دستورية التشريع، ولذلك فإن الاتِّحاد الأمريكي للحرِّيّات المدنية طلب إصدار حكمٍ صريح بالإدانة، يمكن استئنافه لدى محكمة أعلى. ولربَّما كانت شخصية كلارنس دارو محبَّبة لأعضاء الاتحاد، ولكن لا شكَّ في أنهم لم يكونوا يريدونه في دَيْتن. ولكن إعلان بْرايَن أنه سيدلي بشهادته لصالح ولاية تَنِسي لطرد الشيطان من دَيْتن جعلهم يقبلون عرض دارو المقابل بلا تردُّد.

(1) اتُّهم أو. جَي. سمپسن *O.J. Simpson* لاعب كرة القدم الأمريكية بقتل زوجته نيكول وصديقها رونَلْد گولدْمَن في سنة 1994، فحوكِمَ محاكمةً شغلت وسائل الإعلام لمدَّة طويلة إلى أن صدر الحكم ببراءته في سنة 1995. وقد أحدث الحكم بالبراءة ضجَّة كبيرة عندما صدر. (يُخاطبه الناس بالحرفين O.J. كما لو أنهما اسمه الأوَّل، وقليلٌ منهم يعرف أن الحرفين يختصران كلمتي أورنثال جيمز).

وقد رُوِيت الوقائع الأساسية رواية حسنة، ولكن النتيجة أُسيء فهمُها على الدوام تقريباً. فقد أتى دارو فعلاً بعددٍ من العلماء البارزين للإدلاء بشهاداتهم، ورفض القاضي فعلاً أن يسمح لهم بالوقوف على منصَّة الشهادة. وهو بعمله ذاك لم يكن يتصرَّف كما يتصرَّف الجِلْفُ الريفيُّ، بل كان يُصدِر حكماً صحيحاً مؤدّاه أن محكمته لا يمكنها الحكم بتجريم سكوپْس أو تبرئته إلاّ في ظلِّ قانون معيَّن – وأن سكوپْس كان مذنباً وفق مذكِّرة الاتّهام – ولا يمكن لمحكمته الحكم بمشروعية القانون نفسه أو دستوريته. ولذا فإن شهادة الخبراء عن صحة نظرية التطوُّر أو أهميتها لا تمتُّ لموضوع المحاكمة بصلة. لكن المؤرِّخين في هذا السياق لم يتمكَّنوا منذ ذلك التاريخ أن يفهموا السبب الذي جعل القاضي رولْستن يسمح لِبْرايَن بالإدلاء بشهادته بوصفه خبيراً للطرف الآخر. غير أن هذه الحادثة الشهيرة أسيء فهمها هي أيضاً؛ فقد أمر القاضي، من ناحية، بحذف هذه الشهادة بكاملها من سجلِّ المحكمة. ولربما تقدَّم دارو من الناحية الثانية على غريمه إلى حدٍّ ما ، ولكنَّ بْرايَن نجح في تفادي محاولاته الهجومية، ولم يتسبَّب لنفسه بالإحراج. أما أشهر اللحظات – وهي تلك التي قيل إن دارو أجبر بْرايَن فيها على التسليم بأن أيّام الخَلْق لا بدَّ أنها كانت أطولَ من أربعٍ وعشرين ساعة – فهي تلك التي عبَّر فيها بْرايَن بكامل إرادته عن معتقداته الشخصيَّة المعروفة (وهي أنه لم يكن من المتشدِّدين فيما يخصُّ القراءة الحرفية للكتاب المقدَّس)[1]، تعبيراً لا

(1) أحسب أن المؤلِّف يشير إلى الإجابة التي أعطيت ردّاً على سؤال دارو عمّا إذا كان بْرايَن يؤمن بضرورة تفسير كلِّ ما يرد في الكتاب المقدَّس تفسيراً حرفيّاً. فقد ردّ بْرايَن على=

يشكِّل تناقضاً خطيراً كشفته أسئلة دارو المتلاحقة.

وعلينا الآن أن نصحِّح الحادثة الشهيرة الأخرى المتعلِّقة بالمحاكمة، وأن نقول إن بْرايَن قد خرَّ ميِّتاً بالسكتة القلبية في دَيْتن - ليس على نحوٍ مثيرٍ في قاعة المحكمة (كما تتطلَّب القصص الدرامية لإحداث أشدِّ أثرٍ ممكن)، بل بعد المحاكمة بأسبوع، بعد أن حشا بطنه بعشاء أعدَّته الكنيسة. غير أن أهمَّ سوء فهمٍ حصل يتَّصل بالحكم الذي صدر في القضية، وبالتطوُّرات التي حدثت لمذهب المتمسِّكين بقصَّة الخلْق الكتابية. فمسرحية **خذ من الريح إرثاً** تروي قصَّة البحث الحرّ وقد انتصر على التعصُّب المذهبي. وإذا ما نظرنا إلى محاكمة سكوپْس من وجهة نظر العلاقات العامَّة فإنها قد تُقرأ على أنها انتصارٌ لنا. ولكن النتائج القانونية ما كان يمكن لها أن تؤول إلى أسوأ مما آلت إليه، فقد أُدين سكوپْس طبعاً - ولم يكن ذلك مفاجئاً. ولكن القضية وُصِفَتْ فيما بعد بأنها غير قابلة للحلّ، ولذلك فإنها غير قابلة للاستئناف، بسبب خطأٍ ارتكبه القاضي عندما حكم على سكوپْس بدفع غرامة مقدارها مئة دولار (كما نصَّ القانون المتعلِّق بقصَّة الخلق الكتابية)، بينما كان قانون ولاية تَنِسي يفرض أن تبتَّ هيئة محلَّفين في كلِّ غرامة تتجاوز الخمسين

= ذلك السؤال بقوله: «أعتقد أن علينا أن نؤمن بكلِّ شيء في الكتاب كما ورد. لكنَّ بعض ما يَرِدُ فيه يَرِدُ من باب التمثيل. أنا لا اصرُّ مثلاً على القول، عندما أجد عبارة تقول «أنتم ملحُ الأرض» [متى 5: 13] أن الإنسان خُلِقَ من الملح أو أن لحمه من الملح، ولكن العبارة تدلّ على خلاص شعب الله». وربما شكَّل هذا القول - فيما يقول الموقع الذي أورد هذا الجانب من المحاكمة - نقطة التحوُّل فيها. انظر *http://en.wikipedia.org/wiki/Clarence_Darrow*

دولاراً. (لربما لم تكن المدن الصغيرة الناعسة من أمثال مدينة دَيْتن تُغرِّم أحداً أكثر من خمسين دولاراً مهما كان الذَّنْب، لكن القاضي نسي هذه المعلومة من القانون الذي لم يكن يطبَّق). غير أن هذا الخطأ يعطينا درساً قيِّما مفادُه ألاّ نستخدم «مثيرين للقلاقل» من أمثال دارو للمرافعة في قضيَّة محلِّيَّة. فقد كان الفريق «المتميِّز» المساند للمشتكي مكوَّناً من دارو رئيساً والمحامي النيويوركي دَدْلي فيلْدْ مَلُون فقط، ولم يكن يضمُّ أحداً له معرفة محلِّيَّة تكفي لأن يعترض على القاضي لضمان اتِّباع الإجراءات السليمة.

وهكذا أُبطِلَتْ إدانة سكوپْس بسبب خطأٍ فنّي - وهذه نتيجة صُوِّرت على أنها نصر، ولكنها كانت في الواقع هزيمةً إجرائيةً مريرةً وقفت في طريق الهدف من المسعى بكامله: وهو اختبار دستورية القانون. فقد كان من الضروري لكي تصل القضية إلى محكمةٍ مناسبَةٍ أعلى أن تبدأ ثانية، وأن تُعاد محاكمة سكوپْس. ولكنْ لم يكن بالإمكان إرجاعُ عجلة التاريخ، فبْرايَن كان قد تُوفِّي، وكان سكوپْس قد التحق بكلِّية الدراسات العليا بجامعة شيكاغو لدراسة علم الجيولوجيا، ولم يعد راغباً في العودة إلى هذا الجانب من حياته. (أصبح سكوپْس فيما بعد جيولوجياً ناجحاً في مجال النفط في شريڤبورت بولاية لُويزِيانا - وهو رجل رائع في تواضعه ونُبل شخصيته، ولم يسعَ مطلقاً لكسب المال من تلك الحادثة التي جلبت له شهرةً عرضيةً عابرةً، وظلَّ ثابتاً في دفاعه عن حرِّيَّة البحث وعن حقوق المعلِّمين).

وهكذا بقي قانون ولاية تَنِسي (والقوانين المماثلة في بعض الولايات الأخرى) سلاحاً مُسَلَّطاً على تدريس علم الأحياء تدريساً صحيحاً وإن لم يجرِ تطبيقه تطبيقاً فعّالاً. ولذا فإن ناشري الكتب المدرسية، وهم أشدُّ الناشرين جُبناً، خنعوا، وإما حذفوا موضوع التطوُّر أو تناولوه في فصل صغير في آخر الكتاب. وبحوزتي نسخةٌ من الكتاب المقرَّر الذي استعملتُه في مدرسة ثانوية من مدارس مدينة نيويورك، ينتمي طلبتها إلى مجتمعٍ لبرالي لا يرى أن في تدريس نظرية التطوُّر ما يُضير. والكتاب هو **علم الأحياء الحديث** من تأليف مون ومان وأوتو. وقد هيمن هذا الكتاب على السوق ودرسه أكثر من نصف طلبة المدارس الثانوية في أمريكا. وقد خَصَّص الكتاب 18 صفحة من صفحاته التي تبلغ 662 صفحة – وهي تشكِّل صفحات الفصل 58 من فصول الكتاب الستّين. (ولن يخفى على كثيرٍ من القرّاء، عندما يتذكَّرون واقع المدارس الثانوية، أن معظم الصفوف لم تصل إلى هذا الفصل من الكتاب أبداً). أضف إلى ذلك أن الكتاب لا يذكر الكلمة الرهيبة (Evolution) أبداً، بل يشير إلى نظرية دارْوِن بعبارة «فرضية الـ racial development».[1] أمّا الطبعة الأولى من هذا الكتاب، وهي طبعة صدرت في سنة 1921، أي

[1] لجأ المؤلِّف إلى عادة الكتّاب الأمريكيين في تحاشي كتابة الكلمات القبيحة كاملةً والاكتفاء بحرفها الأوَّل أو الأوَّل والأخير، ولذا فإنه كتب الاختصار «E» بدلاً من *Evolution* (التطوُّر) كما لو أنها من فئة الكلمات القبيحة. أما العبارة البديلة في الكتاب المقرَّر لمصطلح دارْوِن فتتحاشى الكلمة وتستخدم بدلاً منها كلمة *development* التي تعني التطوُّر أيضاً، ولكنها تشوِّه المفهوم عندما تجعله *racial development* أي «التطوُّر العرقي».

قبل محاكمة سكوپْس، فقد زَيَّنَتْ صفحتَها الأولى بصورة دارْوِن (بينما وَضَعَت طبعةُ سنة 1956 التي أملكها صورةً لمجموعة من حيوانات القندس النشيطة مكانَ صورةِ أشهرِ عالمٍ من علماء الطبيعة). وقد ضمَّت تلك الطبعة عدة فصولٍ تتناول نظَّرية التطوُّر بوصفها حقيقةً ثَبَتَتْ، وبوصفها الفكرة الرئيسة التي تربط علوم الحياة جميعها.

استمرَّ الوضع المؤسف على هذا الحال حتّى سنة 1968، عندما تحدَّت سوزان إپرسن، وهي معلِّمة شجاعة من ولاية آركنسو، قانوناً مشابهاً لدى المحكمة العليا فكسبت الحكم بعدم الدستورية الذي انتظرناه طويلاً استناداً إلى أحكام التعديل الأوَّل. (اقتربَتْ امرأة لطيفة مني بعد كلمة ألقيتُها في دنڤر في العام المنصرم، وشكرتني على جهودي في محاربة قصَّة الخَلْق الكتابية، وقدَّمتْ لي نفسها قائلة إنها سوزان إپرسن. كانت قد حضرت المحاضرة مع ابنتها التي جَنَت ثمار شجاعة والدتها عندما تخصَّصت في دراستها العليا في علم الأحياء التطوُّري. ولم يكن بوسعي أن أقول شيئاً سوى أن الشكر يجب أن يوجَّه لها هي).

ولكنَّ المؤمن الصادق لن يوقفَه شيء. فقد أعاد المؤمنون بقصَّة الخلق الكتابية تجميع صفوفهم وعادوا للقتال باستراتيجية جديدة قصدوا منها تحاشي الصدام مع الدستور. فقد ظلّوا يقولون صادقين إن نظامهم الفكريَّ البديل نظامٌ لاهوتيٌّ يستند إلى القراءة الحرفية للكتاب المقدَّس. أما الآن فقد أعادوا تحرير نصوصهم وابتدعوا مفهوماً يتَّصف بالمفارقة هو «علم الخَلْق». إذ يبدو أن الدّين الآن لا علاقة له بالموضوع على

الإطلاق – خلافاً لكلِّ الأقوال السابقة. فآخر مكتشفات العلم الخالص تكشف –فيما يقولون – عن عالَم حقيقيٍّ صَدَفَ أنه يتطابق مع الأقوال الحرفية التي ترد في سفر التكوين. وإذا ما كان هذا الرأي في نظر العلماء الذين تلقّوا تدريباً مهنيّاً نوعاً من الهذر يقوم إمّا على الجهل أو على الكذب الصراح، فإن النتيجة الوحيدة التي يمكن أن نخلص إليها هي أن مؤهِّلات أصحاب هذا العلم لا يعرفون شيئاً عن آخر مكتشفات موضوعهم. وفي هذه الأحوال يصبح تدخُّل القانون ضروريّاً. ثمّ يتابع هؤلاء «الخَلْقيّون» عرض موقفهم بالقول: نحن لا نطالب المدارس بمنع تدريس نظرية التطوُّر (فقد كان الحكم الذي استصدرته إيرسن قد جعل ذلك مستحيلاً). كلُّ ما نطالب به هو أن نُعطى «وقتاً مساوياً» «لعلم الخَلْق» في أيِّ صفٍّ تُدَرَّس فيه نظريَّة التطوُّر. (وإذا ما توقَّفوا عن تدريسها، فلكلٍّ حادث حديث).

ولكن مهما بلغ من سخافة حجَّتهم، ومن وضوح سعيهم وراء مصلحتهم في إخفاء هدفهم الحقيقي (ألا وهو فرض معتقدهم اللاهوتي) بلغة جديدة يمكن أن تفلت من الحواجز الدستورية فقد سنَّت ولايتان هما آركنسو ولُويزِيانا في أواخر السبعينات قانونين متطابقين تقريباً يقضيان بإعطاء الفريقين «وقتاً متساوياً». وقد اعترض تجمُّعٌ من الاتِّحاد الأمريكي للحرِّيّات المدنيَّة ومن كثير من المنظمات المهنيَّة، العلمية والدينية، على التشريع الذي سنَّتْه ولاية آركنسو، في محاكمةٍ وُفِّقت الصحافة في تسميتها «سكوبْس 2» أمام القاضي الفدرالي

وِلْيَم ر. أوڤرتن في مدينة لِتِلْ رُك في شهر كانون الأوَّل من سنة 1981. وقد قضى القاضي أوڤرتن في كانون الثاني من سنة 1982 بأن التشريع الذي سنّته ولاية آركنسو القاضي بتخصيص وقتٍ متساوٍ للجانبين غير دستوري، وذلك في قرارٍ أجاد في صياغته وفُسِّر فيه جوهرُ العلم والدورُ الصحيح للدّين تفسيراً بلغ من جودته أن مجلَّة *Science* (العلم)، وهي مجلّتنا العلمية الرائدة، نشرت نصَّ القرار بحذافيره.

وقد قرَّرت ولاية آركنسو بقيادة حاكمها اللبرالي بِلْ كْلِنْتن عدم استئناف القرار. ثم أبطل قاضٍ فدراليٌّ ثانٍ قانون ولاية لويزيانا المشابه له إلى درجة كبيرة، وذلك في قرار مختصر قال فيه إن القضية قد بُتَّ فيها على نحوٍ قطعيٍّ في ولاية آركنسو. غير أن ولاية لُويزِيانا استأنفت القرار لدى المحكمة العليا في الولايات المتَّحدة في القضية المعروفة باسم إدْوَرْدْز ضدّ أگولارد، فكسبنا في سنة 1987نصراً نهائيّاً مؤثَّلاً بأغلبية سبعة إلى اثنين هما (كما توقَّعنا) صوت القاضي رِنْكْوِسْت والقاضي سكاليا (وأما القاضي تومَس، وهو الذي كان سيصوِّت إلى جانب هذين الاثنين لو عُرِضَت القضية للتصويت في هذه الأيام فلم يكن قد التحق بالمحكمة بعد).

كنتُ قد أدليْتُ بشهادتي في محاكمة آركنسو بصفتي أحد «الشهود الستة من ذوي الخبرة» في علم الأحياء والفلسفة والعلم واللاهوت – وقد تركَّزت الأسئلة الموجَّهة لي حول التشويه الذي يتسبَّب به المتمسِّكون بقصة الخَلْق الكتابية لجهود العلم الخاصَّة بالزمن الجيولوجي

والإثباتات الخاصَّة بالتطوُّر في الأحافير المكتشفة، بينما افتقرت الأسئلة التي وجَّهها لي المدافعون عن القانون إلى الحماس. (أدّى المدَّعي العام لولاية آركنسو عملَه بقدرة وكفاية، تلبيةً لواجبه الوظيفي الذي يفرض عليه الدفاع عن قانونٍ كان في نظره سخيفاً ومخجلاً لولايته، ولكنه لم يكن متحمِّساً للقضية).

وبالمناسبة، لم تحاول مجموعتنا أن تثبت نظرية التطوُّر في شهاداتها. فقاعات المحاكم ليست هي الأمكنة المناسبة للبحث في قضايا تنتمي إلى حقل العلم. وما فعلناه هو أننا ركَّزنا جهودنا لمواجهة القضية القانونية المعروضة علينا، لنثبت، بالعودة إلى نصوص أصحاب «علم الخَلْق» وأنشطتهم الأخرى، أن ذلك لم يكن سوى وسيلة لذرِّ الرّماد في العيون، وأن عبارة «علم الخَلْق» متناقضة لا معنى لها ابتُدِعت لتغطية ذئب الحَرْفية في قراءة سفر التكوين بصوف الخروف، تلك الحَرفْية التي تبيَّن من قضية إيرسن أنها مذهبٌ لاهوتيٌّ متحزِّب، وليست مفهوما علميّاً على الإطلاق، وأنها تشكِّل خرقاً للتعديل الأوَّل الذي يضمن فصل الدّين عن الدولة إذا ما فُرضت بأمرٍ تشريعيٍّ على مناهج العلوم في المدارس الحكومية.

لا أستطيع الادِّعاء أن المحاكمة سبَّبت لي توتُّراً خاصّاً في حياتي. فلم تكن النتيجة موضع شكّ، وأقمنا احتفالنا بالنصر في اليوم الثاني من المحاكمة التي استغرقت أسبوعين. والتشكّيك بالطبيعة البشرية ليس من طبعي، وأتوقَّع أنني إذا ما أتى يومٌ أكون فيه مستعدّاً لأن أنشد *Nunc*

Dimittis[1]، أو بالأحرى *Sh'ma Yisroel*[2]، فإنني سأذكر من بين أسباب فخري انضمامي إلى مجموعة من العلماء قدَّمت شهادتها الوحيدة أمام محكمة في هذه الحادثة المثيرة للاهتمام في تاريخ الثقافة الأمريكية – أقصد المعركة القانونية حول قصّة الخَلْق الكتابية التي اشتعلت منذ محاكمة سكوپْس في سنة 1925 إلى قضية إِدْوَرْدْز ضدَ أكَولارد في سنة 1987. (لم يسمح القاضي رولْسْتن لخبراء دارو بالإدلاء بشهاداتهم في محاكمة سكوپْس، وأُلغي قانون لُويزِيانا بقرارٍ مختصرٍ، ولم يصل مرحلة العرض على المحكمة. والحجج التي تُلقى مواجهةً في المحكمة العليا لا تمتدُّ لأكثر من ساعة ولا تشمل شهوداً). وكان أدائي لدورٍ صغير في تلك القصَّة التاريخية التي كان من أبطالها العملاقان بْراين ودارو شرفاً عظيماً لي ومصدر غبطة عارمة.

قد يمكن القول إن محاكمة آركنسو لم تكن على درجة كبيرة من الصعوبة، ولكنَّ أحداثاً كثيرة حدثت، بعضُها مضحكٌ وبعضُها الآخرُ جادّ، ما تزال تبدو لي مليئة بالعبر. وسأستشهد للتمثيل على النوع الأوَّل بحادثتين أثيرتين لديّ، أذكر في الأولى منهما شهادة معلّمٍ للصفِّ الثاني الابتدائي وصف تمريناً يستعمله لتوصيل فكرة عمر الأرضِ الهائل

---

(1) هاتان هما الكلمتان الأوليان باللاتينية من آخر صلاةٍ تؤدّى ليلاً من الصلوات اليومية عند معظم الطوائف المسيحية. وهما مأخوذتان من إنجيل لوقا 2: 29 - 31. والترجمة العربية للجملة التي ترد هاتان الكلمتان فيها هي: «أيُّها السيِّدُ، الآن تُطلِقُ عبدَك بسلامٍ حسب وعدِك» (ترجمة كتاب الحياة).

(2) هاتان هما الكلمتان الأوليان لأحد أجزاء التوراة بالعبرية، وترجمتهما هي: «اسمعي يا إسرائيل».

لتلاميذه: يمدُّ خيطاً على طول الغرفة ثمَّ يجعل بعض الطلبة يقفون على أبعادٍ مناسبة للدلالة على بدء الحياة، ثمَّ موت الداينصورات، فظهور البشر قربَ نهاية الخيط إلى جانب الحائط. فسأله مساعد المدَّعي العام سؤالاً ندم عليه فيما بعد: ماذا كنتَ ستفعل في ظلِّ قانون الوقت المتساوي لتمثيل الرأي الآخر القائل إن عمر الأرض لا يتجاوز العشرة آلاف سنة؟ فأجاب المعلِّم: «أحسب أنني سأضطرّ لاستعمال خيطٍ أقصر». وهنا ضجَّت قاعة المحكمة بالضحك، وكان الدافع لهم جميعاً من غير شك تلك الصورة التي ارتسمت في ذهني: صورة التلاميذ الإثنين والعشرين من تلاميذ الصفّ الثاني الابتدائي وقد حُشروا جميعاً في مليمترٍ واحد.

أما الحادثة الثانية فقد بلغ من جهل الجانب المؤيِّد لقصَّة الخَلْق الكتابية بموضوع التطوُّر فيها أنهم جاؤوا بعالِمٍ يستحقُّ الاحترام من سْري لانكا اسمه چانْدْرا وِكْراماسِنْغ صادف أنَّه يختلف مع النظرية الدارْوِنيَّة (ولكنه لا يعارض نظرية التطوُّر، ويختلف مع أصحاب الرأي القائل إن الأرض ما تزال في مقتبل عمرها – وهذان فرقان يبدو أنهما غابا عن أذهان مفكِّري هذا الفريق). فقد سأله محاميهم: «ما رأيك في نظرية دارْوِن؟» فأجاب وِكْراماسِنْغ بطريقة بني وطنه في نطق اللغة الإنكَليزية: *Nonsense* («هُراء»). ثمَّ سأله محامينا عندما جاء دورُه لتوجيه الأسئلة: «وما رأيك في الفكرة القائلة إن عمر الأرض لا يزيد عن عشرة آلاف سنة»؟ فأجاب باختصار: *Worse nonsese*

(«هُراءٌ أسوأ»).

وفي رحلة العودة بالطائرة نهضتُ من مقعدي لأمدِّد ساقيَّ (بل لأتبوَّل إن أردتم الحقيقة)، فأوقفني شخصٌ شكلُه مألوفٌ لديَّ يجلس في المقعد المحاذي للممرّ في مقاعد الدرجة الثانية وقال لي باللهجة المحلِّيَّة: «أريد أن أشكرك يا سيد گولد لتجشُّمك عناء السفر جنوباً لمساعدتنا في إيجاد حلٍّ لمشكلتنا الصغيرة.» فأجبته قائلاً: «أنا مسرور بذلك، ولكن ما سببُ اهتمامك بالقضية؟ هل أنت عالِم؟» فضحك وأنكر أنه عالِم. فتابعت كلامي وقلت: «هل أنت رجل أعمال؟» فقال أخيراً: «لا، كنت في السابق حاكماً للولاية. لو بقيت في منصبي لاستعملت حقَّ االنقض ضدَّ ذلك القانون». كنتُ أتكلَّم مع بِلْ كْلِنْتن. فمن المصادفات التاريخية الغريبة التي سمحت لهذه المسرحية بالمضيِّ إلى آخرها عند المحكمة العليا أن كْلِنْتن كان قد بالغ في الثقة بنفسه بوصفه شابّاً تبوَّأ منصب الحاكم أنه لم يشنَّ حملة انتخابية تكفي لإعادة انتخابه في سنة 1980 – وكان ذلك خطأً لم يكرِّرْه فيما بعد إلى أن وصل إلى رئاسة الولايات المتَّحدة. وكان القانونُ الخاصُّ بقصَّة الخَلْق الكتابية، وهو قانون كان كْلِنْتن سيستعمل حقَّ النقض ضدَّه، قد أُقِرَّ في الفترة التي لم يكن فيها حاكماً وصادق عليه حاكمٌ أشدُّ منه محافظة.

ولكنَّ تلك اللحظات الطريفة تقابلها لحظاتٌ جادَّة مؤثِّرة في المحاكمة نفسها – ربّما كان أشدَّها أثراً في النفس ذلك الإباءُ الذي أبداه المعلِّمون الملتزمون بقضيَّتهم عندما شهدوا بأنهم سوف لن يتمكَّنوا من

أداء وظيفتهم المهنية إذا ما أُقِرَّ القانون. فقد أشار أحد المعلِّمين إلى فقرة من كتاب الكيمياء تحدَّثت عن الزمن الطويل الذي تحتاجه الأحافير للتحوُّل إلى وقود. وبما أن قانون آركنسو تضمَّن إشارة إلى «عمر الأرض القصير نسبيّاً» في تعريفات «علم الخَلْق» الذي يراد له أن يحصل على وقتٍ مساوٍ في التدريس فإن هذه الفقرة يجب تغييرها. وقال المعلِّم إنه لا يعرف كيف يُجري ذلك التغيير. فردَّ عليه مساعد المدَّعي العام في استجوابه له: ما السبب؟ كلُّ ما تحتاجه هو أن تضيف للنصِّ جملةً تقول: «إن بعض العلماء يعتقدون بأن الوقود الأحفوري حديثُ العهد نسبيّاً». فأجابه المعلِّم إجابة من أبلغ ما قيل في المحاكمة كلِّها قال فيها: نعم، بإمكاني أن أضيف جملة كهذه في تنفيذٍ آلي للقانون، ولكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك بصفتي معلِّما صادقاً مع نفسه لأن «المعالجة المتوازنة» لا بدَّ أن تعني «التوازن في القيمة»، وعليّ في تلك الحالة أن أعطي مسوِّغات الإضافة، وهذا أمرٌ لا أقدر عليه لأنني لم أسمع بحججٍ مقبولة تدعم مثل هذا الرأي.

وتحدَّث معلِّمٌ آخرُ عن معضلات أخرى يخلقها التناول المتوازن إذا ما طُبِّق حسبما يمليه الضمير، وليس حسبما يمليه القانون. وعندما سُئِلَ عما سيفعله إذا ما أُقِرَّ القانون نظر إلى الأعلى وقال بصوتٍ هادئٍ مفعم بالوقار: سأشعر بالمَيْل إلى عدم الإذعان. أنا لستُ ثوريّاً ولا أسعى لأن أكون شهيداً، ولكنني أشعر بالمسؤولية تجاه تلامذتي، ولا أستطيع التخلّي عنها.

أما وقد أيقظتني هذه الحادثة ذات النغمة الجادَّة من عالم الذكريات فإنني أدرك أنني بالغتُ في السرور بما حدث. نعم، لقد كسبنا نصراً محدوداً في مواجهة معيَّنة بعد ستّين سنة من الصراع: إذ لم يعد بإمكان المعتقدين بحرفيَّة قصَّة الخَلْق الكتابية أن يحقِّقوا أهدافهم عن طريق التشريع الرسمي. ولكن لن يستسلم هؤلاء المتعصِّبون الملتزمون بقضيَّتهم، الذين يتلقّون دعماً ماليّاً كبيراً. لقد غيَّروا أساليبهم وأخذوا يلجأون إلى استراتيجيّات فعّالة لا يمكن ردعها قانونيّاً. فهم يواصلون الضغط على الناشرين لكي يحذفوا الفصول التي تتناول التطوُّر أو لكي يُضعِفوها. (ولكن بوسعنا نحن أيضاً أن نحاربهم بِحَثِّ مجالس المدارس لرفض الكتب الدراسية التي لا تتناول هذا الموضوع الأساسي في علوم الأحياء تناولاً كافياً، وقد فعلنا ذلك على نحوٍ فعّال في مناطق متعدِّدة من البلاد). كذلك فإنهم يتظاهرون أمام مجالس المدارس المحلِّيَّة أو يرشّحون أفراداً منهم في الانتخابات التي لا تستقطب أعداداً كبيرة من الناس ولذلك فإنها قابلة لأن تسيطر عليها أقلِّيَّةٌ ذاتُ قضيَّة معيَّنة تعرف ناخبيها وتستطيع نقلهم إلى مراكز الاقتراع. (ولكن العلماء أناس لهم أبناء هم أيضاً، «والسياسة كلُّها تبدأ على المستوى المحلِّيِّ» كما كان يقول ممثِّلنا السابق في مجلس النوّاب من مدينة كَيمْبْرِج، ماساچوسِتْس).

غير أنهم يستطيعون إثارة «الشوشرة» بصوتٍ عالٍ وبما يقرب من التهديد بأسلوبٍ فعّال تصعُبُ مكافحته لأنه يعمل بخبثٍ، بعيداً عن الأنظار؛ فلسنا كلُّنا، وأغلب المعلَّمين أيضاً، من المتميِّزين في حقل

الشجاعة، ولا نختار أن نكون من الشهداء، إذ مَن منّا يرغب في إثارة المشاكل؟ وإذا ما قال بِلي الصغير لوالديه إنني أدرِّس نظرية التطوُّر فأثارا ضجَّة كبيرة من حولي (لا سيَّما في مناطق معيَّنة من أمريكا حيث الاعتقاد بقصَّة الخَلْق الكتابية اعتقادٌ راسخ) .. ما الذي سيحصل لي، ولعائلتي، ولوظيفتي؟ أليس من الأفضل لي ألا أدرِّس النظرية هذه السنة؟ وماذا يهمني؟ لست بحاجة إلى أيِّ إزعاجات.

وهذا يقودُني إلى تكرار نقطة واضحة أخيرة، وهي أننا نخطئ خطأً جسيماً في تسمية أبطال هذه المعركة عندما نصوِّر الصراع بين نظرية التطور وبين الاعتقاد بقصَّة الخَلْق الكتابية على أنها معركة كبيرة في حربٍ عامَّة بين العلم والدّين، إذ يكاد العلماء وقادة الطوائف الدّينية كلُّهم يقفون في الجانب نفسه ضدَّ الاعتقاد بحرفية القصَّة الكتابيَّة.

والفكرة الأساسية التي تتردَّد في هذا الكتاب تزوِّدنا بالمبدأ المقبول للجميع - أقصد مبدأ الانفصال والدعوة للحوار القائم على التعاون والاحترام بين الحقلين المختلفين اللذّين يحتلُّ كلٌّ منهما قصراً منيفاً من قصور الحياة الإنسانية، ويعمل كلٌّ منهما على أفضل وجه ضمن حدوده، بينما يبدي إعجابه بقصر الجانب الآخر، ويسعد بالصداقة التي تتعزَّز بالزيارات المتبادلة والحوارات المفيدة.

إن المعتقدين بحرفية قصَّة الخَلْق الكتابية لا يمثِّلون حقل الدّين، بل يروِّجون بحماسٍ شديدٍ لمذهب لاهوتيٍّ معيَّن، هو رأيٌ هامشيٌّ من الناحية الفكرية ولا تقبلُ به إلاّ أقلِّيَّة من السكّان تحاول فرضَه على بقيَّة

العالَم. كذلك فإن معلِّمي آركنسو يمثِّلون شيئاً أكبر بكثير من «العلم». فهم يمثِّلون التسامح، والكفاية المهنية، وحرِّية البحث، ويساندون دستور الولايات المتَّحدة – وهذه مجموعةٌ من الأهداف التي تشاركهم في العمل من أجلها الغالبيَّةُ العظمى من العلماء واللاهوتيين في أمريكا الحديثة. والعدوُّ ليس الدِّين، بل التعصُّبُ وعدمُ التسامح، وهذا التعصُّبُ شيءٌ قديمٌ قِدَمَ البشرية، ومن المستحيل مَحْوُه من دون اليقظة الأبدية، وهي الثمن الذي يجب دفعه للحرِّية، كما يَرِدُ في المقولة الشهيرة.(1) ولقد نضحك من حركةٍ هامشيَّة كتلك التي تقول إن الأرض ما تزال في شبابها وتؤمن بالقراءة الحرفية لقصَّة الخَلْق الكتابية، ولكنَّنا نعرِّض أنفسنا للخطر عندما نفعل ذلك لأن التاريخ يعلِّمنا مبدأً يقول إن الشخصيّات التي تستخدم للتعمية وتثير الضحك تتحوَّل إلى شخصيات مخيفة في الظلام إن لم تُكبَح عند البوّابة. ولنعط الكلمة الأخيرة لكْلارِنْس دارو الذي قال في مرافعته الأخيرة في محاكمة سكوپْس في سنة 1925:

إذا أخذتم اليوم شيئاً مثل التطوُّر وجعلتم تعليمه في المدارس الحكومية جريمةً فإن بوسعكم غداً أن تجعلوا تدريسه في المدارس الخاصة جريمةً، وبعد سنة من الزمان ستجعلون تدريسه في الأماكن العامة، ثم في الكنائس جريمةً. وفي الجلسة الآتية قد تمنعون الكتب والصحف... إن الجهل والتعصُّب مشغولان دائما يبحثان عما يتغذّيان به، يتغذّيان دائماً ويبحثان عن المزيد. اليوم عن مدرِّسي المدارس الحكومية، وغداً عن مدرّسي المدارس الخاصَّة. وبعدهم يأتي

(1) يُنسب القول إلى وِنْدِل فلبس (1811–1884).

دور الوعّاظ ثم المحاضرين والمجلاّت والكتب والصحف. وبعد مدة يا سيدي القاضي سوف يسعيان إلى استعداء الإنسان ضدَّ أخيه الإنسان، واستعداء مذهب ضدَّ آخر، إلى أن يجعلانا نمشى مع رفرفة الأعلام وقرع الطبول إلى الوراء، نحو تلك الأيام المجيدة في القرن السادس عندما كان المتعصِّبون يشعلون المشاعل لحرق الرجال الذين زوَّدوا الذهن البشري بالمعرفة والاستنارة والثقافة.

حماسُ وِلْيَم جننگز بْرايَن وعطفُه:
الجانبُ الآخرُ من مبدأ الانفصال

تنتهي القصَّة البطولية المعتادة التي تضع التطوُّر في مواجهة قصَّة الخَلْق الكتابية في أمريكا في القرن العشرين عند هذه النقطة، بعد أن سَرَدَت سجلَّ النجاح القانوني، ونبَّهت إلى ضرورة الحذر في المستقبل، وأكَّدت على المبادئ الفكرية. ولكن لا بدَّ لي من المضيِّ قُدُماً لأنَّ فصلاً مهمّاً من الجانب الآخر يستدعي الانتباه في كتابٍ مُخَصَّص لمبدأ الانفصال، ويروي قصةً يندر أن تُروى ولا يعرفها كثيرون.

تعرض لنا النظرة المعتادة لوِلْيَم جننگز بْرايَن[1] الذي خسر الانتخابات الرئاسيَّة ثلاث مرّات، والخطيب الذي لا يشقُّ له غبار هدفاً سهلاً للساخرين، لا سيَّما أولئك الذين يمثِّلون «المؤسَّسة الفكرية في الشمال الشرقي»،[2] ولم يدرسوا تقاليد التوجُّه المباشر إلى الجماهير الشعبية في غرب الوسط الأمريكي كما يتمثَّل في بْرايَن، الذي عُرِف

(1) أستمدُّ جانباً كبيراً من هذا القسم من مقالة لي بعنوان «آخر حملة شنَّها وِلْيَم جننگز بْرايَن» نُشرَت في كتاب *Bully for Brontosaurus* الذي نشرته دار نورتن للنشر في سنة *1991*. (المؤلِّف)

(2) هذا العداء بين ما يُدعى هنا بالمؤسَّسة الفكرية في الشمال الشرقي وجنوب الولايات المتَّحدة عداء قديم تعود أصوله إلى الحرب الأهلية الأمريكية في القرن التاسع عشر. فالشمال الشرقي من الولايات المتَّحدة يعرف تاريخيّاً بأنه ليبرالي في أمور السياسة والدين والعلاقة ما بين الأعراق، بينما يميل الجنوب وغرب الوسط الأمريكي إلى المحافظة في جميع هذه الأمور.

أيضاً باسم «رجل العامّة العظيم»، وهي تقاليد تختلف تمام الاختلاف عن تقاليد تلك المؤسَّسة. تأمَّل فقط في هذه السخرية التي لا ترحم بقلم هـ. ل. منْكِن الذي راقب بْرايَن عن كثب في محاكمة سكوپْس وكتب عنه الآتي:

كان في يوم من الأيّام قد وضع قدمه في البيت الأبيض، وارتعدت الأمَّة الأمريكية عند سماع زئيره. أما الآن فهو ليس سوى باب من قصديرٍ في حزام الكوكا كولا، وأخٍ لقساوسة يقرِّعون بعض الجَهَلَة في بيوتٍ للعبادة مبنيَّة من الحديد المطليّ بالزِّنْك تقع خلف محطّات القطارات... إنها لمأساة حقّاً أن يبدأ الإنسان بطلاً وأن ينتهي بهلواناً.

يُبْرِز هذا الحُكْم القاسي من منْكِن مفارقةً صارخة. فقد قضى بْرايَن الجانب الأكبر من حياته مُصلحاً شجاعاً وليس متخلِّفاً مشوَّش الذهن. فكيف إذن تحوَّل أعظم الدُّعاة الشعبيّين في أمريكا هذا إلى رجعيٍّ متشدِّد في أواخر حياته؟

فبْراين هو الذي كسب ترشيح الديمقراطيّين لمنصب الرئاسة في سنة 1896، وهو في سنِّ الخامسة والثلاثين، أي في سنٍّ تزيد بسنة واحدة عن الحدّ الأدنى المسموح به لمن يتقدَّمون لذلك المنصب، وذلك على أساس دعوته الشعبية لإلغاء القيمة الذهبية:[1] «لن نسمح لكم بأن تضعوا إكليل الشوك هذا على جبين العمّال. ولن نسمح لكم بصَلْبِ

(1) القيمة الذهبية هي مقدار الذهب الذي تقرِّره الدّولة مقابل الأوراق النقدية التي تصدرها.

البشرية على صليب الذهب هذا». بْراين هذا الذي ترشَّح مرَّتين أخريَيْن وخسر في حملاته النبيلة للإصلاح، ولا سيّما دعوته لاستقلال الفلبين، ضدَّ الإمبريالية الأمريكية؛ بْرايَن هذا الداعي للسلام الذي استقال من منصب وزير الخارجية في حكومة وِلْسن لأنه أراد أن تقف بلادُه على الحياد التام في الحرب العالمية الأولى؛ بْراين هذا الذي وقف في مقدِّمة المدافعين عن أشد القضايا تقدُّميَّة: حقّ الانتخاب للنساء، الاختيار المباشر لأعضاء مجلس الشيوخ، الضريبة التصاعدية على الدخل (التي لا يحبُّها أحد، ولكن هل بوسعكم التفكير في طريقة أعدل؟): كيف يمكن لبْرايَن هذا أن ينضمَّ لقوى تؤمن بحرفية الكتاب المقدّس، وتحاول تخليص الدّين من سعة الصّدْر، وخنق حرِّيَّة الفكر ذاتها التي ساندها في كلِّ تلك السياقات الأخرى؟

لا تزال هذه المفارقة تطلُّ برأسها علينا لأن بْراين ترك لنا أثراً حيّاً (وثَّقه القسم السابق)، وليس مجرَّد قضية ضاعت في ضباب التاريخ. فلولا بْرايَن لما سُنَّت قوانين تناهض نظرية التطوُّر، ولما حدثت محاكمة سكوپْس، ولما انتعشت تلك الحركة المناهضة للتطوُّر في زماننا، ولما صدر قرار المحكمة العليا. أما انتصارات بْرايَن التقدُّمية الأخرى فكانت ستحدث من دونه. لقد حارب بقوَّة وساعد باقتدار، ولكن حتى لو لم يولَد فإن النساء في هذه الأيام كنَّ سيحصلن على حقّ الانتخاب، وسنظلُّ ندفع ضريبة الدخل. أما المحاولة التشريعية لِلَجْم التطوُّر فكانت من بنات أفكاره، وقد تابعها بكل ما عُرِفَ عنه من حماسٍ عارم. إذ لم

يكن ثمَّة من أحد سواه في الحركة الحَرْفية ذات التنظيم السيِّئ راغباً في متابعتها أو متَّصفاً بالمهارة القانونية أو القوَّة السياسية لمتابعتها.

تشكِّل ظاهرة التقلُّب في الولاءات هذه موضوعاً متكرِّراً في الكتابات التي تتناول شخصية بْرايَن. إذ ترى سيرتُه التي نجدها في الموسوعة البريطانية مثلاً أن محاكمة سكوپْس «أثبتت أنها تتعارض والكثير من القضايا التقدُّمية التي ظلَّ يساندها طويلاً».

لقد جرى الحديث عن حلَّين رئيسين، يرى أوَّلهما، وهو رأي الأكثرية، أن معركة بْرايَن الأخيرة كانت تتعارض حقّاً مع حملاته الشعبية التي شنَّها سابقاً. فمن قال إن على المرء أن يحافظ على آيديولوجيَّته طوال سني نُضجه؟

وأيُّ حكايةٍ عن النفس البشرية يمكن أن تكون أشيع من تحوُّل «شيخ الشباب»[1] إلى «شيخ القبيلة»؟[2] تتَّفق معظم السِّيَر التي كُتِبَت عن بْرايَن على أن محاكمة سكوپْس كانت مصدر حَرَجٍ خَرَجَ فيها بْرايَن عن مواقفه المعهودة، وشكَّلتْ له نهاية مضطربة حزينة. والعنوان المتكرِّر للفصل الأخير من كلِّ كتاب كُتِبَ عن بْرايَن يضمُّ إما كلمة «التراجع» أو «الأفول».

أما رأي الأقلِّيَّة، وهو رأي أخذ يحظى بقبولٍ متزايدٍ في كتب السيرة

(1) في الأصل *Young Turk*، والإشارة المباشرة هي إلى تركيا الفتاة، أي إلى الحركة التقدُّمية في تركيا.

(2) في الأصل *Old Fart* والمقابلة بين العبارتين تدلُّ على تحوُّل الشاب التقدُّمي المتحمّس في شبابه إلى رجل محافظ في شيخوخته.

التي ظهرت مؤخَّراً وأرى أنه هو الرأي السديد، فهو أن بْرايَن لم يتحوَّل أو يتراجع، وأنه رأى معركته الأخيرة ضد التطوُّر امتداداً لتفكيره الشعبي الذي ألهم كلَّ ما عمله في حياته. ولكن كيف يمكن أن تعدَّ حركةٌ لمنع تدريس نظرية التطوُّر في المدارس الحكومية حركةً تقدُّميَّة، وكيف ربط بْرايَن جهوده السابقة باستراتيجيَّته الجديدة؟

لقد قام اتِّجاه بْرايَن نحو التطوُّر على خطأٍ مثلَّث. فقد ارتكب الخطأ المعتاد عندما خلط أوّلاً بين حقيقة التطوُّر والتفسير الدارْوِني لآلياته. ثمَّ أساء تفسير الانتخاب الطبيعي كما لو أنه نظرية عسكرية عن البقاء عن طريق تدمير الأعداء. وأخيراً وقع في الخطأ المنطقي المتمثِّل في القول إن الدارْوِنيَّة تعني أن هذا الصراع القاتل يتَّصف بالفضيلة. والخطآن الأوَّلان يمكن النظر إليهما على أنهما سوء فهم بسيط لنظرية تقع في حقل العلم. أما الخطأ الأساسي، وهو مصدر التزام بْرايَن العاطفي والسياسي، فهو خلطُه بين العلم والحقيقة الأخلاقية – وهذا خَرْقٌ لمبدأ الانفصال وأساسُ كلِّ صراعٍ لا ضرورة له بين التطوُّر والأخلاق. فقد قال بْرايَن في كتابه **أمير السلام** (1904):

تصوِّر النظرية الدارْوِنية الإنسان وقد وصل مرحلة كماله الراهنة بفعل قانون الكراهية – ذلك القانون الذي لا يرحم، والذي يزيح فيه القويُّ الضعيفَ ويقضي عليه. وإذا ما كان هذا هو قانون تطوُّرنا فإن أيَّ منطقٍ يُلزم العقل الإنساني بنتائجه يقول إننا سنعود إلى حالتنا الحيوانية بنسبة عودتنا إلى قانون

المحبَّة. وأنا أفضل المحبَّة لا الكراهية قانوناً للتطوُّر.

قال بْرايَن في سنة 1906 لعالِم الاجتماع إ. أ. رُسّ «إن هذا التصوُّر لأصل الإنسان سيضعف قضيَّة الديمقراطية ويقوّي الاعتزاز الطبقي وقوّة الثروة». وقد ظلَّ يردِّد قلقه هذا إلى أن حلَّت الحرب العالمية الأولى، فاستثارته حادثتان ليتصرَّف على نحوٍ محموم؛ فقد عَلِمَ – أوَّلاً – أن هذه النظرة العسكرية للدارْوِنيَّة يستخدِمها أغلبُ المفكِّرين الألمان وأغلبُ زعمائهم العسكريين تسويغاً للحرب والسيطرة في المستقبل. وخشي – ثانياً – أن تؤدّي ظاهرة التشكُّك في داخل الوطن إلى الضعف الأخلاقي في مقابل النَّزعة العسكرية الألمانية.

مَزَجَ بْرايَن هذه المخاوف الجدِّية كلَّها مع شكوكه السابقة في حملةٍ ضدَّ التطوُّر داخل صفوف المدارس. ونحن قد نشكُّ في قوَّة حجَّته، ولكن لا يمكننا أن ننكر أن عواطفه حول هذا الموضوع صدرت عن حماس للقضايا التقدُّميَّة ظلَّ يرافقه طول حياته. تأمَّل النقاط الأساسية الثلاث في حملته وصلتها بماضيه الذي حرص فيه دائماً على التوجُّه للشعب:

(1) حماسه للسلام والتعاطف مع الآخرين ضد النزعة العسكرية والقتل. قال بْرايَن: «علمتُ أن الدارْوِنيَّة شكَّلت أساس ذلك المذهب اللعين القائل إن القوَّة تصنع الحقّ، وهو المذهب الذي انتشر في ألمانيا».

(2) حماسه للإنصاف والعدالة فيما يتعلَّق بالمزارعين والعمّال ضدَّ استغلالهم من أجل الاحتكار وجني الأرباح. فقد قال بْرايَن إن الدارْوِنيَّة أقنعت كثيراً من رجال الأعمال بفضيلة الكسب الشخصي بحيث أصبح لزاماً على الحكومة أن تحمي الضعفاء والفقراء من تفجُّر الانحلال الخلقي المناهض للمسيحية. وكتب يقول:

أصبحت القوانين التي تنصُّ على وجوب خلوّ الأطعمة من الشوائب في الولايات المتَّحدة ضرورية لمنع المصنِّعين من تسميم زبائنهم؛ وأصبحت القوانين التي تنظِّم عمل الأطفال ضرورية لمنع أرباب العمل من تقزيم أجساد الأطفال وعقولهم وأرواحهم؛ وأصبحت القوانين الخاصَّة بمنع الاحتكار ضروريَّة لمنع الشركات المتضخِّمة من خنق المنافسين الصغار، ولا نزال في صراع مميت مع الباحثين عن الكسب السريع والمقامرين بمنتجات المزارع.

(3) حماسُه لحكم رأيِ الأغلبية ضدَّ النُّخَب التي تحاول فرض رأيها، فالإيمان بالمسيحية لا يزال هو الغالب في أمريكا، ولكن التعليم الجامعي أخذ يُضعِف هذا التجانس الذي كان في الماضي يضمن روح التعاطف داخل النظام الديمقراطي. واستشهد بْرايَن بدراساتٍ تُظهِر أن نسبة من تساورهم الشكوك حول الله من بين الطلبة الذكور في السنة الأولى من حياتهم الجامعية لا تتجاوز 15٪، بينما تبلغ نسبة المتشكِّكين منهم عند التخرُّج 40٪. ذلك أن الدارْوِنيَّة ومبدأها المجرَّد من الأخلاق، المفضي إلى سيطرة النخبة الأنانية، هي التي تُذكي هذه

النَّزعة التشكُّكية. وقد تهجَّم بْرايَن على هذا الإضعاف اللئيم للأخلاق على يد أقلِّيَّة من المفكِّرين، وأقسم على محاربة النار بالنار. فإن كانوا يفعلون ما يفعلون داخل الصفوف المدرسيَّة، فإنه سيجابههم بالمثل ويمنع مذهبهم في المدارس الحكومية. فغالبية الأمريكيين لم تكن تقبل نظريَّة التطوُّر الإنساني، ولها الحقُّ الديمقراطي في منع تدريسها.

لا أريد التحدُّث عن هذه النقطة الثالثة. فما يدعو له بْراين يتعلَّق بصميم الحرِّيَّة الأكاديمية، والمسائل العلمية لا تتقرَّر بالأغلبية في جميع الأحوال. كلُّ ما أريد ذكره هو أن بْرايَن قد أخفى حجَّته الغريبة ضمن مفهومه الخاصّ بالتوجُّه نحو الجماهير. فقد كتب يقول:

إن دافعي الضرائب لهم الحقّ في تقرير ما ينبغي تدريسه .. في توجيه من يستخدمونهم معلِّمين وأصحاب سلطة في المدارس، أو أن يفصلوهم من وظائفهم ..فالكلمة التي تكتب صكوك الرواتب هي التي تحكم المدرسة، ولا يحقُّ للمعلِّم أن يعلِّم شيئاً يعترض عليه موظِّفوه.

ولكن ماذا نقول في النقطتين الأوليين حول تأثير الدارْوِنيَّة على النزعة العسكرية وعلى الاستغلال الداخلي؟ قد نرى في دعوى بْرايَن شيئا من الابتذال، ولكن علينا أن نعترف بأنه قد عيَّن شيئاً يدعو للقلق العميق – وأن جانباً من الخطأ يعود إلى خرق العلماء ومريديهم لمبدأ الانفصال.

كثيراً ما قال بْرايَن إن معارضته لنظرية التطوُّر تغيّرت طبيعتها من

مبدأ ترك الأمور تجري على هواها إلى الفعل النشيط لأنه قرأ كتابين هما **ليالي المقرّ الرئيسي** من تأليف ڤيرنُنْ كِلُغْ (1917) و**علم القوّة** من تأليف بِنْجَمِن كِدْ (1918). وقد قرأت هذين الكتابين ووجدتُ أن كلَّ ما فيهما يشدُّ الأعصاب مثلما فعل بْرايَن. كذلك أخذتُ أتفهَّم مخاوفه، بل أتَّفق معه جزئيّاً (رغم اختلافي مع تحليلاته وحلوله بطبيعة الحال).

كان ڤيرنُنْ كِلُغْ عالِمَ حشرات، وربما كان في طليعة مدرِّسي التطوُّر في أمريكا (كان يحمل لقب الأستاذية في جامعة ستانفُرْد، وقد ألَّف كتاب **التطوّر وحياة الحيوان**، وهو أحدُ كتب التدريس الرئيسة، مع أستاذه ديڤد سْتار جوردَن، المتخصِّص في علم الأسماك، ورئيس جامعة سْتانْفُرْد، وألمع تلاميذ دارْوِن في أمريكا). وقد أصبح كِلُغْ في الحرب العالمية الأولى، في الفترة التي كانت أمريكا فيها تحافظ على حيادها الرسمي، موظَّفاً كبيراً في الجهود الدولية غير المنحازة التي كانت تبذل لنجدة بلجيكا، وهي جهود كانت ألمانيا تسمح بها رسمياً. وقد وُضِعَ كِلُغْ بصفته هذه في المقرّ الرئيس لهيئة الأركان الألمانية العليا، وكان الأمريكيَّ الوحيدَ في البناية. وقد أصغى ليلةً بعد ليلةٍ إلى المناقشات التي كانت تجري على مائدة العشاء، بوجود القيصر نفسه أحياناً، بين أعلى قادة ألمانيا العسكريين. ويمثّل كتاب **ليالي المقرّ الرئيسي** رواية كِلُغْ لما كان يجري من مناقشات. كان قد وصل أوروبا وهو يؤمن بالسلام، ولكنه تركها وهو يؤمن بضرورة القضاء على النزعة العسكرية الألمانية بالقوَّة.

كان أشدَّ ما أفزع كِلُغْ تسويغ الحرب والهيمنة الألمانية من جانب هؤلاء الضباط، الذين كان العديد منهم أساتذة جامعات قبل اندلاع الحرب. إذ لم يكتفوا بتقديم تسويغ تطوُّري، بل دعوا أيضاً إلى صيغة فجّة من الانتخاب الطبيعي قالوا إنه معركة دموية لا مفرَّ منها:

ينتمي الأستاذ فون فْلوسِن، شأنُه شأنُ معظم علماء الأحياء والفلاسفة الطبيعيين الألمان، إلى فئة الدارْوِنيين الجدد. ويُعَدُّ مذهب الـ ***Allmacht*** [أي الجَبَروت] الناتج عن انتخابٍ طبيعيٍّ يقوم على التنافس العنيف إنجيلَ المفكِّرين الألمان، وكلُّ ما عداه وهمٌ وكُفر.

.. وهذا الصراع لا يجب أن يمضي في طريقه فقط، فهذا قانونٌ طبيعي، بل يجب أن يمضي بحيث يحقِّق هذا القانون الطبيعي خلاصَ البشرية بطريقته القاسية التي لا محيد عنها... والمجموعة البشرية التي وصلت أعلى مراتب التقدُّم... يجب أن تكسب الصراع من أجل البقاء، ويجب أن يحصل هذا الصراع بحيث تُختَبَر الأنماط المختلفة، فلا يُحْتَفَظُ منها إلا بأفضلها، ليوضع هذا النمط في وضعٍ يمكِّنه من فرض نمطه من التنظيم الاجتماعي – من فرض ثقافته – على الأنماط الأخرى، أو لتدميرها والحلول محلها. هذا هو نمط المناقشات التي تقبض القلب والتي واجهتُها في مقرّ القيادة العليا ... أضفْ إلى ذلك الفرضية القائلة إن الألمان هم العِرق المُختار، وإن النمط المُختار لحياة المجتمع الإنساني هو النظام الاجتماعي والسياسي الألمانيّ، تجدْ أنك تواجه جداراً من المنطق والمعتقدات يمكن أن تكسر عليه رأسك ولكن لا يمكنك تحطيمُه – بالرأس. ستكون بحاجة إلى عضلات شمشون.

لم يجد كِلُغْ في هذا بطبيعة الحال سوى «كلام أكاديميٍّ مُريع... واعتقادٍ بأن الفرد لا قيمة له، وأن الدولة هي كلُّ شيء.» أما بْرايَن فقد جعل تفسيرَه الشاذَّ القائمَ على خرقٍ أساسي لمبدأ الانفصال والشيء نفسه متطابقين، وأكَّد أسوأ مخاوفه حول قوّة التطوُّر الملوِّثة.

وأمّا بِنْجَمِن كِدّ، وهو معلِّقٌ إنكليزيٌّ يحظى بالاحترام داخل المجتمع الأكاديمي وخارجه، فقد كتب عدداً من الكتب الرائجة عمّا تعنيه نظرية التطوُّر، ووضع في كتابه **علم القوَّة**، الذي نُشر في سنة 1918 بعد وفاته، فكرة غريبة استثارت، بطريقتها المختلفة تماماً عن طريقة كِلُغْ، مخاوف بْرايَن. فقد كان كِدّ، المؤمن بالفلسفة المثالية، يرى أن الحياة لا يمكنها أن تتقدَّم إلا برفضها للصراع المادّي والربح الفردي. وقد طابق كِدّ بين الدارْوِنية والسيطرة بالقوَّة، شأنه في ذلك شأن العسكريين الألمان، ولكن بهدف الفضح، لا المديح. قال مثلاً إن الدارْوِنيَّة أحيت أخطر الاتّجاهات البشرية – أحيت الروح الوثنية التي كانت المسيحية قد طمستها بمذهبها الداعي للمحبَّة وإنكار الذات على مدى قرون (وإن لم يكن ذلك على نحوٍ تامٍّ):

تُعَدُّ السيطرة التي حصلت عليها نظريّات أصل الأنواع على عقلية الناس في الغرب من أبرز الأحداث في تاريخ الفكر الإنساني .. فقد حصل مذهب القوَّة في كلِّ ناحية من نواحي الحضارة على تأثيرٍ لا يتصوَّره العقل بوصفه أساس القوَّة الشرعية.. لقد ظل الوثنيُّ الغربيُّ

على مدى قرون يتصارع مع مُثُل دينٍ يأتيه من الماضي يدعو للخضوع وإنكار الذات. وظلَّ على مدى قرون يشعر بضجرٍ لا يحتمل إزاء مُثُلٍ قدَّمتها له كنائس الدين المسيحي .. ولكن كان ثمة أيضاً تصوُّر للحياة حرَّك في أعماقه الإرث الذي ورثه من عصورٍ مضت .. وهذا هو العالَم الذي فهمه سادةُ القوَّة. لقد أخذ قلبُ الغرب يغنّي طرباً بهذه السعادة التي تمثّلت أمامه من الماضي.

قد نستنتج أن بْرايَن كان يمارس، ربَّما من غير وعيٍ منه، اللعبة المعتادة التي يوجَّه اللوم فيها إلى الضحية وذلك في نقده لدارْوِن، أو نظرية الانتخاب الطبيعي، أو حتى نظرية التطوُّر نفسها كما لو أنها المصدر الأكبر للانحطاط في أيّامه. إذ لا يجوز أن يُلامَ مَنْ وَضَعَ النظرية إذا ما أسيء استخدامُها (اللهمَّ إلاّ إذا كان سببُ سوءِ الاستخدام خلطَ واضعِ النظرية أو سوءَ تعبيرِه عنها ومَنَعَهُ اعتدادُه بالنفس من بذل الجهد لتصحيحه؛ فلا تلومنَّ أِلْكْزانْدر گْريم بِلّ إذا ما كادت فاتورةُ تلفون ابنِكَ المراهق تُفْلِسُكَ في العام الماضي). فقد عجز بْرايَن كما لاحظنا سابقاً عن فهم التطوُّر بكلِّ الطرق الممكنة. ولا شكَّ في أنه لم يفهم فكرة دارْوِن الخاصَّة بالانتخاب الطبيعي، الذي لا يشكِّل مبدأً للنصر بالصراع حتّى الموت، بل هو نظرية عن النجاح في التوالد، مهما كانت الطريقة المثلى لتحقيق ذلك في البيئة المحلِّيَّة (بالصراع أحياناً من غير شكٍّ، ولكن بالتعاون في أحيانٍ أخرى). ولكن الأهمّ في سياق هذا الكتاب هو أن بْرايَن لم يستوعب المبدأ الأساسيَّ في فكرة الانفصال،

وهي أن الواقع الملموس لا يمكنه - بغضِّ النظر عن كيفية تشكُّله - أن يُملي الحقيقة الأخلاقية أو حتّى أن يوحي بها. وأيُّ قولٍ يرى أن حقائق التطوُّر البيولوجي أو نظريّاته يمكنها أن تفرض أيَّ سلوك أخلاقي أو تثبت صحَّته يشكِّل إساءةً شديدة لأعظم ما جاء به دارْوِن من اكتشافات وخرقاً شديداً لمبدأ الانفصال.

غير أن بْرايَن ظلَّ يصف التطوُّر بأنه مبدأٌ يقوم على الحرب وتدمير الضعيف، ومذهبٌ يقضي على الأخلاق الكريمة، ويستحقُّ أن يُقصى من قاعات الدراسة. فقد قال في محاولةٍ منه لإحداث أثرٍ بلاغيٍّ قويٍّ قرب نهاية كلمته المعنونة «آخر حجَّة من حجج التطوُّر»، وهي الكلمة التي أعدَّها بحماسٍ كبيرٍ ولكن لم تُتَح له فرصة إلقائها في محاكمة سكوپْس:

هنا أيضاً تلتقي القوَّة والمحبَّة وجهاً لوجهٍ، ولا بدَّ من الإجابة عن هذا السؤال: «ماذا أفعل بيسوع؟» يطالب المذهبُ الدَّمَويُّ الوحشيُّ - مذهبُ التطوُّر - بصَلْبِه كما طالب الرُّعاع بذلك قبل ألفٍ وتسعمائة سنة.

كان بودّي أن أقف هنا للتعريض ببْرايَن بحيث أجعله يبدو إنساناً متخلِّفاً، وأن أدافع عن التفسير العلمي الصحيح للدارْوِنيَّة دفاعاً رنّاناً. ولكن هذا الاستخفاف سيكون غير عادل لأن بْرايَن لا يصحُّ أن يُحكم عليه جرّاء خطأ أساسيٍّ واحد. يعلم الله أنه لم يفهم الكثير مما يتَّصل بالعلم، وأنه لن يكسب الكثير من الميداليات على تماسُك منطقه. ولكنه

لم يكن يجانب الصواب عندما قال إن الدارْوِنية وُصِفَت على نحوٍ واسعٍ بأنها تدافع عن الحرب والهيمنة والاستغلال الداخلي.

نأتي الآن إلى أهمِّ نقطة في هذه القصَّة. فهذه الاستخدامات المغلوطة للدارْوِنيَّة تشكِّل خرقاً لمبدأ الانفصال، وتسبَّبت بالكثير من الأذى في بلادنا. ولكن على من تقع مسؤولية هذا الأذى؟ لو حافظ العلماء على القدْر الصحيح من التحوُّط في تفسيراتهم، وعلى القدْر الصحيح من التواضع ومقاومة التوسُّع في مدلولات مكتشفاتهم بحيث لا يتطفَّلون على حقول خارج حقلهم لَحَقَّ لنا إعفاءُ مهنتنا والتكلُّم عن الإساءة المحتومة التي يرتكبها العاملون خارج حقل العلم بوصفها مثالاً آخر من الحكمة القديمة التي تقول إن العمل الطيِّب لن يمرَّ من دون عقوبة.[1]

ولكن مبدأ الانفصال يعمل على الجانبين ويفرض قيوداً ومسؤوليّات على الحقلين. والحملات التي يقوم بها المتمسِّكون بقصَّة الخَلْق الكتابية في أمريكا يمثِّلون – عندما يفسَّر موقفهم تفسيراً صحيحاً، وهذا هو ما يحصل في العادة – محاولةً غير صحيحة يقوم بها متحزِّبون لرأيٍ هامشيٍّ تؤمن به أقلِّيَّة داخل حقل الدين على حقل العلم. ولكنَّ ما يدعو للأسف هو أن العلماء كثيراً ما ارتكبوا الخطأ نفسه بالاتِّجاه المعاكس مع أنهم لا يشكِّلون حركات سياسيَّة منظَّمة لها نفوذٌ تشريعي.

---

(1) يبدو أن المؤلِّف أخذ هذه المقولة من كتاب المقتبسات المألوفة المعروف بعنوان *Bartlett's Familiar Quotations* الذي أشار له في السابق. وهو هناك لا ينسب إلى قائل بعينه. ولكن أحد المواقع على الإنترنت ينسبه إلى أوسكار وايْلد، ويقول إن أسلوب المفارقة فيه يجعل نسبته لوايلْد معقولة. انظر: *http://www.phrases.org.uk/bulletin_board/27/messages/317.html*

يعتقد كثير من الناس أن التطوُّر يدعم هذا السلوك الأخلاقيَّ أو ذاك لأن العلماء قالوا لهم ذلك. وعندما ننظر إلى السلوك الذي سُوِّغ على هذا النحو ونعدُّه خالياً من الأذى فإننا إنما نكون كمن يغضُّ النظر، ويعفو عن العالم لأنه تجاوز حدَّه. ولكنَّ العادات السائدة تتغيَّر، وما قد نغفره اليوم قد يصبح كُفراً لا يُغتَفر غداً؛ فالقارئ الذَّكَرُ العاديُّ في سنة 1900 كان يتقبَّل المشاعر العنصرية ويضع مجموعته فوقِ الجميع كما لو أن ذلك أمرٌ فرضته الطبيعة، ولربَّما ساند النزعة الإمبريالية للقوَّة الأمريكية. والدعوى القائلة إن التطوُّر سوَّغ أخلاقية النتيجتين كانت ستبدو له بديهية معقولة. وإذا ما قال عالم أحياء بارز شيئاً مثل هذا فإن الفكرة تصبح مقنعة أكثر.

إن معظم الناس في هذه الأيام يعدّون هذا الانتقال من الوقائع التطوُّرية إلى الأخلاق الاجتماعية انتقالاً خبيثاً مؤذياً بعد ما حصل في إيبر،[1] وهيروشيما، ومن أحداث القتل من دون محاكمة،[2] ومن المحاولات التي جرت للقضاء على بعض الأجناس. وقد استمدَّ بْرايَن درساً صحيحاً من قراءاته، إذ كان عددٌ من القادة العسكريين الألمان الذين تناقشوا مع كِلُغ أساتذةَ جامعاتٍ متخصِّصين في علم الأحياء. والعلماء لا يستطيعون ادِّعاء الحصانة من سوء التفسير، لا سيَّما إذا تقدَّموا بأفكار مضرَّة اجتماعيّاً تخرق مبدأ الانفصال، ما دام زملاؤهم معتادين على تقديم الاقتراحات واقترافها.

---

(1) *Ypres* ببلجيكا، حيث وقعت عدَّة معارك تكبَّد الحلفاء والألمان فيها أعداداً ضخمة من القتلى.

(2) *Lynchings* شنق السود على يد البيض في أمريكا من غير محاكمة حقيقية.

اسمحوا لي أن أختم هذا القسم بمثالٍ من مصدرٍ يثير القشعريرة يتّصل بموضوعنا. فقد تقدَّم بْرايَن في الفصل المعنون «آخر حجَّة من حجج التطوُّر» بتهمة تقول إن التطوُّريّين أساؤوا استخدام العلم ليقدِّموا رأياً أخلاقيّاً عن النظام الاجتماعي كما لو أنهم قدَّموا حقائق من الطبيعة.

فالتطوُّر بِشَلِّه للأمل بالإصلاح يثبِّط عزيمة من يسعون لتحسين ظروف حياة الإنسان ... ذلك أن برنامجه الوحيد للإنسان هو التوالد على أساس علمي، وهو نظامٌ يأخذ فيه عدد قليل ممَّن يقال إنهم من ذوي العقول المتميِّزة على عاتقهم مهمَّة إدارة التزاوج والانتقال – وهو لعمري نظام مستحيل!

من ذا الذي يمكنه أن يخطِّئ بْرايَن هنا؟ إن من أشدِّ الفصول إثارة للأسى في تاريخ العلم كلِّه ذلك الذي يسجِّل إساءة استخدام البيانات الأولية على نحو واسع لدعم النتائج الأخلاقية والاجتماعية للحتمية البيولوجية التي تتمثَّل في الادِّعاء بأن أموراً كالعرق والجنس والطبقة لا يمكن تغييرها لأنها تمثِّل خصائص جينية أدنى لدى الطبقات المحرومة.[1] وقد تسبَّب العلماء الذين خرقوا مبدأ الانفصال بما يكفي من الأذى

(1) أحسب أنه يشير إلى التلاعب بالبيانات الذي ارتكبه السير سِرِل بيرْت لإثبات نتائج أراد إثباتها سلفاً لأغراض غير علمية. انظر كتاب **علم الأحياء والآيديولوجيا والطبيعة البشرية**، تأليف ستيفن روز وآخرين، ترجمة د. مصطفى إبراهيم فهمي، ومراجعة د. محمد عصفور (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1990). ولا يخفى ما بين كتاب روز ورفاقه وهذا الكتاب من صلة. أو راجع هذا الموقع:

http://www.hr-portal.ru/pages/hi/burtaffair.php

عندما صوَّروا ميولهم الاجتماعية وجعلوها حقائق طبيعية في كتاباتهم العلمية. وأي أذى سيكون أعظم من ذلك الذي سيتحقَّق لو أن العلماء الذين يكتبون الكتب الدراسية، للمرحلتين الابتدائية والثانوية بخاصَّة، أخذوا يطرحون هذه المذاهب الاجتماعية كما لو أنها مكتشفاتٌ موضوعيةٌ قادتهم إليها مهنتهم؟

لديَّ نسخة من الكتاب الذي استخدمه سكوپْس لتدريس التلاميذ مادَّة التطوُّر في مدينة دَيْتن بولاية تَنِسي – وهو بعنوان **علم الأحياء المدني** من تأليف جورج وِلْيَم هَنْتَر، أستاذ علم الأحياء في كلِّيَّة نوكْس، نشره في سنة 1914. وقد رجع كثير من الكتّاب إلى هذا الكتاب ليجدوا الأجزاء المتعلِّقة بالتطوُّر والتي درَّسها سكوپْس واقتبسها بْرايَن. ولكنني وجدْتُ أيضاً تعليقات تثير القلق في فصولٍ أخرى من الكتاب لم يتنبّه لها المعلِّقون السابقون. هناك مثلاً ادِّعاءٌ صارخ بأن العلم فيه الجواب الأخلاقي عن مسائل مثل التخلُّف العقلي أو الفقر الاجتماعي وقد أسيء فهمه على هذا النحو. ويتناول هَنْتَر الحالتين المشهورتين باسم حالة عائلة آل جُوك وحالة آل كاليكاك،[1] وهما الحالتان «الكلاسيكيَّتان» الكاذبتان اللتان كان يجري الاستشهاد بهما باستمرار للتمثيل على كيفية انتقال الصفات الوراثية عبر العائلات. يقول هَنْتَر تحت عنوان «التطفُّل وما

(1) هذان اسمان غير حقيقيين لعائلتين استخدمتا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لإثبات الادِّعاء بأن السلوك المعادي للمجتمع والمستويات المتدنِّية من الذكاء قابلة للانتقال وراثيّاً، وللترويج لفكرة تحسين النسل. راجع الموقع الآتي لمزيد من المعلومات:
http://en.wikipedia.org/wiki/Jukes_and_Kallikaks

يدفعه المجتمع ثمناً له - العلاج»:

ثمَّة مئاتٌ من العائلات كتلك التي وصفناها أعلاه، تَنْشُر المرض والفساد والجريمة في جميع أرجاء هذا البلد. والثمن الذي يدفعه المجتمع بسبب هذه العائلات باهظ جدّاً. وقد أصبحت هذه العائلات عائلاتٍ طفيليَّةً تماماً مثلما تتطفَّل بعض الحيوانات والنباتات على غيرها من الحيوانات والنباتات، وهي لا تؤذي الآخرين بإفسادهم وسرقتهم ونشر الأمراض بينهم فقط، بل تحصل أيضاً على حماية الدولة ورعايتها على حساب المال العام. والبيوت المخصَّصة للفقراء والملاجئ لا توجد إلا لها بالدرجة الأولى، وهي تأخذ من المجتمع ولا تعطيه شيئاً بالمقابل. إنها طفيليّات حقيقيَّة.

ولو كان هؤلاء الناس حيواناتٍ من أجناس أدنى لتخلَّصنا منهم بقتلهم لمنعهم من الانتشار، لكنَّ المشاعر الإنسانية تمنعنا من ذلك. غير أننا نملك الحلّ، وهو فصل الجنسين في ملاجئ أو غيرها من الأمكنة ومنعهما بطرق أخرى من التزاوج ومن إمكانيَّة الحفاظ على هذا النوع من الجنس المنحطّ.

وقد كتب هَنْتَر، بعد صفحتين فقط من الصورة البيانية الشهيرة التي رفعها بْرايَن ليراها الملأ ليثبت أن سكوپْس كان يعلِّم تلاميذه الفكرة الخبيثة التي تقول إن البشر يمكن تصنيفهم بأنهم حيوانات لَبونة، كتب فقرة وحيدة تحت عنوان «أجناس البشر» في كتابٍ مخصَّص لتعليم الأطفال من كلّ الأصول في المدارس الحكومية في جميع أنحاء أمريكا:

توجد على كوكبنا في الوقت الحاضر خمسة أعراقٍ أو أنواع بشرية، يختلفُ كلٌّ منها عن الآخر من حيث الغرائز والعادات الاجتماعية، وكذلك في البنية إلى حدٍّ ما. وهذه الأنواع هي النوع الإثيوبي أو الزنجي، وأصله أفريقيا، والنوع الملاوي أو الجنس الأسمر، من جزر المحيط الهادي، والنوع الهندي الأمريكي، والنوع المنغولي أو الجنس الأصفر، ويشمل الصينيين واليابانيين والإسكيمو، وأخيراً النوع القفقاسي، ويمثّلهم السكّان البيض المتحضّرون في أوروبا وأمريكا.

لقد دعا بْرايَن إلى الحلّ الخطأ، ولكنه أصاب في تعيين مشكلة خطيرة!

إن العلم حقلٌ معرفيٌّ، والحقول المعرفية لها ضوابطها الصارمة. وتخضع الحقول المعرفية كلُّها لقواعد في السلوك ومراقبة الذات. وهي جميعاً تحظى بالقوَّة والاحترام والقبول بالعمل بشرف في داخل حدودها، ومن معرفتها بأن التعدّي على حدود الممالك الأخرى يعدُّ شططاً وحُمقاً. ويحاول العلم بوصفه حقلاً معرفيّاً أن يعرف الوضع الملموس للطبيعة وأن يفسِّر البيانات وينسِّقها لتصبح نظريّات عامَّة. ويعلِّمنا العلم أموراً كثيرة بعضها رائع وبعضها يثير القلق – وهي كلُّها وقائع تستدعي النظر عندما نحاول أن نضع معايير للسلوك، وعندما نحاول أن نفكِّر في المسائل الكبرى المتعلِّقة بالأخلاق والاستطيقا. ولكن العلم لا يستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة بمفرده، ولا يستطيع

العلم أن يُملي السياسة الاجتماعية.

والعلماء يملكون القوَّة نتيجة للاحترام الذي يفرضه حقلُهم. ولذا فقد نخضع للإغراء الشديد لإساءة استخدام ما لدينا من قوَّة لدعم تحيُّزنا أو هدفنا الاجتماعي: لماذا لا نوسِّع مجال سلطاننا بتوسيع مظلَّة العلم لتشمل ما نميل إليه في الأخلاق أو السياسة؟ ولكن لا يمكننا فعل ذلك لئلاّ نفقد الاحترام الذي أغرانا في الأصل، فالانفصال ينسحب على الجانبين.

نحن نعيش مع الشعراء والسياسيين، ومع الدُّعاة والفلاسفة. ولكلٍّ منهم طريقته في الحصول على المعرفة، وكلٌّ طريقة صحيحة في حقلها. وليس بوسع أيٍّ منها استيعاب الأجوبة كلِّها في عالمنا الرائع التعقيد هذا. ثمَّ إننا إذا مضينا في توسيع حدود العلم أكثر من اللازم فإن أناساً مثل بْرايَن سيمسكون بتلابيبنا لتحقيق مآربهم الخبيثة الخاصَّة بهم – حتى عندما نضع الكلام الكبير عن الأخلاق جانباً.

يجب أن نعطي الكلمة الأخيرة لڤيرنُن كِلُغْ، ذلك المعلِّم الكبير الذي فهم مبدأ القوَّة والحدود بعمق، والذي أصغى إلى أفظع سوء استخدام للدارْوِنيَّة، وهاله ما أصغى إليه. فقد علَّمَنا كِلُغْ في كتابه المدرسي (الذي وضعه مع ديڤد سْتار جورْدَن) أن الدارْوِنيَّة لا تستطيع الإجابة عن المسائل الأخلاقية:

ينسى أولئك الذين يسمّون أنفسهم متشائمين لأنهم لا يستطيعون أن يجدوا خيراً في طريقة عمل الطبيعة أنهم لا يستطيعون أن يجدوا فيها شرّاً. ففي مجال الأخلاق لا يسوّغ قانونُ التنافسِ الأنانيَّةَ أو الوحشيَّةَ الشخصيَّةَ أو الرسميَّةَ أو الوطنيَّةَ، تماما مثلما لا يسوّغ قانونُ الجاذبيَّةِ اصطيادَ طيرٍ من الطيور.

وهذا كلام يجب أن يباركه كلُّ ذوي النوايا الطيِّبة، ومن يعتزّون بالعلم أو بالدين أو بهما كليهما، ومن يرون أن مبدأ الانفصال يعطينا طريقةً سليمةً منطقيّاً، مقبولةً إنسانيّاً، متحضِّرةً تحضُّراً صحيحاً، لكي نعيش في عالمٍ يسوده التنوُّع الشريف.

الفصل الرابع

الأسباب النفسية للصراع

هل يمكن للطبيعة أن تغذّي آمالنا؟

لم تكن سنة 1859 في نظر التقليديين القدماء أفضل سني حياتهم. والرمز الأكبر لذلك لا بدَّ أنه كان، وسيبقى ما بقيت ثقافتُنا، نشرَ كتاب دارْوِن **أصل الأنواع**. ولكن الصورة التي رسمها دارْون عن عالَمٍ محايدٍ من الناحية الأخلاقية ولم يوجَد لإمتاع بني البشر (عالَمٍ من الواضح أنه لا يحسُّ بوجودنا أو بما نحسب أنه يؤدّي إلى راحتنا) تلقَّتْ دعماً غير معتادٍ من عمل أدبيٍّ أثار ضجَّة في السنة نفسها - أقصد الطبعة الأولى من الترجمة الحرَّة التي عملها إدْوَرْد فتزجِرَلْد لرباعيّات عمر الخيّام، عالِم الرياضيّات الفارسي ذي الفلسفة العقلية[1] من القرن الحادي عشر. فقد جسَّدت كلُّ رباعيَّة من رباعيّات الخيّام[2] درَّةً فلسفية تسلِّم بوجود عالَمٍ ليس له معنى بذاته أو شكلٌ مرغوب. (كلمة «الرباعيّات» جمعُ كلمةٍ «رباعي»، وتدلُّ هذه على شكلٍ شعريٍّ يتكوَّن من أبياتٍ تشترك أبياتها الأول والثاني والرابع بقافية واحدة).

واقتباس أبيات من الخيّام، بدلاً من المقاطع المألوفة من دارْون، كفيلٌ بإلقاء مزيدٍ من الضوء على القلق السائد في منتصف العصر الفكتوري، عندما أخذت الثوابت الأخلاقية التقليدية تتراجع أمام غول التحوُّل

(1) الكلمة الأصلية هي freethinker، وهي تحتمل معاني التفكير العقلي واللاأدرية والإلحاد. وقد اخترت أخفَّها وقعاً لأن هذه هي الصفة التي قد تكون المقصودة في ذهن الكاتب.

(2) يشير المؤلِّف إلى الشاعر باسم «عمر» فقط على عادة الغربيين (في هذه الحالة فقط)، أما الاسم الأشيع بالعربية فهو الخيّام، وهذا هو الاسم الذي سأستعمله.

التكنولوجي والتوسُّع الاستعماري. خذ هذه الفكرة التي تتناول اضطراب العقل أمام الظاهرة الكونية:

لستُ أعلمُ ما الذي قذف بي إلى هذا الكون،

ولا من أين، كالماء يجرى أراد أم لم يرد.

وسوف أخرج منه كالريح تهبُّ فوق الصحراء

لا تعرف إلى أين تتجه، أرادت أم لم تُرِد.[1]

أو خذ هذه الأبيات عن وضع الأرض المتدنّي (فكأنها خانٌ حقير تستريح عنده قافلة من الجِمال) وعن الطبيعة المتقلِّبة لحياتنا:

تأمَّل كيف أن سلطاناً بعد آخر

قد قضى ساعته المكتوبة في هذا الخان

الذي باباه الليل والنهار

ثم مضى في سبيله(2)

أو هذه الأبيات التي تعبِّر عن عجزنا عن جعل الطبيعة تستجيب لآمالنا وأحلامنا:

آه يا حبيبتي لو كان بمقدورنا

أنا وأنت أن نتَّفق والقدر على الإمساك

بنظام الكون هذا بكامله لنحيله إلى حطام

(1) الرباعية 29 من ترجمة فتزجِرَلْد.

(2) الرباعية 17 من ترجمة فتزجِرَلْد.

ونعيد تشكيله كما يشتهي القلب.(1)

لماذا لا «نأخذ النقد ونترك الفائدة» في عالَم كهذا (كما يقول البيت الذي سيخلد مع الزمن من أبيات الخيّام،[2] والذي ينسب خطأً عادةً إلى آدم سْمِث، أو ج. م. كَينْزْ، أو دونَلْد تْرَمپ، أو غيرهم ممن هم من العالم الغربي الأقرب).

يقوم هذا الكتاب على أطروحة أساسية غير معقَّدة تضع جدول المحتويات وترتيب الإجراءات التي ستُتَّبَع، وتحتاج إلى التذكير بها في مواضع متعدِّدة من منطق الفكرة التي أعرضها: الانفصال فكرة بسيطة، إنسانية، عقلانية، تقليدية تؤدّي إلى الاحترام المتبادَل القائم على عدم تداخل مواضيع الدراسة ما بين مكوِّنين من مكوِّنات الحكمة في الحياة الإنسانية المليئة: هما سعينا لفهم الواقع الملموس للطبيعة (وهذا هو حقل العلم) وحاجتنا لتحديد معنى حياتنا والأساس الأخلاقي لأفعالنا (وهذا هو حقل الدّين).

وقد رسمتُ ملامح الفكرة، مع أمثلة توضيحية من قادة الحقلين، في الفصلين الأوَّلَين. وانتقلتُ في النصف الثاني من الكتاب للنظر في

(1) الرباعية 99 من ترجمة فتزجرَلْد. لكن المؤلِّف تصرَّف هنا وكتب *Fate* (القَدَر) بدلاً من *Him* (هو). ومع أن كلمة Fate مذكورة في الرباعية السابقة، فإن الضمير يعود من الناحية النحوية ليس إلى القَدَر بل إلى كلمة *Angel* (الملاك) في تلك الرباعية.

(2) يرد البيت في الرباعية الثالثة عشرة من صيغة الرباعيّات المنشورة في الجزء الثاني من كتاب *The Norton Anthology of English Literature* من تحرير *M. H. Abrams* وآخرين. وقد وجدتُ صياغة مختلفة له مصوَّرة عن كتاب قديم في الموقع الآتي: *http://www. courses.vcu.edu/ENGL624-nf/rubaiyat/q13.htm*

المفارقة المركزية التي تجعل هذا الحلّ المعقول لهذه «اللامُشكلة» التي تُعزى للصراع المزعوم بين العلم والدّين حلاً غير مفهوم تماماً تجري مقاومته على نحوٍ متكرِّر- مع أنه حلّ يسانده جميع المفكرين الكبار من الحقلين تقريباً. ومن الممكن أن تعاد صياغة السببين الأساسيّين اللذين تناولهما الفصلان الأخيران من هذا الكتاب وأن يفهما حتى وإن كان الجدل، القائم على سلسلة أحداث مختلطة، بيزنطيّاً تماماً. فقد تناولتُ السبب الأول، وهو السبب التاريخي، في الفصل الثالث، وهو تمنُّع العديد من المتديِّنين من الانسحاب من أرضيَّة كانت تحتلُّها في يوم من الأيام آراءٌ سابقةٌ عن الحياة والطبيعة احتلالاً مشروعاً، ولكنَّها أرضيَّة ورثها حقلٌ جديد هو حقلُ العلم وراثةً شرعيَّةً (هذا إلى جانب مشاعر إمبريالية مماثلة من جانب العديد من العلماء الذين يمارسون غزوات غير جائزة لحقل البحث الأخلاقي).

أما في هذا الفصل الأخير فسأنتقل إلى السبب الثاني، وهو السبب النفسي - وهذه قضيَّة يجب أن تبرز بساطتها للعيان حتى في حمأة هذا الخلط التاريخي للصراع الفعلي: فنحن نعيش في وادٍ للدموع (أو في حقل من الاضطراب)، ولذلك فإننا نتمسَّك بأي قشَّة تَعِدُنا بالراحة مهما بلغ من ضعف المنطق ورغم أن الأدلَّة تثبت عكس ما نريد.

استهللتُ هذا الفصل بالشكوك الكلاسيكية التي عبَّر عنها الشاعر الفارسي من القرن الحادي عشر فيما يتعلَّق بكرم الطبيعة. وقد نستشهد أيضاً بمصدر كلاسيكي غربيّ لاستكمال هذا الخوف من الطبيعة -

مصدر يعبِّر عن جزعنا فيما يتعلَّق بمكاننا وقدرتنا على فهم ما يحيط بنا.

تأمَّل هذه الأبيات الشهيرة (المكتوبة على هيئة مزدوجات مقفّاة هذه المرَّة، لا على شكل رباعيّات) للشاعر أَلِكزاندَر پوپ من قصيدته مقال في الإنسان (1733—1734):[1]

تَراهُ في بَرْزَخٍ، في حالَةٍ وَسَطٍ، تَشُدُّهُ الرّوحُ والأَعْضاءُ في الجَسَدِ
يَكادُ مِنْ عِلْمِهِ أنْ يَرْتَقي صُعُداً إِلى السّماءِ التي تَعْلو بلا عَمَدِ
يَكادُ مِنْ ضَعْفِه أنْ يَنْحَني وَهَناً ويَدْفِنَ الكِبْرَ في يَأْسٍ وفي كَمَدِ
ولَيْسَ يَدْري: أَيَمْضي في رَغائِبِه، أمْ يَسْتَكِينُ، فلا يُصْغي إلى أَحَدِ؟
أهوَ الأَلهُ أَمِ الحَيْوانُ يَرْسِفُ في أَسْرِ الغَرائِزِ مَغْلولاً بلا صَفَدِ؟
لا، لَمْ تَلِدْهُ الليالي خالِداً أَبَداً، ولا يُفَكِّرُ إلاّ مُخْطِئاً بِغَدِ
سِيّانَ في الجَهْلِ أو في العِلْمِ، ليسَ لَهُ أَنْ يَتّقي ما يَضُمُّ الغَيْبُ يَوْمَ غَدِ
فَوْضى مِنَ الفِكْرِ والإِحْساسِ، ليسَ يَرى كَيْفَ الوُصولُ إِلى العَلْيا بلا سَنَدِ
قَدْ يَرْتَقي دَرَجاتٍ ليسَ يَعْرِفُها، وَقَدْ يَضِلُّ فَيَهْوي دونَ مُعْتَمَدِ
لأَنّــهُ سَيِّــدُ الأَشْيــاءِ قاطِبَــةً وَعَبْدُها، يَسْتَوي في الجَهْلِ والرّشَدِ
هُوَ الحَكيمُ الجَهولُ اللُّغْزُ، يَضحَكُ مِنْ طُموحِهِ اللهُ والشَّيْطانُ للأَبَدِ

إن هذا الجزء المركَّب بخصوص الطبيعة والإدراك الإنساني لا بدَّ أن يفضي إلى «أوهام الإنقاذ»، باستعمال العبارة الشائعة في العلاج في هذه الأيّام. فنحن نتوق إلى أن نضع أنفسنا على كوكبٍ لطيفٍ، دافئٍ، ناعم

(1) اقتبس المؤلِّف ثمانية أسطر (أبيات) من القصيدة. وقد كنتُ ترجمتُها شعراً (مع شيء من التصرُّف الذي يفرضه الشكل الشعري الذي اخترتُه) قبل ستة عشر عاما ترجمة قد تؤدّي المعنى المطلوب.

كالفرو، يحتضننا بكَنَفه، خُلِقَ ليزوِّدنا بحاجاتنا المادِّيَّة، وشُكِّل لنسود فيه ونستمتع. لكن حلم اليقظة هذا بالمَدَد الذي نتوقَّعه من عالم المعاني (ولذا فهو يقع في حقل الدّين) يفرض متطلَّبات معيَّنة غير واقعية على البنية الواقعية للطبيعة (التي تقع ضمن حقل العلم). ولكن الطبيعة، وهي ما هي، وجدت بشكلها الأرضي قبل أربعة بلايين ونصف البليون سنة قبل وصولنا إليها لنفرض تفسيراتنا عليها، وهي تقابلنا بعدم اكتراث علويٍّ ولا يعنيها توقنا بشيء. ولذا فإننا نمضي من غير بديل أمامنا. علينا أن نمضي في أصعب رحلة ممكنة دون معين يعيننا: بحثاً عن معنى في مكان لا يعنيه أمرنا على الإطلاق وهو أقرب ما يكون منّا - داخل أنفسنا الضعيفة.

علينا إذن أن نرحِّب بكرم نفس وتفاؤل بما يمليه مبدأ الانفصال بثقة وحزم: اعترفوا بالطبيعة الشخصية لهذه الصراعات الإنسانية حول الأخلاق والمعاني، وتوقفوا عن البحث عن أجوبة قطعية في بنية الطبيعة. ولكنَّ كثيراً من الناس لا يحتملون التخلّي عن الطبيعة وكأنها «شيء عابر» - كما لو أنها بطّانيَّةٌ دافئة لراحتنا عند النضج. ولكن عندما نفعل (ولا بدَّ لنا من أن نفعل) فإن الطبيعة ستبدو لنا بشكلها الحقيقي: لا بصفتها مرآة مشوَّهة لحاجاتنا، بل بوصفها أشدَّ أصحابنا سحراً. عندئذ فقط سوف نتمكَّن من توحيد الرُّقعتين اللتين صنعهما حقلانا المنفصلان لجعلهما لحافاً جميلاً متناسقاً ندعوه الحكمة.

اتَّخذ البحث الضالُّ عن المعنى الداخلي في الطبيعة - وهو الخرق الأعظم (والأقدم) لمبدأ الانفصال - شكلين رئيسين في التراث الغربي.

وأنا أدعو الشكل الأول حلّ «المزمور الثامن»، أو «كلُّ شيءٍ تحت قدميه»، للتذكير بالصيغة الصادقة الصحيحة للسؤال: كيف يمكننا حتى أن نفكِّر بمعنى داخلي يروق لنا في ضوء صِغَرِنا بالمقارنة مع ضخامة الكون؟

عِنْدَمَا أَتَأَمَّلُ سَمَاوَاتِكَ الَّتِي أَبْدَعَتْهَا أَصَابِعُكَ، وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ الَّتِي رَتَّبْتَ مَدَارَاتِهَا

أُسَائِلُ نَفْسِي: مَنْ هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى تَهْتَمَّ بِهِ؟ (1)

وللتذكير أيضاً بالجواب الدَّعيِّ الذي تدغدغنا به أوهامُنا الكاذبة:

جَعَلْتَهُ أَدْنَى قَلِيلاً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِلَى حِينٍ، ثُمَّ كَلَّلْتَهُ بِالْمَجْدِ وَالْكَرَامَةِ (2)

متبوعاً بالتصوُّر غير الصحيح للطبيعة الذي اقتبسناه سابقاً :

وَأَعْطَيْتَهُ السُّلْطَةَ عَلَى كُلِّ مَا صَنَعَتْهُ يَداكَ. أَخْضَعْتَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ.(3)

وهذا يعني أن الفكرة القائلة إن «كلَّ شيء تحت قدميه» تكتسب معناها في الطبيعة من الادِّعاء بتفوُّقنا على بقيَّة المخلوقات، أو من اتِّخاذ الموقف الذي يتطرَّف أكثر من ذلك ويقول إن الطبيعة وجدت لتخدم حاجاتنا. ولئن ركَّز الحلُّ الأوَّل هذا على الجانب البشري، فإن الاستراتيجية الثانية القائلة إن «كلَّ شيءٍ بهيٌّ جميل» تجعل الدِّفء وعدم

(1) المزمور الثامن 3–4.

(2) المزمور 8: 5

(3) المزمور 8: 6

الوضوح، والاستقامة الأخلاقية هي النموذج الذي لا مراء فيه للطبيعة. وإذا شئنا أن ندخل في هذا العالم الذي يصفّي النفس من أدرانها فما علينا إلا أن نفعل مثلما فعل السامريّ الطيّب في الحكاية، حسبما تقول الكلمات الختامية في حكايته.

غير أن حلَّيْ «كلُّ شيءٍ» هذين يصطدمان بعدم استجابة الطبيعة لهما. فالحلاّن اللذان يعبِّر أحدهما عن أملنا بالسيطرة ويعبِّر ثانيهما عن رغبتنا في تعزية النفس، يتطلَّبان أن تتشكَّل الطبيعة على نحوٍ معيَّن. ولكنَّ الطبيعة تقاوم تصوُّرنا لها فتعرض علينا أنماطاً حقيقية تتعارض مع ذلك التصوُّر نجدها داخل حقل العلم. (لا «تدحض» هذه الأنماطُ الحقيقةُ التي تتعارض مع ذلك التصوُّر الدّينَ عندما يسود مبدأ الانفصال ولا حتى إمكانيةَ وضعِ تصوُّرٍ دينيٍّ للطبيعة. كلُّ ما تفعله هو أنها تتعارض مع تفسيراتٍ معيَّنةٍ يتقدَّم بها بعض المتديِّنين، وكثيرٌ من غير المتديِّنين أيضاً).

لن أكرِّر الحجج المألوفة ضدَّ مقولة «كلُّ شيء تحت قدميه» بتفاصيلها – انظر كتابي السابق بعنوان *Full House*[1] أو أي كتابٍ معاصر عن مبادئ التطوُّر أو تنوُّع الحياة. ولقد يكون «الإنسان العاقل» أذكى الأنواع قاطبة، ولكننا لا نمثِّل إلاّ غُصَيْناً صغيراً نما بالأمس فقط على

(1) عنوان الكتاب مأخوذ من لعبة البوكر، ومعناه في سياق الأفكار التي يسوقها الكتاب «الصورة الكاملة»، وهو يشير إلى ضرورة النظر إلى الصورة الكاملة للتطوّر، وليس إلى أجزاء منها، للحصول على فكرة صحيحة عمّا يجري. وقد صدر الكتاب في سنة 1996.

فرع واحدٍ من شجيرة للحياة وارفة. وهذه الشجيرة لا يبدو أنها تفضِّل اتجاهاً للنموّ دون آخر، بينما لا يحتل الجزء الصغير الخاصُّ بالفقاريّات منها سوى موضع واحد من كثير من المواضع، ولا يعدُّ حتّى الأوّل بين متساوين في الدرجة. وليس «الإنسان العاقل» سوى نوعٍ واحد من حوالي مائتين من الرَّئيسات[1] على غصين قوامه حوالي أربعة آلاف من الحيوانات اللبونة، على غصنٍ يتكوّن من حوالي أربعين ألف نوع من الفقاريّات، من فرع من الحيوانات يسودها أكثر من مليون نوع معروف من الحشرات. وأما الفروع الأخرى من شجيرة الحياة فذات عمر أطول واحتمالات أعظم لتحقيق نجاحٍ أدْوَم - أما البكتيريا فتشكِّل جذع الشجيرة، وقد ظلَّت على الدوام هي المسيطرة على تاريخ الحياة بسبب تنوعها، ومرونتها، وتعدُّد مواطنها، وأنماط حياتها، وضخامة أعدادها.

أما الوهم الآخر المكمِّل لهذا، وهو الوهم القائل إن «كلَّ شيءٍ بهيٌّ جميل» فيمكن التمثيل عليه بالمثال المعتاد من الأدب الكلاسيكي فيما يخصُّ التاريخ الطبيعي - وهو مثال يتجاهله مؤيِّدوه بينما يواجهه دارْوِن دون مواربة، ولذا فإنه ينقلنا نقلاً طبيعيّاً لا انقطاع فيه إلى القسم التالي الذي يتناول دفاع دارْوِن الجوهري عن مبدأ الانفصال ضدَّ العائق النفسي.

وينبغي القول - إنصافا للمؤيِّدين الشرفاء للوهم القائل إن «كلَّ شيءٍ

(1) *Primates*. يعرِّفها **معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية** بأنها «رتبة من الثدييّات لها ثلاث رُتيبات وهي الهبّاريّات والقردياّت والبشريّات».

بهيٌّ جميل» – إنهم ظلّوا يدركون باستمرار أنهم لا يستطيعون إثبات موقفهم بالإشارة إلى حيوان الباندا ذي الفرو الناعم، أو إلى الفراشات ذات الألوان الزاهية، أو إلى نُبل الحرص الذي يبديه أبو بامبي على راحة الآخرين.[1] ذلك أن الحجة المقابلة لا تنكر أن بعض المخلوقات تسحر إحساسنا بالجمال أو تستدعي استحساننا الأخلاقي (لأننا قرأنا أفعالها الظاهرة في ضوء الأحكام الإنسانية التي لا تناسب المقام، وليس لأننا فهمنا الأساس التطوُّريّ لسلوك هذه المخلوقات نفسها – وهو غالباً ما يكون أمراً مختلفاً تمام الاختلاف). ولكن ظاهر الأمور يقول أيضاً إن الطبيعة ملأى بأنواع السلوك الذي تسمّيه تقاليدنا الأخلاقية قبيحاً أو بالغ القسوة. وهذه الحالات الكثيرة من التعارض الظاهر، لا الأمثلة المعتادة التي تقدِّم الدعم الظاهر، هي التي تضع التحدّي الذي يتعيَّن على المؤمنين بأن «كل شيءٍ بهيٌّ وجميل» أن يواجهوه إن كانوا يريدون المحاجَّة بأن المعنى الأخلاقي معروض لمن يريد رؤيته في حقائق الطبيعة. فإن سلَّمنا بأنَّ الطبيعة هي التي تحدِّد الأخلاق تعيَّن علينا إما أن ندَّعي أن طرق الطبيعة تتضمن قيم الحبِّ، والعطف، والتعاون التقليدية – أو يتعيَّن علينا أن نعترف بأن القادة الألمان الذين ذكرهم كِلُغ كانوا على صواب، وأن القاعدة الذهبية والوصايا العشر أحلامٌ يصعب تحقيقها، وأن النظام الأخلاقي يتضمَّن كثيراً من أحداث القتل والسَّلْب.

والمعيقات التي تواجهها مقولة «كل شيءٍ بهيٌّ وجميل» بالغة

(1) بامبي اسم غزال صغير السن. يعود الاسم إلى قصة للأطفال من تأليف الكاتب فيلكس سالتن نشرت سنة 1923.

الصعوبة حقّاً. تأمَّل مثلاً ملاحظة داروِن القاطعة التي تقول إن معظم الحالات التي تدعم هذا القول تكشف عن حقيقة مغايرة عندما نتعمَّق في المسألة:

نحن نتأمَّل الطبيعة عندما يكون وجهها بهيّاً بمشاعر السعادة؛ وكثيراً ما نرى أن الطعام وفير. ولكننا لا نرى أو ننسى أن الطيور التي تغنّي من حولنا بلا هدف يعيش معظمها على الحشرات أو على البذور، ولذا فإنها تقضي على الأشياء الحيَّة. أو ننسى كيف أن هذه المخلوقات المغرِّدة، أو بيوضها، أو أعشاشها تقع ضحية الطيور الجارحة أو الحيوانات الكاسرة.

ولذا اضطرّ القائلون بأن الطبيعة خيِّرة بطبعها للسير في طريقٍ ضيِّقٍ محفوفٍ بالخطر على الجانبين، واحتاجوا، في مواجهة أحد الجانبين، إلى إعادة تأكيد التفسيرات المعتادة للظواهر التقليدية في وجه حجَّة داروِن التي اقتبسناها أعلاه. ثم اضطرّوا، تحاشياً للجانب الآخر، إلى مواجهة المهمَّة الأصعب، وهي إقناع الناس بأن الحالات التي تبدي الطبيعة فيها قبحها الظاهر تتجسّد فيها الاستقامة الأخلاقية عندما تفهم بمعناها العميق.

لجأ مؤيِّدو مقولة «كل شيءٍ بهيٌّ وجميل» في دفاعهم عن هذه الحجة غير المعقولة إلى اتَّخاذ حالة «الدبّور الإكنوموني»[1] مثلاً لدعم موقفهم

(1) ثمَّة ههنا شيء يهمّ المشتغلين بالاشتقاق والترجمة. فالكلمة التي يستعملها **معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية** مقابلاً لكلمة *wasp* هي «الزنبور»، وهي صحيحة، ولكن

(والدّبور الإكنومنوني ليس اسماً لدبّور بعينه بل لجنس من الحشرات يضم عدَّة مئات من الأنواع). فعند ترجمة أسلوب التكاثر عند هذه الحشرات إلى قيم إنسانية نجد أن سلوكها يثير التقزُّز والفزع؛ فالأنثى من هذه الدبابير تمسك بحشرة أخرى هي في العادة دودة، وإما تقذف فيها بيوضها، أو تشلُّها وتضع بيوضها فوقها. وعندما تفقِّس البيوض فإن اليرقات تأكل الدودة الحيَّة من داخلها، وتكون هذه مشلولة عادة - ولكنها تحرص على ترك القلب وبقية الأحشاء الحية للآخر حتى لا يفسد جسد الدودة وتخسر اليرقات صيدها الثمين. (وإذا شئنا المجيء بمضاهاة زائفة فقد نأتي بمثال العقوبة القديمة التي كانت تقضي بقطع أطراف الخائن لتأخير لحظة موته أطول فترة ممكنة لمضاعفة العذاب). وقد وصف ج. م. فابر، أشهر كاتبٍ عن الحشرات في القرن الذي عاش فيه دارْوِن، الوضعَ بأسلوبه التصويري المؤثِّر فقال:

يمكن للمرء أن يرى الجُدجُد[1] وقد أُكِلَ جزءٌ منه وهو يحاول تحريك مجسَّتيه أو أقسام جسده، أو يحاول فتح فكّيه وإغلاقهما، أو حتى أن يحرِّك قدما من

هذه الكلمة تختلط لدى العامة بمعنى آخر آثرت الابتعاد عنه، مستعيناً بما يرد في **لسان العرب** الذي يقول إن الدبّور «بفتح الدّال هو النحل» (مادَّة دَبَرَ). أما كلمة «الإكنوموني» فيترجمها الشهابي بكلمة «النِّمسي» لأن أصل الكلمة اللاتيني يعني النِّمس. لكنني آثرت استعمال الاسم العلمي وليس الترجمة لأن الأسماء العلمية ذات صبغة عالمية قابلة للفهم على نطاق واسع، بينما تبتعد بها ترجماتها إلى اللغات المختلفة عن اللغة العلمية المشتركة.

(1) أو صرّار الليل عند الشهابي.

أقدامه، ولكن اليرقة آمنة، وتبحث عن أحشائه دون خوف من شيء. ويا له من كابوس للجُدجُد المشلول!

والآن كيف يمكن أن ندافع عن مقولة «كل شيء بهي وجميل» في وجه هذه الحقائق المهولة (في ضوء الأحكام الإنسانية التي لا تناسب المقام طبعاً، ولكن مقولة «كل شيء بهيٌّ وجميل» تشعُّ بهذا الضوء كما لو أنه أطروحتها الأساسية)؟ لقد جرى التوصُّل إلى عددٍ من الأفكار التي اقترحها علماءُ أنكروا مبدأ الانفصال أرادوا منها التأكيد على أن حقائق الطبيعة يمكن أن تكون أساساً للأخلاق الإنسانية.

هذه أمثلة ثلاثة من كبار علماء الطبيعة في أيّام دارْوِن، وليست من أشخاصٍ عاديّين:

(1) قد يتعذَّب الحيوان المضيف، وقد لا يكون النظام الذي يحكم علاقة الضيف بالمضيف سارّاً، ولكن الطبيعة موجودة من أجل الإنسانية، وأي وسيلة تؤدّي إلى فائدة البشر تُحسَب لنوايا الطبيعة الحميدة. فقد قال چارلز لايل مثلاً في كتابه العظيم **مبادئ الجيولوجيا** (1830—1833) إن أيَّ وقفٍ طبيعيٍّ للحشرات السامَّة ، بما في ذلك موت كثيرٍ من مضيفات يرقات الدبابير، لا يمكن وصفه إلا بأنه تشكيل للطبيعة لفائدة الإنسان لأن هذه الحشرات قد تتلف الزرع «لولا أن العناية الإلهية توجِدُ الأسباب لوضعها في حدودها المناسبة».

(2) قد تبدو بعض جوانب النظام وكأنها تنتمي إلى الجزء السلبي من

القيمة الأخلاقية، ولكننا عندما ننظر إلى الصورة الكلِّيَّة فإن النواحي الإيجابية فيها تفوق النواحي السلبية بكثير. وقد تحوَّلت لُغَةُ وِلْيَم كيرْبي، مسؤول كنيسة بارَمْ (في مقاطعة سَفُكْ بإنكلترة)، وأكبر عالم حشرات في بريطانيا، إلى لُغَةٍ شعرية عند الحديث عن الحبِّ الذي يتبين من عناية الأمَّهات في توفير الغذاء لصغارٍ لن تراها:

إن الغالبية العظمى من هذه الأمَّهات ستلقى الموت المحتوم قبل أن يرى صغارُها النور. ولكنَّ شعلة الأمومة فيها لا تنطفئ .. وعندما نلاحظ الحرص الذي تبديه الأمَّهات لتوفير الأمن والغذاء لصغارها في المستقبل فإننا لن نستطيع أن ننكر ما لديها من حبٍّ للخَلَف الذي لن تراه.

وقد وضع كيرْبي كلمة طيِّبة أيضاً بحقِّ اليرقات الغازية ممتدحاً إياها لضبط النفس في أكل الأجزاء التي لا تؤدّي إلى موت الدودة المضيفة. وليتنا جميعاً نحرص على ما لدينا من مصادر مثلما تحرص اليرقات!

ثمَّة أمرٌ يدعو للدهشة في هذه العملية الغريبة التي تتَّصف في ظاهرها بالقسوة. فمع أن يرقات الإكنومُن تظلُّ تنهش أحشاء الدودة المضيفة على مدى أيّام، بل ربما أشهر، ومع أنها تكون قد نهشت كلَّ شيء باستثناء الجلد والأمعاء بعناية، فإنها تظلُّ تتحاشى إيذاء الأعضاء الحيوية كما لو أنها على وعي بأن وجودها هي يعتمد على الحشرة التي تفترسها!... ما الانطباع الذي سيخلِّفُه فينا مثالٌ مشابهٌ من عالم الحيوانات التي تمشي على أربع؟ لو وجدنا على سبيل

المثال حيواناً ... يتغّذى على الأجزاء الداخلية من كلب لا يأكل منه إلاّ تلك الأجزاء غير الضرورية للحياة مبتعداً بعناية عن إلحاق الأذى بالقلب والشرايين والرئتين والأمعاء - أَوَلَنْ نعدَّ ذلك أمراً خارقاً، مثالاً على ضبط النفس أقرب إلى المعجزة؟

(3) لاشكَّ في أن الدودة المشلولة التي تنبض بالحياة تعاني من عذابٍ ممضٍّ في الظاهر، ولكننا ضُلِّلْنا. فتَلَوّي الدودة – أوَّلاً – يأتي نتيجة حركة ميكانيكية سببُها اليرقات التي تنهش الجسد في الداخل. والحيوانات الدنيا – ثانياً – كائناتٌ آلية، ولا تشعر بالألم. وقد قال سَينْت جورج ميڤارْت، وهو من نقّاد دارْوِن البارزين، «إن كثيراً من الناس الطيِّبين المحترمين» خُدِعوا بما تعانيه الحيوانات من ألمٍ في الظاهر. وقد لجأ ميڤارْت إلى فكرة عنصرية كانت مفضَّلةً لبني عصره – وهي أن «البدائيّين» لا يحسّون بالألم بالقدْر الذي يحسُّ به المتحضّرون – فاستنتج بالقياس نزولاً على سلَّم الحياة أن الألم في أسفل السلَّم محدود جدّاً؛ فالألم الجسماني في رأيه

يعتمد على الحالة الذهنية للمتألِّم؛ فالألم لا يوجد إلاّ في حالة الوعي، وهو لا يصل ذروته إلا في أعلى درجات التنظيم عند البشر. وقد جرى التأكيد للمؤلِّف أن الأقوام الأدنى أقلُّ إحساساً بالألم الجسماني من بني البشر الذين بلغوا درجات أعلى من الرقيِّ والتهذيب. ولذا فإن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يمكنه الإحساس بالألم الشديد لأنه هو وحده المتَّصف بالذاكرة العقلية للحظات الماضية

وتوقُّع اللحظات الآتية، وهي اللحظات التي تتشكَّل منها قسوةُ العذاب. ولا شكَّ في أن الألم الذي تحسُّ به الحيوانات لحظة وقوعه إحساس حقيقي، ولكن يجب ألاّ يقارَن من حيث شدَّتُه بالألم الذي يحسُّه الإنسان بسبب تميُّزه بالوعي بالذات.

لم يستطع أحدٌ أن يجاري مارْك تْوَيْن في سَلْقِ العنجهية العلمية، لا سيَّما عندما يتجاوز العلم حدوده ويتطفَّل على مناطق ليس له فيها عمل (مثل منطقة الأخلاق). فقد صوَّر تْوَيْن في مقطوعة نقدية ساخرة بعنوان «بَسي الصغيرة ترغب في مساعدة العناية الإلهية» حديثاً عائليّاً تصرُّ فيه البنت على أن الربَّ الرحيم ما كان ليعطي صديقها الصغير «بِلي نورِس مرض التيفوس» أو يتسبَّب لأناس طيِّبين آخرين بمصائب ظالمة، فتقول لها أمُّها بأنه لا بدَّ من وجود سببٍ وجيه لذلك. ويستعيد جواب بِسي الأخير، وهو الجواب الذي تنتهي به المقطوعة، الحالة الكلاسيكية المتعلِّقة بالإكنومن:

يقول السيِّد هولِسْتَر إن الدبابير تمسك بالعناكب وتجمعها في جحورها المحفورة في الأرض – وهي ما تزال حيَّة يا ماما! – وهناك تعيش العناكب وتتعذَّب على مدى أيّام وأيّام، وتقضم الدبابير الصغيرة أرجلها وتدخل في بطنها طيلة الوقت لتجعلها متديِّنة ولتسبِّح بحمد الله على رحمته الواسعة. أنا أرى أن السيد هولِسْتَر جديرٌ بالإعجاب لما يتَّصف به من عطف بالغ. فعندما سألتُه إن كان مستعدّاً لتمزيق عنكبوت على هذا النحو قال إنه لن يفعل ذلك في

حالٍ من الأحوال. وبعد ذلك – ماما، ماذا دهاكِ؟ هل غبتِ عن الوعي!

كتب أَيْسا گَري في سنة 1860 بعد قراءته كتاب **أصل الأنواع** رسالة إلى چارْلْز دارْوِن قال فيها (كما سيردُ بعد صفحات) إنه مستعدٌّ لقبول فكرة الانتخاب الطبيعي على أنه الطريقة الإلهية في العمل، ولكنه ظلَّ يشعر بضرورة أن يجد هدفاً أخلاقيّاً خلف النتائج التطوُّرية. فأجابه دارْوِن بطريقته الصادقة الرائعة بأنه لا يستطيع، بوصفه عالماً، أن يحلَّ المشكلات المتعلِّقة بالغايات الأخلاقية والمعاني النهائية – فليس بوسعه أن يتصوَّر كيف يمكن أن تتوافق حقائق الطبيعة المعيَّنة مع القيم التقليدية. ومما يثير الانتباه أنه استشهد بمثلين من السلوك لا يمكن وصفهما سوى بالقول إنهما يثيران فينا الاضطراب إذا فسَّرناهما (خطأً في رأي دارْوِن) من وجهة نظر القيم الإنسانية الأخلاقية – وهذان المثالان هما الملاحظة الشائعة (والمقلقة) التي لاحظها العديد من مالكي الحيوانات البيتية الأليفة، وتلك التي تقلُّ عنها شيوعاً والتي تتعلَّق بالإكنومن وتقشعرُّ لها الأبدان:

أعترف بأنني عاجز عن رؤية الأدلَّة التي تثبت وجود هدفٍ طيِّبٍ في كلِّ ما هو حولنا بالوضوح الذي يراها به الآخرون وبالوضوح الذي أرغب في رؤيتها به، إذ يبدو لي أن العالم يزخر بقدْرٍ أكبر من اللازم من التعاسة. ولست بقادرٍ على إقناع نفسي بأن ربّاً رحيماً كلّيَّ القدرة قَصَدَ أن يخلق جنس الإكنومنات بهدف جعلها تتغذى داخل أجساد الدود وبجعل القطط تلعب بالفئران.

لقد قدَّم لنا دارْوِن وتْوين، كلٌّ بأسلوبه الخاصِّ به، الجواب الصحيح وقَرَعَ الجرس الذي ينعى فكرة «كلُّ شيءٍ بهيٌّ وجميلٌ» - بل ينعى كلَّ مسعى لاكتشاف الحقيقة الأخلاقية (أو لاكتشاف أي مفهوم آخر يقع داخل حقل الدّين، بما في ذلك طبيعة الله وصفاته) في التشكيل المادّي الملموس للطبيعة، فمبدأ الانفصال يستدعي الفصل بين مادِّيَة الطبيعة والمبادئ الأخلاقية لبني البشر - وهل لي أن أقول إن الاثنين لن يلتقيا؟[1]

إن قصة الإكنومن قصة تثير الاشمئزاز عند روايتها من وجهة النظر الأخلاقية، ولكن صياغة واقعة حقيقية «من وجهة نظرنا» لا يمكن الدفاع عنها في عالَمٍ طبيعيٍّ لم يخلَق لنا ولا نحن حاكموه - عالَمٍ ليس بوسعه أن يعطينا دروساً لما يليق بالإنسانية. فالتِهامُ الدود الحيِّ المشلول استراتيجيةٌ تطوُّريةٌ تعمل لصالح الإكنومن، وقد دخل هذا الانتخاب الطبيعي في برنامج السلوك المتكرِّر لدى هذه الحشرة. والدود لا يتعذَّب لكي يعلِّمنا شيئاً. كلُّ ما حصل أن الإكنومن قد تفوَّق عليه في هذه المرحلة من اللعبة التطوُّرية، وقد يطوِّر الدود مجموعة من أساليب الدفاع الفعّال في المستقبل تؤدّي إلى القضاء على الإكنومن، وربّما يعجز عن ذلك حقّاً.

(1) يلعب الكاتب هنا على اسم الكاتب تْوَين الذي يعني «اثنين» بالتهجئة الإنكَليزية، مع التلميح إلى بيت الشعر الشهير للشاعر رديارد كپلنغ الذي قال فيه إن الشرق شرق والغرب غرب وإن الاثنين لن يلتقيا.

حمّامُ الطبيعةِ الباردُ ودفاعُ دارْوِن عن مبدأِ الانفصال

قُرِئَ دارْوِن كما لو أنه غبيٌّ في مجال الأخلاق أو كأنه لا يكترث به لأنه ظلَّ يكرِّر التعبير عن عجزه عن استخلاص الدروس من إعادة ترتيبه للمعرفة البيولوجية وتطبيقها على معنى الحياة الإنسانية. أولم يكن من المفروض في تفسيره الجديد للطبيعة أن يقدِّم لنا دليلاً نهتدي به فيما يخصُّ أهمَّ الأسئلة في كلِّ العصور: لماذا نحن هنا؟ وما معنى كلِّ ذلك؟ كيف يمكن لإنسان أن ينظر بهذا العمق في جوهر السببية البيولوجية وتاريخ الحياة ثمَّ لا يقدِّم لنا سوى كلام فارغ عن معنى الحياة والنظام النهائي للأشياء: «أشعر في أعمق أعماقي أن الموضوع أعقد من أن يلمَّ به العقل البشري. تصوَّروا كلباً يحاول التعمُّق في عقل نيوتن!».

هل كان دارْوِن جباناً؟ مجرَّد عقلٍ جفَّ مدادُه؟ رجلاً قميء الذهن؟ عالِماً من ذلك النمط الذي يصف الشجرة وينسى الغابة، أو يحلِّل الصيغة المكتوبة من السمفونية ولا يسمعها؟

أنا أنظر إلى دارْوِن نظرة معاكسة لهذه تماماً. فقد حافظ طوال حياته على وَلَعِه الإنساني الأساسي بالمسائل الكبرى عن الأخلاق والمعاني، وكان على وعي بالأهمِّيَّة القصوى لهذا النوع من الأسئلة. ولكنه كان يدرك أيضاً عناصر القوَّة والضعف في المهنة التي اختارها، وفهم أن قوَّة العلم لا يمكن تثبيت دعائمها على أرض خصبة إلا في داخل حقلها الخاصِّ بها. أي أن دارْوِن – باختصار – أقام آراءه عن العلم والأخلاق

على مبدأ الانفصال.

لم يستخدم دارْوِن نظريَّته عن التطوُّر للترويج للإلحاد أو للقول إنَّ من غير الممكن التوفيق بين تصوُّرنا لوجود الله وبين بنية الطبيعة. ما قاله هو أن الطبيعة الملموسة كما تُقرَأ داخل حقل العلم لا يمكنها أن تحلَّ لنا مشكلة وجود الله أو أن تعيِّن صفاته، أو أن تبيِّن لنا المعنى النهائيَّ للحياة، أو الأساسَ الصحيحَ للأخلاق، أو أيَّ مسألةٍ أخرى تقع داخل حقل الدّين. وبينما استشهد عددٌ كبير من المفكِّرين الغربيّين يوماً بمفهومٍ قاصرٍ عن الألوهية واستنتجوا استحالة صحَّة التطوُّر فإن دارْوِن رفض ارتكاب الخطأ المعاكس والادِّعاء بأن حصول التطوُّر يعني عدم وجود الله.

وسأمضي إلى أبعد من ذلك وأقول إننا كثيراً ما أسأنا تفسير رأي دارْوِن الأساسي حول العلاقات الصحيحة بين الطبيعة ومعاني الحياة البشرية. فموقف دارْوِن، وهو الموقف المستند إلى مبدأ الانفصال، موقفٌ صُلبٌ، شجاعٌ، يؤدّي إلى التحرُّر. ولكننا كثيراً ما اسأنا قراءة رؤيته وعددناها انهزاميَّةً، تشاؤميَّةً، تؤدّي إلى العبودية. وأنا أقترح أن نسمّي نظرة دارْوِن نظرية «الحمّام البارد» للطبيعة.

تتضمَّن الفكرة الأساسية ثلاث فرضيّات ترتبط بسلسلة محدَّدة من الدلالات:

(1) مقولة الانفصال الأساسية: حقائق الطبيعة هي حقائق الطبيعة، وليس بوسعها من حيث المبدأ أن تجيب عن الأسئلة الدينية حول الله

والمعاني والأخلاق.

(2) نظرتان للطبيعة: عندما تُقرأ الطبيعة في ضوء الأحكام الأخلاقية والجمالية الإنسانية فإنها تبقى حُرَّةً في اتِّخاذ أيِّ مظهر ما دامت لا تخضع لآمالنا وحاجاتنا الدينية. خذ هاتين الإمكانيَّتين المتطرِّفتين والإغراءات المختلفة التي توحيان بهما: ربما أن من حسن الطالع أن الطبيعة تتَّفق مع ما نفضِّله من حيث الدِّفء والغموض. قد تكون الكائنات العضوية لطيفة وجميلة في نظرنا، ولربما يسود التعاون السلميُّ بينها بدلاً من التنافس العنيف. وربَّما يروي جبلُ إشعياء المقدَّس، حيث يسكن الذئب مع الحمل ويربض النمر إلى جوار الجدي،[1] واقعَ الطبيعة الملموس وليس مجرَّد أحلامنا التي نشتهيها.

أما على الطَّرف الآخر فقد يندر أن تتَّفق الطبيعة وآمالَنا. وقد نضع الدودة الشريطية في مقابل الطاووس ذي الريش الزاهي. وقد نضع يرقات الإكنومن التي تنهش أحشاء الدودة مقابل كلِّ دلفين رفع قريباً لنا أصابه الإعياء من تحت الماء لكي يتنفَّس.[2] وقد نتحدَّث عن انتصارٍ تطوُّريٍّ نتيجة للتكيُّف بفقدان التعقيد في طفيلي غير ثابت الشكل في مقابل كلِّ انتصارٍ تطوُّريٍّ نتيجة للتكيُّف بازدياد درجة الذكاء عند كلِّ سَلَفٍ من أسلاف البشر.

---

(1) ثمة إشارة هنا إلى سفر إشعياء 11: 6.

(2) تُروى قصص كثيرة عن مساعدة الدلفين للبشر، أشهرها إنقاذ الشاعر اليوناني آريون من الغرق وحمله إياه حتى أوصله إلى اليابسة.

أما في منطق الانفصال فإن احتمال الصدق في أيٍّ من هذين الطرفين لا تأثير له. فلا نزال غير قادرين على استخلاص أيِّ درسٍ أخلاقيٍّ أو استنتاج دينيٍّ من البنية الحقيقية للطبيعة - لا من الدفء والغموض على هذا الطرف ولا من القبح البالغ منتهاه على الطرف الآخر. ولكننا جميعاً نعلم الضعف الأساسي عند بني البشر - وهو مَيْلُنا للتشبُّث بالأمل وتجاهل المنطق، ومَيْلُنا لأن نؤمن بما نشتهي وليس بما نرى. وبالنظر إلى هذا الضعف فإننا سنكون عرضة للإغراء الشديد لارتكاب الخطأ إذا ما مالت حقائق الطبيعة عند الطرف الأوَّل إلى أن تتوافق بالصدفة مع رغباتنا توافقاً عامّاً. وسنخضع عندئذ لإغراء خرق مبدأ الانفصال وللتسرُّع في مطابقة هذه الحقائق مع القيم والمعاني. أولن يكون وضعُنا أفضل إذا ما صادف أن الطبيعة تنقض آمالنا ورغباتنا معظم الوقت لأسباب لا تقلُّ خضوعاً للصدفة؟

(3) الحمّام البارد المنشِّط أفضل من حُضْنٍ يخنُقنا بدفئه؛ فالطبيعة محايدة من الناحية الأخلاقية - ليست مجافية للأخلاق، بل هي مشكَّلَة من دون الرجوع إلى هذا المفهوم الإنساني الصرف.

وإذا شئنا الحديث بلغة المجاز قلنا إن الطبيعة كانت موجودة لدهور بالغة الطول قبل أن نصلها، ولم تكن تعلم أننا قادمون، ولا يهمها أمرُنا في شيء. ولذا فإن حدوث الاحتمال البعيد الأوَّل وتوافق الطبيعة مع ميولنا الجمالية سيكون مستغرباً جدّاً؛ فالاحتمالات التي تتعارض مع هذه الصدفة - صدفة التوافق بين نظام مستقلٍّ قائمٍ مع مؤسَّسةٍ لا تقلُّ

عنه تعقيداً ظهرت بعد وقتٍ طويل لاحق – لا بدَّ أنها من الضخامة بحيث تفوق الخيال.

غير أن هذا التوافق لا وجود له، ولا يمكننا أن نتصوَّر وجوده إذا كنا صادقين مع أنفسنا؛ فالطبيعة لا تتوافق مع أيٍّ من هذين التعريفين الإنسانيَّين المتطرِّفين، والطبيعة لا تبدي أيَّ مَيْل إحصائي لأن تكون دافئة غامضة أو قبيحة مقزِّزة. كلُّ ما هنالك أن الطبيعة موجودة – بكلِّ ما فيها من تعقيد وتنوُّع، بكلِّ ما فيها من عدم اكتراث علوي برغباتنا. ولذا فإننا لا يمكننا الرجوع إلى الطبيعة من أجل استخلاص الدروس الأخلاقية أو للإجابة عن أيِّ سؤالٍ يقع في حقل الدّين، ولا يمكننا قطعاً أن نتبع الطريقة التقليدية القديمة المائعة فكريّاً في البحث عن اليقين الأخلاقي الكامن في ثنايا الطبيعة الدافئة الغامضة، ولا يمكننا حتى أن نقبل طريقة الحِجاج المناقضة لهذه التي جاء بها ت. ه. هَكْسْلي والتي تحدَّث عنها في أشهر مقالاته (**التطوُّر والأخلاق**، 1893)، ومؤدّاها أن الدرس الذي تعطينا إيّاه الطبيعة يجب البحث عنه في أنماط عملها ثم التصرُّف على نحوٍ معاكس لأن قواعد التطوُّر تخرق كلَّ معايير السلوك الأخلاقي الإنساني.

تتضمَّن ممارسةُ الأفضلِ أخلاقيّاً – أو ما ندعوه بالخير أو الفضيلة – منحى سلوكيّاً يتعارض من كلِّ النواحي مع ما يؤدّي إلى النجاح في الصراع الكوني للوجود، فهي تدعو إلى ضبط النفس بدلاً من فرضها بلا هوادة، وتدعو الفرد

لا إلى احترام الآخرين فقط بل إلى مساعدتهم بدلاً من الدعوة إلى دفع المنافسين جانباً أو إلى سحقهم بالأقدام... وهي ترفض النظر إلى الوجود على أنه حلبة صراع لا بدَّ أن ينتهي بالقضاء على أحد الجانبين ... إن القوانين والتوجيهات الأخلاقية يقصد منها لجم السيرورة الكونية.

أما دارْوِن فيقول إن علينا أن نعترف بدلاً من ذلك بأن الطبيعة لا تقدِّم لنا أي درس أخلاقي. أي علينا – بكلمات أخرى – أن نأخذ الحمّام البارد الأخير، وأن نندمج في الطبيعة، وأن ندرك أننا جئنا إلى المحلِّ الخطأ إن كنّا جئنا من أجل الدرس الأخلاقي. ولكن الحمّام البارد سيقوّينا، ولذلك فإننا لن نحسَّ بأنه يصدمنا ويثير فينا الإحساس بالكآبة، بل سينعشنا ويشعرنا بالحرِّيَّة. وإذا توقَّفنا عندئذٍ عن البحث عن الحقيقة الأخلاقية في الواقع المادّي فإننا قد نبدأ بالإحساس بسحر الطبيعة وقواها الوسعة التي تمكِّنها من حلِّ أسئلة مختلفة لا تقلُّ عنها أهمِّيَّة في داخل حقلها. وعندما نرفض الانصياع لأغاني الغاويات[1] في المصادر الزائفة فإننا نصبح أحراراً في البحث عن حلولٍ لأسئلة الأخلاق والمعاني في الأمكنة الصحيحة – داخل أنفسنا.

ذكرتُ في الفصل الأوَّل أنني أعدُّ رسالة دارْوِن إلى أَيْسا گري أفضل تعبير كُتِب عن العلاقة الصحيحة بين الطبيعة المادِّيَّة الملموسة والأخلاق الإنسانية، أو بين العلم والدين عموماً. وأعود الآن إلى المنطق الموسَّع

(1) *Sirens*: كنَّ يغنّين غناء ساحراً يغوي البحّارة بالاتجاه نحوهنّ، ولكن سفنهم تتحطم قبل الوصول. وأشهر قصَّة يظهرن فيها هي قصة يولِسيز.

الذي استخدمه دارْوِن في عرض فكرته لصياغة نظرية «الحمّام البارد» الخاصَّة بالطبيعة بصفتها مبدأَ الانفصال المحرِّر. فقد بدأ دارْوِن فيما نذكر بعدم ادِّعاء أيِّ دلالة للتطوُّر فيما يتعلَّق بالأمور اللاهوتية – باستثناء دحض الفكرة القديمة التي تستنتج وجود الله وصفاته من النظرة التي ترى الطبيعة خيِّرة بذاتها:

أما فيما يتعلَّق بالنظرة اللاهوتية عن الموضوع فإنها مصدرُ أَلَمٍ دائمٍ لي. أنا في حيرة شديدة من أمري. فلم أقصد أن أكتب ما كتبت من وجهة نظر إلحادية. ولكنني أُقِرُّ بأنني لا أستطيع رؤية الأدلَّة التي تثبت التخطيط والخير في كلِّ ما حولنا بالوضوح الذي يراها به الآخرون والذي أحبُّ أن أراها به.

كيف نفسِّر إذن حقائق الطبيعة، لا سيَّما تلك ننظر إليها باستهجان عندما نطبِّق عليها آراءنا الأخلاقية التي لا تنطبق عليها (كما في حالة يرقات الإكنومن التي تلتهم الحشرات المضيفة أو القطط التي «تلعب» بالفئران المنهكة)؟

أنا ميّال لأن أنظر إلى كلِّ شيءٍ على أنه نتيجة لقوانين وضعت بعناية، مع ترك التفاصيل، بخيرها وشرِّها، لما ندعوه بالصدفة.

ثمَّة ههنا أمران يستحقّان التوقُّف عندهما في هذه الفكرة المرهفة. الأوَّل أنَّ دارْوِن على استعداد لقبول الغائية الشاملة من حيث الميل الشخصي للاهتداء بها في حياته ولراحته، ولكنه يعرف أن أموراً كهذه

لا يمكن البتُّ فيها داخل حقل العلم - كما قال فيما بعد معبِّراً عن كون هذه الأمور «أعمق من أن يسبر العقل البشريُّ غورها». والثاني هو أن دارْوِن يميِّز على نحوٍ واضح بين الأمور النهائية التي لا يمكن أن نعرفها معرفة علمية وبين التفاصيل والأنماط المعيَّنة (حقائق الطبيعة الملموسة) التي يمكن وصفها وتفسيرها داخل حقل العلم. ثمَّ ينكر دارْوِن – بعد هذه المقولة الرئيسة من مقولات مبدأ الانفصال – أن بوسعنا أن نأمل بأن نرى يدَ الله في هذه الحقائق الملموسة أو أن نستخلص منها درساً أخلاقيّاً يعلِّمنا ماذا نفعل في حياتنا. وأنا أقدِّر على نحوٍ خاصٍّ دقَّة دارْوِن وعمق نظرته عندما يقول: «مع ترك التفاصيل، بخيرها وشرِّها، لما ندعوه بالصدفة».

لا يقصد دارْوِن بكلمة «الصدفة» ما نعنيه بها في كلامنا الدارج، أي «العشوائية» أو «غياب المعنى»، أو «عدم القدرة على التفسير». فهو بقوله «لما ندعوه بالصدفة» إنما يُدخِل نظرةً للحياة ليس لها اسم عنده، ولكن المؤرِّخين يطلقون عليها الآن مصطلح «الإمكان». وهذا يعني أن حقائق الحياة («تفاصيلها») موجودة لأسبابٍ مباشرة، محدَّدة، قابلة للمعرفة، خاضعة للتفسير العلمي. ولكن هذه الحقائق لا تتكامل بحيث تشكِّل نسيجاً واحداً لعالَمٍ جرى التخطيط له ويسير على نحو محتوم، لسقوط كلِّ ورقة ملوَّنة من زهوره ولكل قطرة من قطرات مطَره معنى مقصود.

قد يكون للكون رغم كلِّ شيء غاية ومعنى نهائيّان («أنا ميّال لأن

أنظر إلى كلِّ شيءٍ على أنه نتيجة لقوانين وضعت بعناية»)، وقد تكون قوَّة عاقلة متعالية ندعوها الله هي التي وضعت هذه الأشياء النهائية، ولكن موضوعات العلم القابلة للحلّ تقع في عالم آخر، في مستوى أدنى من تلك التي تنظر فيها التعميمات الفلسفية (التي قد تكون هي الأخرى قابلة للمعرفة). أضف إلى ذلك أن هذه الأشياء الصغيرة القابلة للمعرفة تظهر في عالم يتكوَّن من أجزاء معقَّدة يبلغ من كثرتها أن التنبُّؤ بالمستقبل لا يمكن تحقيقه على وجه اليقين، ودع عنك أمر الاستنتاجات المتعلِّقة بالمعاني النهائية. ونحن قد نستعمل قوانين الطبيعة ومعرفتنا بظروف معيَّنة لتفسير أحداث بعينها، بل حتّى لوضع نظريات عامَّة حول أنماط حقيقة في الطبيعة (وهذه أعلى غايات العلم). وبإمكاننا أن نعرف «ماذا» و «كيف» وحتى «لماذا» بمعنى تفسير حقائق معيَّنة بواسطة قوانين الطبيعة وخصائص المادَّة الثابتة. ولكن العلم لا معرفة له بالـ «لماذا» النهائية التي تسأل عن الغاية الكلِّيَّة والقيمة الأبدية.

دعونا الآن نتتبَّع تفسير دارْوِن نفسه في تلك المجموعة الأمثلة التي أجاد التعبير عنها أيما إجادة، ماضياً من الأشياء المبتذلة التي لا يمكن إنكارها إلى الدلالات الصعبة التي نفضِّل ألاّ نسلِّم بها والتي قصد منها إقناع صديقه أَيْسا گري، صاحب المشاعر الدينية التقليدية، وذلك لكي أبيِّن أنني لم أقدِّم تفسيراً شخصيّاً شاذّاً لمقولة دارْوِن عن «ترك التفاصيل، بخيرها وشرِّها، لما ندعوه بالصدفة».

يمضي دارْوِن ببطءٍ وحَذَرٍ، ولكن على نحوٍ منظَّم. فإن صَعَقَ

البرقُ رجلاً وَجَدَ نفسه على قمَّة تلٍّ في أثناء عاصفة رعدية فإن الحادثة تخضع للتفسير العلميّ الذي يقوم على قوانين عامَّة (من علمَي المناخ والكهرباء)، وعلى ظروفٍ معيَّنة (مكان الرجل في لحظةٍ معيَّنة). ولكنْ لا يستطيع أحدٌ أن يدَّعي أن موت الرجل كان من الممكن التنبُّؤ به بدقَّة لحظةَ مولدِه (ولا حتى قبل موته بساعة)، ولا أن يقول، على وجه الخصوص، إن المأساة حدثت لسبب تعود جذورُه للأخلاق الحميدة وللمعنى النهائيِّ للأشياء. فالمسكين وجد نفسه في المكان الخطأ في الوقت الخطأ. أما الطبيعة – وهي العمياء على عهدها من الناحية الأخلاقية – فقد اتَّبعتْ قواعدَها المعتادة. يقول دارْوِن: «البرقُ يقتل الإنسان، سواء أكان خيِّراً أم شرِّيراً، وذلك بفعل قوانين الطبيعة البالغة التعقيد».

ولئن خلت حادثة طبيعية مأساوية كهذه من المعاني الأخلاقية، فماذا نقول عن ولادة طبيعية مأساوية؟ يمضي دارْوِن بعد ذلك للقول إن إعاقة الطفل المعوَّق عقليّاً قد تعود للقواعد الوراثية ولعلم الأجنَّة الذي ينطبق على الظروف التي أوجدته. ولذا فإن حالته يمكن تفسيرها تفسيراً علميّاً. ولكن لن يقول أحدٌ سوى شخصٍ مبادئه الأخلاقية ملتوية إن إعاقة الطفل كانت مقصودة لأنها حدثت أو إن غاية لله النبيلة في مجملها تتحقَّق في ترصيع حياتنا بمصائب من هذا النوع. يقول دارْوِن: «إن الطفل (الذي قد يولد غبيّاً) يولَد بفعل قوانين أعقد». (كانت كلمة «غبي» في أيّام دارْوِن مصطلحاً فنِّيّاً يدلُّ على درجة معيَّنة من الإعاقة

العقلية، ولم تكن كلمة عامَّة للتحقير).

وهنا وصل دارْوِن إلى النقطة الحسّاسة في عرض فكرته، وهي أن حالات الولادة والموت قد تفسَّر تفسيراً طبيعيّاً، ولكن الأسباب العلمية لها لا تتضمن القول إنها أحداث حتمية في عالم أحداثه مقدَّرة، ولا تتضمَّن معنى أخلاقيّاً تحت القدرة الإلهية الكلِّيَّة. وهنا قد يقول مؤمنٌ بالوضع السابق، مفضِّلاً الحضور الأخلاقي الإلهيّ في الأحداث الواقعية الملموسة على إصرار مبدأ الانفصال على فصل الحقلين: «إن الله لا يشغل نفسه بمصائر الأفراد؛ وهو إنما يفسح المجال للمذهب القديم القائل بحرِّيَّة الإرادة. ولكن لا شكَّ في أن الله يسيطر على الأنماط الكبرى وعلى الأمور العامَّة لغايات أخلاقية. وهو قد يسمح لولادة فردٍ بأن تقع خارج عنايته، ولكنه لن يهمل ولادة نوع بكامله، لا سيما الإنسان العاقل الذي خلقه، والهدف الأسمى لكلِّ ما جاء قبله».

كان دارْوِن حتى هذه النقطة يحضِّر كَري إلى هذه الخاتمة منذ البداية. وعندما وصلها انتقل إلى تسديد الضربة القاضية. فلماذا يُعطى النوعُ الواحدُ مرتبةً أعلى من مرتبة النوع الفرد بين كلِّ الأنواع الأرضية الأخرى على مدار الزمن الجيولوجي بكامله ما دام الطفلُ الفردُ ليس سوى فرْدٍ من بين أفراد النوع البشري؟ ولماذا ينظر إلى الإنسان العاقل على أنه الهدف وأنه ظاهرة عامَّة بينما لا يعامَل الفاركدُنوتس پركارِناتس،(1) الذي عاش زمناً أطول وكانت أعداده أكبر، إلاّ بوصفه

(1) *Pharkidonotus percarinatus*

حدثاً عابراً من أحداث التاريخ؟ (هذا الحلزون المتحجِّر له مكانة خاصّة عندي – ولست أخترع حكايته اختراعاً). وما الذي يجعلنا نعطي إلى نوع الإنسان العاقل مكانة تفضيلية من بين مئات ملايين الأنواع الأخرى التي زيَّنت تاريخ كوكبنا هذا سوى الاستعلاء الخطير الذي لا مسوِّغ له؟ لذا فإن الوجود الإنساني يجب ألاّ يُنظر إليه إلاّ بوصفه «حدثاً عابراً ... ترك لما ندعوه بالصدفة». وقد كنا اتَّفقنا على أن موت الرجل صعقاً وولادة الطفل بإعاقةٍ شديدةٍ ليسا سوى حادثين لا يتضمَّنان رسالة أخلاقية ولا يكشفان عن معانٍ نهائية.

يقول دارْوِن: «ولست أرى أن ثمة ما يمنع أن يكون الإنسان أو أيُّ حيوان آخر قد أوجدته قوانين أخرى».

كتب دارْوِن هذه الرسالة لگريْ في 22 أيّار 1860. وقد استثار ردَّ گري عليها ردّاً آخر في شهر تمّوز عبَّر فيه دارْوِن تعبيراً أقوى عن أن حقائق الطبيعة، حتى تلك التي نحبُّها أكثر من غيرها (عن أصل النوع الذي ننتمي إليه على وجه الخصوص) لا تكشف عن أهداف الله أو عن المعنى النهائي للحياة:

كلمة أخيرة عن «القوانين التي توضع بقصد» وعن «النتائج التي تحدث من غير قصد». أرى طيراً أريده طعاماً لي، فآخذ بندقيَّتي وأقتله، أي أنني أقصد قتله. ثمة رجل بريءٌ طيِّب يقف تحت شجرة فتقتله الصاعقة. هل ترى (وهنا أودُّ حقّاً أن أسمع رأيك) أن الله قصد أن يقتل ذلك الشخص؟ .. إن كنت ترى

ذلك، فهل ترى، عندما يختطف طائرٌ من طيور السنونو حشرةً، أن الله قصد أن يختطف ذلك السنونو تلك الحشرة في تلك اللحظة؟ أنا أرى أن الإنسان والحشرة يواجهان المأزق نفسه. وإذا لم يكن موت الإنسان والحشرة مقصوداً فإنني لا أرى أن ثمة سبباً يجعلني أعتقد أن ولادتهما الأولى كانت هي الأخرى مقصودة.

أما أولئك الذين يجدون هذا الحمّامَ البارِدَ قابضاً للنفس، ويشعرون أن نوعيَّة الحياة الإنسانية ترخُصُ وتنحطُّ في عالمٍ يخلو من المعنى الداخلي المسجَّل وفق هوانا نحن، ويخشون أن عجزنا عن استخلاص الحقيقة الأخلاقية من حقائق الطبيعة لن يؤدّي إلا إلى نسبيَّةٍ أخلاقيَّةٍ مدمِّرةٍ (أو حتى لإنكار وجود الأخلاق أو أهمِّيَّتها أصلاً) فلا أستطيع أن أقول لهم إلاّ أن يُصغوا للقراءة المغايرة التي دعا لها دارْوِن وكما تتمثَّل في مبدأ الانفصال.

هل هنالك ما هو أشدُّ تضليلاً، بل أشدُّ خطراً، من الطمأنينة الزائفة التي تعمي بصرنا وتجعلنا سلبيّين؟ فإن كانت الحقيقة الأخلاقية موجودة «هناك» في الطبيعة، فلن يكون ثمة من داعٍ يدعونا للصراع مع الحيرة التي نعاني منها أو مع الآراء المتباينة لبني البشر الآخرين في عالمنا المتنوِّع هذا. ويمكننا أن نتَّخذ الموقف الذي يفوق هذا سلبية والمتمثِّل في مراقبة الطبيعة (أو في قبول ما يقوله لنا «الخبراء» عن الواقع الملموس) وفي تقليد ما نراه. ولكن إذا ثبت مبدأ الانفصال وبقيت الطبيعة محايدة

(فيما هي تتفجَّر بالمعلومات التي تُبَهِّر مجادلاتنا الأخلاقية) فلن يكون بوسعنا تحاشي الواجب الأصعب، ألا وهو النظر في داخلنا نحن، وهو ما سيمنحنا الحرِّيَّة في النهاية.

أنا لا أنكر الراحة التي كانت تأتينا من الآراء السابقة التي جزَّأت مبدا الانفصال ووصفت العالم وصفاً يوافق آمالنا وقوانا المزعومة. قد تزوِّد مقولة «كلُّ شيءٍ تحت قدميه» الجسد بالطاقة مثلما قد تزوِّد مقولة «كلُّ شيء بهيٌّ وجميل» الروح بالطاقة. ولكن هذا الطعام قد لا يكون سوى سُمٍّ تحت طبقةٍ من السُّكَّر. والحكمة المتراكمة من كلِّ الطبقات في كلِّ الثقافات - من بذخ جبروت الماضي وقد انتهي ولم يبق منه سوى ساقين في الصحراء في قصيدة شلي «أوزيمانْدْيَس»[1] إلى المصير المحتوم للمصارعين الخُرْق («كلما زاد وزنهم زاد سقوطهم دويّاً») - هذه الحكمة تدعو لفضيلة التواضع الحصيف ولوضع القوَّة الحقيقية في عالم الفعل الصحيح الفعّال.

وأودُّ الآن أن أقدِّم فكرتين مضادَّتين وقطعةً للتعزية لكلِّ من يشعر بأن عزيمته تخور إذا ما صحَّ أن حياته في هذا الكون ليست سوى نقطة صغيرة في كون هائل لم يصمَّم لنكون فيه. فكِّر أوَّلاً بالسحر الأعظم وبالتحدّي الفكري الأكبر الذي يفرضه عالَمٌ مجهول ولكنه قابلٌ لأن يُعرَف في مقابل الكون المألوف «الأقرب منا» الذي لا يعكس إلا آمالنا

(1) هذه قصيدة من عيون الشعر الإنكليزي يصوِّر الشاعر پيرسي بيش شلي فيها حكايةً يحكيها مسافرٌ رأى بقايا تمثال عظيم لم يبق منه سوى الساقين وجزءاً من الوجه يصوِّر جبروت الملك الذي كان يتحدّى المارَّة بقوله: «انظروا إلى أعمالي أيها العتاة وايأسوا!»

وحاجاتنا. ثمَّ تأمَّل ثانياً في السعادة الغامرة التي يمكن أن تحصل عندما تتحقَّق مقولة سقراط «اعرفْ نفسَك» بالتعمُّق الحثيث في الطبيعة البشرية في داخلنا بدلاً من التشرُّب السلبي بالطبيعة الخارجية العامَّة في سعينا لتحديد أهداف حياتنا.

أما قطعة التعزية التي أقدِّمها فهي سونيتة رائعة لروبِرْت فْروسْت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأفكار دارْوِن التي تضمَّنتها رسالته إلى گري (وهو ركنٌ آخر من أركان نيو إنگلند) - ارتباطاً يجعلني أعزو إلهام الشاعر إلى معرفته الوثيقة بكتابات دارْوِن (وهي معرفة تعبِّر عنها عدة قصائد أخرى).

يلتقي فْروسْت في أثناء مشيه في صباح أحد الأيّام بثلاثة أشياء بيضاء متَّصلة لكلٍّ منها شكل مختلف، فيقول إن هذا الترابط الغريب، المناسب مع ذلك، لا بدَّ أنه يدلُّ على قصدٍ ما، إذ لا يمكن أن يكون ذلك قد حدث عرضاً. ولكن إن كان القصد جليّاً حقّاً فماذا نفعل في كوننا؟ ذلك أن المشهد مشهد شرٍّ مهما كان المقياس الأخلاقي الإنساني. علينا أن نستمدَّ العون من حلِّ دارْوِن الصحيح: نحن إنما نتفرَّج على واحدة من تلك «التفاصيل» التي تنتمي، سواء أكانت خيراً أم شرّاً، إلى حقل «ما ندعوه بالصدفة». الغاية[1] لا تحكم هنا:

(1) الكلمة الأصلية هنا هي *Design*، وهي في الواقع عنوان القصيدة. ويمكن ترجمة الكلمة بكلمات أخرى منها الهدف، التخطيط، التصميم.

وجدتُ عنكبوتاً مبقَّعاً، سميناً أبيض،
على نبتة الشفاء البيضاء،[1] ممسكاً بعُثَّةٍ
تشبه قطعة بيضاء من السَّتان اليابس –
ثلاث شخصيّات يتمثَّل فيها الموت والبِلى
اختلطت لتبدأ نشاطها الصباحيّ بداية صحيحة
كأنها عناصرُ في مستحضر الساحرات.
عنكبوت أبيض مثل الشقّار البرّي،[2] وزهرة كأنها الرغوة،
وجناحان ميِّتان كأنهما طائرة ورقية.
ماذا تفعل الزهرة باللون الأبيض
وبنبتة الشفاء البريئة، ذات الزهور الزرقاء على جانب الطريق؟
وما الذي جاء بالعنكبوت القريب إلى ذلك الارتفاع
ثم وجَّه العُثَّة البيضاء إلى هناك في ظلام الليل؟
ما الذي فعل ذلك إلا الظلام بقصد الترويع؟
إن كان القصد يتحكَّم في أشياء بهذا الصغر.

إن الإنسان العاقل يعدُّ أيضاً شيئاً «بهذا الصغر» في كون هائل، حدثاً تطوُّريّاً بعيد الاحتمال جدّاً، وليس محور القصدية الكونية. واستنتجْ من ذلك ما تريد.

(1) هذه ترجمة لاسم النبتة بالإنجليزية *heal-all* واسمها العلمي هو *Prunella vulgaris*. ولها زهور زرقاء مزدوجة الشفتين تنسب لها خصائص شافية أعطتها اسمها الدارج.
(2) «نبات عشبي معمَّر من الحوذانيّات يُزرع لأزهاره المدلاّة الفوّاحة البيضاء» – معجم الشهابي.

يجد بعض الناس ذلك قابضاً للنفس. أما أنا فقد وجدته منعشاً باستمرار – مصدراً للحرِّيَّة وما تستتبعه من مسؤولية أخلاقية. إننا أبناء التاريخ، وعلينا أن أن نجد طرقنا في أشد الأكوان تنوُّعاً وإثارة للفضول. وهو كون لا يكترث بآلامنا، ولذلك فإنه يقدِّم لنا أقصى درجات الحرِّيَّة لأن ننجح أو نفشل على طريقتنا نحن.

طريقان لا يؤدّيان إلى التوفيق بين المذاهب

يسرُّني دائماً أن أتعلَّم كلمة جديدة. ويعلم الله أننا نخترع الكثير من الكلمات في مجال عملي العلمي. وقد صادفتُ قبل بضع سنوات مصطلحاً لاهوتيّاً راق لي لما فيه من بُعْدٍ عن المألوف ولما فيه من عذوبة النغم: irenics (من الكلمة اليونانية التي تعني «السلام»). ويُعرَّف المصطلح بأنه نقيضٌ للجدل الذي يشكِّل فرعاً من اللاهوت المسيحي، وبأنه يعرض «نقاط التوافق بين المسيحيين بهدف تحقيق الوحدة بين المذاهب المسيحية» (**قاموس أوكْسفُرد للغة الإنكليزية**). وإذا توسَّعنا في معنى الكلمة (وقد خرجت الكلمة من دائرة اللاهوت وأصبحت تُستَخدَم استخداماً عامّا باللغة الإنكليزية) قلنا إن وصف الناس بالموفِّقين والمقترحات بالتوفيقية يعني «تشجيع الوئام، لا سيَّما فيما يتعلَّق بالاختلافات اللاهوتية والكنسية».

وأنا توفيقيٌّ بطبعي – وأحسب أننا جميعاً ننظر إلى أنفسنا على هذا النحو مهما كان لدينا من ميولٍ وطبائعَ خاصَّة بنا تقف في سبيل التوفيق. وهذا الكتاب يدعو إلى حلٍّ توفيقيٍّ تحت مظلَّة كبيرة تمتدُّ إلى أبعد من التعريف المسيحيِّ الرسميِّ الخالص الذي ذكرتُه. وأنا أنضمُّ إلى جميع الناس الطيِّبين الذين يحبّون أن يروا المؤسَّستين القديمتين العزيزتين، صخرتي الزمن – العلم والدين – وهما تتعايشان بسلام بينما تعمل كلٌّ منهما لصنع رقعتها الخاصَّة بالقميص الملوَّن المتكامل الذي سيبرز تميُّزنا

في حياتنا ولكنه سيستُرُ عُرْيَنا بغطاءٍ يخلو من التلفيق اسمُه الحكمةُ.[1]

لا شكَّ في أن التوفيق أفضلُ من الجدل القائم على افتراض صراع لا مسوِّغ له بين العلم والدين – وهو نموذج مضلِّلٌ تماماً (الفصل 2) يغلب أن يشغلنا بأسباب تاريخية (الفصل 3) أو نفسية (الفصل 4) غير منطقية. وأنا لا تخور عزيمتي عندما أجد أن بعض زملائي يقدِّمون إلحَادهم الخاصَّ (وهذا من حقِّهم طبعاً، ولا أنكر أنني أظهر شكوكي أنا أيضاً) على أنه الحلُّ الأمثل للتقدُّم البشري في مقابل الصورة الكاركاتيرية التي يرسمونها «للدّين»، وذلك بتصويره وكأنه رجلٌ من قشٍّ يصوِّبون نحوه سهام بلاغتهم. لا يجوز أن يقال إن الدّين هو الفهمُ الحرفيُّ لما يرد في سفر التكوين، أو إنه معجزة تسييل دم القدّيس جانْيوارِيَس[2] (وهي معجزة أقلُّ ما يمكن أن يقال فيها إنها تشكِّل عذراً لإقامة ذلك الاحتفال السنوي الرائع المسمّى احتفال سان جنارو في شوارع نيو يورك)، أو

---

(1) «القميص الملوَّن» باللغة الإنكليزية هو *coat of many colors*، وهذه عبارة ترد في بعض ترجمات الكتاب المقدَّس إلى الإنكليزية لما يرد في سفر التكوين 37: 3. أما العبارة العربية فهي الترجمة التي وجدتها في كتاب الحياة وكذلك في ترجمة ڤان دايْك للكتاب. والعبارة تشير إلى الثوب الذي صنعه يعقوب لابنه يوسف فأثار حسد إخوته. ومن حسن الصدف أن كلمة «التلفيق» (بالمعنى الشائع هذه الأيّام) مشتقَّة من الفعل «لَفَقَ»، ومعناه «ضم إحدى الشقَّتين [شقتي الثوب] إلى الأخرى وخاطهما» (**المعجم الوسيط**). وهو المعنى الذي يقصده المؤلِّف على المستويين الحرفي والمجازي.

(2) *Saint Januarius*: قدّيس إيطالي يقال إنه قُتِل في سنة 305 في أيام الاضطهاد الديوكليتي في عهد الإمبراطور ديوكليتيانوس، واحتفظت امرأة ببعض دمه المتخثِّر في زجاجة، وتحدث معجزة تحوُّله إلى سائل كلَّ سنة في 19 أيلول. وأما صيغة «سان جِنارو» فهي الصيغة الإيطالية من الاسم.

إنه الرموز الكتابية للكابالا، أو أشكال الوعظ الديني في وسائل الإعلام الحديثة.[1] وإذا ما أراد هؤلاء الزملاء محاربة الخرافة واللاعقلانية والجمود والجهل والتعصُّب وعدد كبيرٍ آخرَ من الأمور التي تُشَكِّلُ سُبَّة في حقِّ الذكاء الإنساني (وكثيراً ما تكون أدواتٍ سياسيّةً لبست لبوس الدّين للقتل والطغيان) فليباركْهم الله – ولكن عليهم ألاّ يطلقوا على عدوِّهم هذا اسمَ «الدين».

أمّا أنا فأصبُّ اللعنات على النحو نفسه (طبعاً) على أولئك المتعصِّبين والذين يدَّعون أنهم هم «أصحاب العقيدة السليمة» ويستعملون اسم الدّين النبيل لأغراض مِلَّتهم لطمس حقائق العلم التي لا تريحهم، أو لفرض نمطهم الأخلاقيِّ الخاصِّ على أناسٍ لهم ذائقةٌ مشروعة تختلف عن ذائقتهم. والحياة العَمَليَّة قصيرةٌ، ومع أنني لا أنكر أنني مررت بلحظات كوميدية تبعث على الرضا، وأنجزت بعض الأشياء التي تبعث على الاعتزاز، فإنني أفضِّل أن أقضي وقتي في دراسة تطوُّر حلزونات جزر الهند الغربية وأحافيرها على مقارعة المتمسِّكين بحرفية قصَّة الخَلْق الكتابية. وفي هذا ما يكفي.

ما شكلُ التفاعل المرغوب فيه بين العلم والدّين إذا قبلنا المقولة البديلة التي تدعو لأن يسود الوفاق بينهما؟ أودُّ في عرضي الختامي للأفكار الداعية للانفصال على أنه أفضل أشكال التوفيق وأجداها أن أعود إلى مبدأ مهمٍّ من مبادئ الحياة الفكرية تناولته سابقاً بنوعٍ من التهويل

(1) من المعروف أن بعض الشخصيّات الدينية تمارس تأثيراً بالغاً في الحياة الثقافية في الولايات المتحدة باستخدام وسائل الإعلام الحديثة، لا سيَّما التلفزيون.

الأسلوبي، ولكنه مبدأٌ يتجسَّد في «مبدأ صاحبة الجدائل الذهبية»[1] القاضي بالنسبة الصحيحة بين ما هو أكثر من اللازم وما هو أقلّ من اللازم، بين ما هو أطرى من اللازم وما هو أصلب من اللازم، بين ما هو أسخن من اللازم وما هو أبرد من اللازم. إن مبدأ الانفصال يمثِّل الدرجة الصحيحة من الصلابة، والكمية الصحيحة من الشوفان مع الدرجة الصحيحة من الحرارة. والانفصال يحترم الاختلافات الشديدة في المنطق بين المحاجَّة العلمية والمحاجَّة الدّينيَّة. وهو لا يسعى إلى مزيج مزيَّف منهما، ولكنه يدعو الطرفين المختلفين إلى بقاء كلٍّ منهما في حقله، وإلى تطوير أفضل الحلول لأجزاء معيَّنة من الحياة الشاملة، وإلى الاستمرار في الحوار باحترام متبادل، مع التنبُّؤ المتفائل بقيمة الضوء الذي قد يلقيه كلُّ حقلٍ على الحقل الآخر، أي إلى «شَحْذ اللسان بدلاً من شَحْذ السِّنان» بحسب مقولة چيرچل.

يعطينا حلُّ صاحبة الجدائل الذَّهبية درجة الصلابة الصحيحة في العلاقات الواسعة، مع الاحترام للاختلافات الطبيعية، والمقدار الصحيح من الحوار لأتباع الموضوعين المختلفين، ودرجة الحرارة الصحيحة للمكوِّنات التي لا تمتزج. سمِّ مبدأ الانفصال توفيقاً فعّالاً إن

---

(1) صاحبة الجدائل الذهبية هي الطفلة التي تظهر في قصَّة صاحبة الجدائل الذهبية والدببة الثلاثة، وهي لا تأكل إلا من الطعام الذي حرارته مناسبة، ولا تنام إلاّ على السرير الذي قساوته مناسبة. وقد ارتبط اسمها بعدد من العلوم، حيث يكون الشيء مناسباً تماماً، كالاقتصاد الذي لا يعاني من الركود، ولكنه لا ينمو بسرعة كبيرة. راجع *http://en.wikipedia.org/wiki/The_Story_of_the_Three_Bears*

أردت. سيكون الحوار حادّاً جارحاً أحياناً؛ ستثور أعصابُ المتحاورين نتيجةً لطبيعتنا البشرية التي لا يمكن إخمادها؛ ولكن احترام الاختلافات المشروعة والتسليم بأن الأجوبة الكاملة تحتاج إلى مساهمة الجانبين كفيلان بالحفاظ على حقلٍ يثير اهتمامهما معاً ويسود فيه الصراع الشريف الخلاّق.

أما فيما يتعلّق بموضوع الأعداء الداخليين في مقابل الأعداء الخارجيين، فإن دعاة الصراع المعارضين للتوفيق الذين يخرقون مبدأ الانفصال عن طريق توسيع حقلهم والتعدّي على الحقل الآخر يشكِّلون تهديداً أعظم بتأثير الأفكار التقليدية عن الصراع المكشوف. ولكنهم يتمتَّعون بميزة كونهم «أعداء خارجيين»: نحن نعرف أين يقفون ونعرف كيف نردُّ عليهم. غير أن ثمَّة بين دعاة التوفيق منهجين يعملان على تخريب مبدأ الانفصال من داخله بالسعي للسلام بين العلم والدّين في ظلٍّ استراتيجيّات تشلّ فعّالية الانفصال. وأنا أنظر إلى هذين النوعين البديلين من التوفيقية على أنهما الطرفان البعيدان في بيتٍ واحد (بيت السلام في حالتنا هذه)، وهما الطرفان اللذان رفضتهما صاحبة الجدائل الذهبية وفضَّلت الطريق الأوسط بدلاً منهما.

لا يزال البديل الأوَّل - الأسخن والأطرى والأكثر من اللازم - يدهشني بقدرته على البقاء، بل حتى النموّ، في وجه التناقضات الداخلية الضخمة التي كان يجب أن تقضي على فكرة ضالَّة منذ أزمان طويلة. هذه المدرسة التلفيقية syncretic لا تزال تحتفظ بأقدم وهمٍ من الأوهام

وتعدُّه مقولتها الأساسية: وهو أن العلم والدّين يجب أن يندمجا في عائلة كبيرة واحدة أو أن يدخلا في قَرْنٍ واحد من البازلاّء حيث تدعم حقائق العلم المفاهيم الدينية، وحيث يُظهِر الله يده (وعقله) في طريقة عمل الطبيعة. (تتضمَّن كلمة syncretic معانيَ إيجابيةً وأخرى سلبية. والمعنى الذي أستعمله هو المعنى السلبيُّ الذي يعطيه **قاموس وبستر الجديد العالمي الثالث**: «التسوية الصارخة في الدّين أو الفلسفة؛ الانتقائية التي تخلو من المنطق وتؤدي إلى انعدام الاتِّساق: القبول غير النقدي للمعتقدات والمبادئ المتعارضة أو المتباعدة»).

وأنا كثيراً ما تثير التلفيقية الحديثة أعصابي. أستطيع على الأقلّ أن أجد بعض العزاء في إحدى صيغها المعاصرة – من وجهة نظر العالم الضيِّقة على الأقلّ. أما الصِّيغ الكلاسيكية القديمة من التلفيقية فظلَّت على الدَّوام تهزُّ الرأس خضوعاً لله – أي إن الدّين وضع الحدود التي يطلب من الجميع قبولها، وكان على العلم آنذاك أن يطيع. وتطلَّبت التوفيقية بهذا الشكل القديم أن تؤدّي مبادئ العلم ومكتشفاته إلى نتائجَ دينيَّةٍ معروفةٍ صحَّتُها مقدَّماً. وقد شكَّل هذا الاتِّفاقُ مع الدّين أهمَّ اختبارٍ لقوَّة العلم وصحَّته. فلم يشكّ تومَس بيرْنِت مثلاً أن القصة الكتابية تاريخ الأرض الفعلي؛ أما وظيفته العلمية بحسب ما وصل إليه علمُه فتطلَّبت منه إثبات هذا التاريخ المعروف بالرجوع إلى القوانين الطبيعية لاكتشاف الأسباب بدلاً من اللجوء إلى المعجزات.

ولكن ما حقَّقه العلمُ من نموٍّ مذهلٍ ونجاحٍ عظيمٍ جعل من الضروري

اللجوء إلى صيغٍ أحدثَ من التلفيقية. فقد غدا من الضروري قبول ما توصَّل إليه العلمُ من استنتاجات أوّلاً وتوجَّب على التفسيرات الدّينية أن تُعَدَّل لتتوافق والنتائج العلمية التي يمكن التشكيك فيها ضمن حقل المعرفة الطبيعية! لقد حدث الانفجار العظيم، وعلينا الآن أن نجد الله في ذلك الحدث الأصلي المهيب.

أنا آسف. أعرف أن عليّ ألا أستخدم أسلوب الاستخفاف هذا، لا سيَّما في جزء من الكتاب يتناول موضوع التوفيق (وفي هذا ما فيه من المفارقة). ولكنني أجد أن الأفكار التلفيقية بالغةُ الضعف والتهافت، وأنها لا تقوم إلاّ على الأمل، وأنها مذعورة بسبب الطرائق والمعتقدات السابقة، ولذا فإنني أجد صعوبة في التعامل معها بهدوء.

وأشعر أيضاً بحساسية خاصَّة حول هذه القضية لأن طوفاناً من التهويل الإعلامي رافق هذا الموقف التلفيقي في أثناء كتابة هذا الكتاب في صيف سنة 1998 كما لو أن حجَّة مقنعة جديدة مدهشة قد صيغت أو كأن اكتشافاً مذهلاً قد غيَّر الوضع تغييراً أساسيّاً. أما الحقيقة فهي أنه لم يطرأ جديدٌ على الإطلاق، بل ظلَّت الأقوال القديمة تتردَّد وقد عادت إلى مهرجان الإعلام لأن مؤسَّسة ج. م. تمپلتن التي أنشأها الثريُّ الذي سُمِّيت المؤسَّسة باسمه لدعم برنامج التلفيق تحت غطاء النقاش العام لموضوع العلم والدّين صَرَفَت مبلغ مليون وأربعمائة ألف دولار للإعلان عن مؤتمر في بيرْكْلي بعنوان «العلم والبحث الروحي».

وما حدث يعطينا مثالاً حقيقياً عن عملية الخَلْق من العَدَم – أقصد

اختراع قضية بفعل التقارير الصحفية وليس بقوّة الحجّة أو محتوى المادّة الإعلامية. فقد أخذت ثلاثة مصادر إعلامية كبرى تبشّر بإنجيل التلفيق في عناوينها وتقاريرها الباهتة التي تخلو من القراءة المتفحّصة: «الدّين والعقل معاً ثانية» (**صحيفة وول ستريت** في 12 حزيران)؛ «العلم والدين: ردم الهوّة الكبيرة» (**نيو يورك تايمز**، 30 حزيران)؛ وقصة أعلن عنها على غلاف مجلّة **نيوزويك** (20 تمّوز) بعنوان «العلم يكتشف الله». أما العلماء فقد أذهلهم هذا الادّعاء الأخير، ولكننا واثقون الآن من صفة واحدة من صفات الله: إن اسمه يساعد على رواج الصحف والمجلاّت.

اعترفت مقالة صحيفة **التايمز** بالكسل الفكري الذي رافق أعمال المؤتمر: «ساد جوٌّ من تهذيب مدارس يوم الأحد لقاءات المؤتمرين فخلت من المواجهات المشبوبة التي قد نتوقّعها من موضوع مشحون بالعاطفة مثل هذا الموضوع... وصفّق الحاضرون بعد تقديم كلّ ورقة كما تدعو اللياقة. ولكن لم يكن هنالك أيُّ شعورٍ بالإثارة الفكرية».

ولكن من أين يمكن لهذا الشعور بالإثارة أن ينشأ من حيث المبدأ؟ فإن صحَّ مبدأ الانفصال (وهذا الكتاب مخصَّص بكامله لإثبات صحَّته) فإن الحقائق والتفسيرات التي تنتج من حقل العلم لا يمكنها أن تثبت أقوال الدين أو أن تدحضها. ولو نظرنا في الحجج التي قيل إنها تدعم فكرة التلفيق/التوفيق[1] كما روتها هذه التقارير فإنها تتشكّل جميعاً من أقوال فضفاضة تملأها الاستعارات والتهافت المنطقي. وهذه ثلاثة

(1) أستخدم الكلمتين معاً مقابل *syncreticism* لأن التلفيق يدلُّ على نظرة المعارضين والتوفيق يدلُّ على نظرة المؤيِّدين. والمعنيان مقصودان في نظري.

أمثلة لم أقصد أن تكون أشدَّها سخافة، ولكنها تمثِّل ما سيقَ من أفكار مطروحة:

(1) استعارة هُلامية تقدَّم على أنها محتوى حاسم. تروي مجلَّة نيوزويك المزج الآتي بين المسيح ونظرية الكمّ:

خذ المفهوم المسيحيَّ الصعب الذي يجعل يسوع إلهيّاً كاملاً وإنسانيّاً كاملاً. نكتشف أن هذه الازدواجية لها ما يماثلها في فيزياء الكَمّ. ففي السنوات الأولى من هذا القرن اكتشف الفيزيائيّون أن كياناتٍ كان يظنُّ أنها جزيئات مثل الإلكترونات يمكنها أيضاً أن تتصرَّف على هيئة أمواج... والتفسير المعتاد لهذا الوضع الغريب هو أن الضوء موجة وجزيء في الوقت نفسه... وهذا هو حال يسوع فيما يقول عالم الفيزياء ف. رَسِل سْتانَرْد من الجامعة المفتوحة في إنكلترة. أي إن يسوع يجب ألاّ ينظر إليه على أنه الله على هيئة إنسان أو على أنه إنسان يتصرَّف كأنه الله، فيما يقول ستانَرد. «إنه الاثنان معاً».

ماذا تراني أفهم من ادِّعاء كهذا؟ أن وضع المسيح بصفته إلهاً وإنساناً (وهو مفهوم أساسيّ في الثالوث) يجب أن يؤخذ على أنه حقيقة واقعة لأن الإلكترونات وغيرها من المكوِّنات الأساسية يمكن النظر إليها على أنها إما أمواج أو جزيئات؟ أنا لا أفهم ما الذي تؤدّي إليه أمثل هذه المقارنات سوى أنها تثبت أن العقل البشري يمكنه قبول المتناقضات (وهذه نقطة تثير الاهتمام بحدِّ ذاتها من غير شكّ، ولكنها لا تقول لنا شيئاً عن الطبيعة الحقيقية لله)، وأن الناس قادرون على اختراع أغرب الاستعارات.

(2) التعلُّق بحبال الهواء بناء على التماثل السطحي. تعطينا **صحيفة وول سْتريت** المثَلين المدهشين الآتيين على الفكرة التلفيقية التي تقول إن العلم يستطيع إثبات الدعاوى الروحية. إذ يقال لنا أوَّلاً إن دارْوِن نفسَه كان من أشد التلفيقيّين:

مما يثير الدهشة أن أوَّلَ من أعاد توحيد العلم والدين هو دارْوِن. فقد قال المؤتمرون إنه حطَّم التصوُّر الذي يجعل الله ساعاتيّاً غائباً وأعاد فكرة الحضور الدائم لله التي نجدها في المزامير. فقد مكّننا دارْوِن، بحسب ما يقوله آرثر پيكك، «من استعادة التأكيد على النظرات القديمة» التي تظهر أن «الله يخلق طوال الوقت».

هنا أيضاً ماذ أستنتج من هذا النوع من التفكير الضبابي؟ هل ثبتت الفكرة القديمة عن الله الخالِق لأنّ دارْوِن استعمل اللغة التطوُّرية ليصف تاريخ الحياة؟ لقد كنتُ أحسب أن إله كثيرٍ من المسيحيّين وقف عملية الخلق هذه على الأيّام الأولى من تاريخ الحياة. أم ترى أن إله السيد پيكك أعاد تجهيز نفسه بلغة العلم الحديث الرائجة؟

ثم نجد بعد ذلك أن سفر التكوين وجد ما يدعمه في آخر التطوُّرات التي حدثت في علم أصل الكون:

إن الانفجار العظيم الذي يعتقد أنه حدث قبل خمسة عشر بليون سنة يتَّفق اتِّفاقاً دقيقاً مع سِفْر التكوين.

قولوا لي بالله عليكم، ما معنى الاتِّفاق الدقيق؟ هناك من يقول إن التكوين حصل قبل أقلّ من عشرة آلاف سنة. أضف إلى ذلك أن الانفجار العظيم لا يمكن تقديمه على أنه فِعْلُ الخلق الأول للكون من العدم. فالانفجار العظيم لا يحدِّد بداية خلق المادَّة – وهذا موضوع يقع خارج حقل العلم. أما الانفجار العظيم فلا يعدو كونه نظريةً عن أصل العالم المعروف. وهذه النظرية العلمية لا يمكنها من حيث المبدأ أن تحدِّد ماذا حدث قبل ذلك، هذا إن حدث شيء (وإذا كان لفكرة كهذه أيُّ معنى) لأن أيَّ تاريخ سابق يمَّحي إذا كانت مادَّة الكون تنتهي عند نقطة حاسمة كتلك.

(3) منطق قديم مفلوج. أما تحفة التلفيق الحديث، بقدْر ما وصل علمي مما قرأته في الصحف على الأقلّ، فتكْمُن فيما يُدعى بالمبدأ الإنساني – وهذا مبدأ له من التعريفات بعدد مؤيِّديه، وهو مبدأٌ أرى أنه بالغُ التفاهة «بِصِيَغِه الضعيفة» (وهذا وَصْفُ مؤيِّديه له، وليس حُكمي أنا عليه) أو بالغُ التهافت في منطقه «بِصِيَغِه القويَّة». وتفسِّر **صحيفة وول سْتريت** المبدأ الإنساني بأنه «أكبرُ تلميح» إلى حضور الله في مكتشفات العلم:

معنى هذا أن الحياة المعقَّدة التي تقوم على عنصر الكربون – أي نحن – لا يمكن أن توجد إلاّ في كونٍ تكون العوامل الطبيعية الثابتة قد رُتِّبَت على هذا النحو. خذ مثلاً نسبة الجاذبية للكهرومغنطيسية: لو زادت نسبة الجاذبية زيادةً

مهما كانت صغيرة لتمزَّقنا مزقاً؛ ولو زادت الطاقة الكهرومغنطيسية زيادةً مهما كانت صغيرة لانكمشنا على أنفسنا كما يحصل لوجبة السوفليه الفاشلة.[1]

نعم، ولكن ماذا يعني هذا؟ لا تقول لنا الصيغة الضعيفة سوى أن الحياة تناسبها قوانين الطبيعة وأنها تصبح مستحيلة إذا تغيَّرت قوانينها قيد أنملة. فكرة جديرة بالاهتمام، ولكنني لا أرى لها دلالات دينية – وللإنصاف، لا يرى لها معظم التلفيقيين دلالات كهذه (ولذا سموا هذه الصيغة «ضعيفة»). أما الصيغة القويَّة فتزوِّدني بمثالي الأثير للمنطق المفلوج الذي يأتي من مصادر عليا. فما دامت الحياة مستحيلة إذا تغيَّرت القوانين قيد أنملة فلا بدَّ أن القوانين هي ما هي عليه لأن الخالِق رغب في وجودنا.

إن هذه الفكرة تنتهي بالسخف الخالص القائم على أطروحة مضمرة هي أن البشر خُلِقوا لأسبابٍ جيِّدةٍ وضرورية (وأنَّ من سمح لنا بالمجيء إلى هذا العالَم لا بدَّ من وجوده لتحقيق مصيرنا – وهي أطروحة من شأنها تدمير «مبدأ الإنسانية القوي» بتحويله إلى مثالٍ تقليدي على المصادرة على المطلوب). فمن دون هذه الأطروحة، (وأنا أراها سخيفة، مصدرُها الاعتدادُ بالنفس، وليس لها من سند يسندها) ينهار المبدأُ الإنسانيُّ القويُّ هذا مقابل مصداقية التفسير المضادّ: «لو تغيَّرت قوانين الطبيعة قيد أنملة لما وجدنا هنا. صحيح. ولكن تشكيلاً آخر من تشكيلات المادَّة والطاقة سيكون موجوداً ، ولن يكون تشكيله عندئذٍ

(1) وجبة السوفليه الناجحة تحافظ على انتفاخها. أما إذا فشلت فإنها تنكمش.

أقلَّ إثارة للاهتمام من عالمنا وستتَّفق فيه مكوِّناته مع القوانين السائدة في هذه الطبيعة المختلفة. كلُّ ما هنالك أننا لن نكون هناك للمجيء بحجج سخيفة عن هذا العالَم البديل. نعم، لن نكون موجودين. ماذا يعني؟» (أنا سعيد لأننا موجودون هنا بالمناسبة - ولكنني لا أفهم كيف أن سعادتي تثبت وجود الله).

ربَّما ضحك القرّاء من الحجج القديمة السخيفة التي جري الاستشهاد بها لإثبات العناية الربّانية من الإكنومن وهو يتغذّى على الدود المشلول الحيّ. ولربما تساءلتَ عن السبب الذي جعلني أخصِّص كلَّ تلك المساحة لذلك الخصم المصنوع من القشّ للتمثيل على خَرْقِ مبدأ الانفصال من زمنٍ سيِّئٍ مضى وجاء زمنٌ آخرُ محلَّه. ولكن هل ستنظر أجيال المستقبل إلى هذه الحجج التلفيقية ضدَّ مبدأ الانفصال لاستنتاج وجود الله من حقائق الطبيعة على أنها أفضل حالاً؟

لا يحتاج البديل التوفيقي الآخر لمبدأ الانفصال - أبرد، وأصلب، وأقلّ من اللازم - إلى أكثر من فقرة أو فقرتين للتعليق على استراتيجيَّته التي لا تقوم على الحجَّة الفكرية بل على العادة الاجتماعية السائدة (والمؤسفة) التي تمنحه ما فيه من طاقة. قد يكون الملفِّقون سخفاء، ولكنهم على الأقلّ يعملون ما بوسعهم عمله ويتحدَّثون. أما التوفيقيّون الذين يتلخَّص موقفهم بعبارة «بلا تجريح رجاءً، فموقفنا سليمٌ سياسيّاً» فيتَّخذون موقف من يتحاشى إثارة المنازعات بالامتناع عن الكلام، أو بالكلام بالعبارات المخفَّفة غير المباشرة التي لا يقبض المرء منها على

شيءٍ محدَّد. لا شكَّ في أننا قادرون على تحاشي لغة الصراع العنصري إذا تحاشينا الحديث عن الأعراق البشرية. ولكن ما الذي يتغيَّر عندئذٍ، وما الذي يمكن حلُّه؟

ومع ذلك فإننا قادرون على وضع العلم والدين في حالة تعايش تحت مظلَّة السلامة السياسية لو أن العلماء جميعهم وعدوا بألا يقولوا شيئاً عن الدّين وأن العاملين في حقل الدّين أقسموا بألاّ ترد لفظة العلم على ألسنتهم. وقد اتخذت الثقافة الأمريكية المعاصرة هذا التعهُّد غير المقدَّس حول قضايا كثيرة من شأنها أن تولِّد نقاشاً صحِّيّاً ولكنها لا يمكن أن تنتهي نهاية صحيحة إذا امتنع بعضُنا عن التحدُّث مع بعضنا الآخر. ولا يستطيع المثقَّفون إلاّ أن يروا في هذا الكبت الطوعي للنقاش ضمانةً على أن القضايا الصعبة القابلة للحلِّ رغم صعوبتها ستظلُّ تلاحقنا كالخطيئة التي تلاحق القلب والعقل البشريَّين (ولست أعرف طريقة أخرى لوصفها). وإذا بلغ اهتزاز ثقتنا بقدراتنا العقلية الفريدة وسلامة طويَّتنا هذا الحدّ، فمن هو هذا الإنسان ليستدعي الاهتمام من أحد؟

إن مبدأ الانفصال يحرص على إعطاء العلم والدين مكانتين مختلفتين – ويعتبر كلاًّ منهما مؤسَّسة مستقلة، صخرة لعصورنا كلِّها، تسهم مساهمة حيوية في إغناء الوعي الإنساني. ولكن الانفصال يرفض الطريقين المؤدِّيين إلى التوفيق من جانبي البحث المخلص الدؤوب عن الحوار المفيد – طريق الوحدة الزائفة غير المنطقية التي ينادي بها

التلفيقيّون وطريق «السلامة السياسية» القائم على حلّ «القرود الثلاثة» المتمثِّل في تغطية العيون والآذان والأفواه.

على حقلي العلم والدين غير المتداخلين أن يعاملا بعضهما باحترام واهتمام بأهمّ ما يدور عنه الحديث الإنساني. وهنا أودّ أن أختم بذكر التسويغ الذي يقدّمه الحقلان. فالعلماء يقولون إن اللغة هي أخصّ الخصائص التي تميِّز البشر - ولن يحجم عن استعمال أقوى أسلحته إلا الغبي. أما بالنسبة للدّين، فقد بدأ هذا الكتاب بقصة التوماسين من آخر سِفْر يوحنّا. واسمحوا لي الآن بمحاكاة ما فعلته رواية **يقظة فنگن** لربط خاتمة الكتاب بأوَّله. ولست أعرف فيما إذا كان للعبارة معنى آخر في سياقها الأصلي، ولكن يوحنّا اعترف أيضاً بالتفرُّد الغالي نفسه - وهو المفتاح لحلِّ خلافاتنا والقوَّة الإيجابية الكامنة خلف مبدأ الانفصال - عندما بدأ إنجيله بدليلٍ يقودنا نحو الخلاص الحقيقي: في البدء كانت الكلمة.

صخرتا الزمن

يتناول هذا الكتابُ موضوعاً حسّاساً يلمّح له العنوان هو موضوعُ العلاقة بين العلم والدّين. ومن المعروف أن هذه العلاقة قد شابتها في العصور الوسطى وعصر النهضة في أوروبا بعضُ التوتّرات التي تمثّلت في أشهر الأمثلة عليها في اضطرار غاليليو للتنصّل من آرائه العلمية تحت ضغط الكنيسة، والتي تمثّلت في أمريكا في القرن العشرين بالصراع بين المؤمنين بالقراءة الحرفية لما يرد في الكتاب المقدّس وما تقوله نظرية التطوّر التي جاء بها دارْوِن.

والحلُّ الذي يقترحه المؤلّف لا يتمثّل في أن يتنازل أحدُ الجانبين للآخر عمّا يرى أنه هو الصواب، بل هو أن يجري الفصلُ بين الحقلين فصلاً تامّاً بحيث لا يبحث العلم في أمور الدّين ولا يبحث الدّين في أمور العلم. فمثلما أن العالِم لا يملك الحقّ في الإفتاء في أمور الدّين، كذلك لا يملك عالم اللاهوت الحقّ في أن يفتي في الأمور التي يتناولها العلم الطبيعي.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

9 789948 016052